# التغيير

## في خطاب القرآن الكريم

عبدالله بن عبده نعمان العواضي

شبكة الألوكة
www.alukah.net

# التغيير

## في خطاب القرآن الكريم

تأليف

عبد الله بن عبده العواضي

## مقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه، ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ }[آل عمران١٠٢]، {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً }[النساء١]، { يَآ أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَ قُولُواْ قَولاً سَدِيداً ، يُصلِحْ لَكُم أَعْمَالَكُم وَ يَغْفِرْ لِكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَ مَن يُطِعِ اللّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزَاً عَظِيمَاً } [الأحزاب٧٠-٧١]. فإن أصدق الحديث كتاب الله تعالى، وخير الهدي هدي رسول الله، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

**أما بعد:**

فإن القران منبع غزير، ومنهل دفاق بالعلم والهدى، ولا يزيده الزمان إلا جِدّة وألقًا، وامتداداً لسطوع أنواره على جوانب الحياة المختلفة. فمن رام المعرفة والعمل فليرجع إليه، ولينظر في موضوعاته.

ففي القرآن موضوعات كثيرة تعالج قضايا متعددة في حياة الإنسان العاجلة والآجلة.

ولا شك أن المتتبع لآياته الكريمة في الموضوع الواحد يظفر بعلم غزير، وخير كثير، يجدر به جمعه والإفادة منه.

وقد تتبعت الآيات الكريمة التي تحدثت عن موضوع التغيير بلفظه ومعناه؛ لأنظمها في سلك واحد، فقمت بجمعها وقسمت الدراسة حسب تلك الآيات إلى فصول ومباحث ومطالب وفروع ومسائل تحتوي على ما يراد البحث فيه؛ لبيان حدود هذه القضية القرآنية.

ومن هنا أقول: إنه مهما تقدمت المناهج الإصلاحية المعاصرة فلاتزال دون بلوغ منهج القرآن الإصلاحي، وهديه التغييري إلى آفاق السعادة، وصدور السيادة.

فما أكثر الدعوات المنادية بالتغيير! ولكن ما هو التغيير الذي تريده؟

ولو عرض الإنسان المتأمل تلك المشاريع التغييرية المنشودة على القرآن الكريم فسيجد مباينة أكثرها لما جاء به.

فإذا رجع إلى كتاب ربه وتأمل فيه أدرك ما التغييرُ الذي ينبغي أن يُنشد، ويسعى إليه، وما التغيير الذي يجب البعد عنه.

واليوم المجتمع بحاجة ملحة إلى ربطه بكتاب ربه في استيعاب المفاهيم الصحيحة والأخذ بها، وطرد المفاهيم الخاطئة من الأذهان والواقع. ويحتاج كذلك إلى وضع ضوابط ومنطلقات مهمة للعملية التغييرية الصحيحة الخاصة والعامة. والتحذير من المناهج التغييرية المنحرفة التي تعتمد البعد عن الشريعة الإسلامية المتمثلة بالقرآن والسنة طريقًا إلى تغييرها المنشود.

هذا من جانب، ومن جانب آخر تناولت الآيات الكريمة التي درستُها الحديثَ عن تغيير يحصل في الدنيا والآخرة من قبل الله تعالى العليم القادر الحكيم، وفي هذا من الحِكم والعبر والأحكام ما ينبغي معرفته، والاستفادة من الإلمام به.

فأسأل الله التوفيق والسداد، وحسن النصيحة والإرشاد.

والحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وكتبه: عبد الله بن عبده العواضي

٢/٥/٢٠١٥م.

## التمهيد: مصطلحات البحث

**وفيه ثلاثة مطالب:**

**المطلب الأول: تعريف التغيير**

**المطلب الثاني: تعريف الخطاب**

**المطلب الثالث: تعريف القرآن الكريم**

جرت عادة الباحثين والمصنفين في قديم الزمان وحديثه أن يبدؤوا بتوضيح مفهوم ما يريدون التأليف والبحث فيه، من حيث المصطلح للعلم الذي يكتبون فيه؛ حتى يستطيع القارئ فهم ما يكتبون عنه من خلال معرفته معاني مصطلحات البحث.

وسأتناول في هذا التمهيد بيان معاني: التغيير، الخطاب، القرآن، في الثلاثة المطالب الآتية:

### المطلب الأول: تعريف التغيير:

**تعريف التغيير لغة:**

يقال: غَيَّرْتُ الشيء فَتَغَيَّر، أي: بدلته فتبدل، ومنه غِيَرُ الزمان، أي: أحواله المتغيرة، وتغيرَ الشيء عن حاله: تحول، وغيَّره حولّه وبدله، كأنه جعله غير ما كان، والتغيير: تبديل شيء بما يضاده، فقد يكون تبديل صورة جسم كما يقال: غيرت داري ، وقد يكون تغيير حال وصفة، ومنه تغيير الشيب أي: صباغه، وكأنه مشتق من الغير وهو المخالف. وتغيير النعمة: إبدالها بضدها وهو النقمة وسوء الحال، أي: تبديل حالة حسنة بحالة سيئة (١).

قال الراغب الأصفهاني:" والتغيير يقال على وجهين: أحدهما: لتغيير صورة الشيء دون ذاته. يقال: غيرت داري: إذا بنيتها بناء غير الذي كان. والثاني: لتبديله بغيره. نحو: غيرت غلامي ودابتي: إذا أبدلتهما بغيرهما. نحو: {إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم} [الرعد/١١]"(٢).

فمن خلال ما سبق يتبين أن التغيير يأتي لمعان ثلاثة: أحدها: تغيير صورة الشيء دون ذاته، وثانيها: تبديله بغيره، وهو معنى تحويله وجعله غير ما كان، وثالثها: التخفيف وإصلاح شأن الشيء، كما يخفف صاحب البعير عن بعيره من رحله ويصلح من شأنه(٣).

---

(١ ) مختار الصحاح، للرازي (ص: ٤٨٨)، لسان العرب، لابن منظور (٥/ ٣٤)، التحرير والتنوير، لابن عاشور (٩/ ١٣٥).

(٢ ) مفردات ألفاظ القرآن، للراغب الأصفهاني (٢/ ١٦٨).

(٣ ) مجلة البحوث الإسلامية (٨/ ٢٢٤).

### تعريف التغيير اصطلاحاً:

عرف الجرجاني التغيير بأنه: إحداث شيء لم يكن قبله(١).

ولكن مما سبق في التعريف اللغوي يمكن أن يضاف إليه قول: "إما في ذاته وإما في صفاته"، وعليه فيكون التغيير هو: إحداث شيء في شيء لم يكن قبله، في ذاته أو في صفاته.

## المطلب الثاني: تعريف الخطاب:

### تعريف الخطاب لغة:

يقال: خاطبه مخاطبة وخطاباً، والخطاب: الكلام بين متكلم وسامع، ومنه اشتقاق الخطبة-بضم الخاء وكسرها- وهو خطيب القوم إذا كان هو المتكلم عنهم (٢).

### تعريف الخطاب اصطلاحاً:

الخطاب هو: اللفظ المتواضَع عليه، المقصود به إفهام من هو متهيئ لفهمه.

فاحترز بـ**"اللفظ"** عن الحركات والإشارات المفهمة، وبـ **"المواضعة و بالتواضع عليه"** عن الألفاظ المهملة، و بـ**"المقصود به الإفهام"** عن كلام لم يقصد به إفهام المستمع؛ فإنه لا يسمى خطابًا، وبقوله: **"لمن هو متهيئ لفهمه"** عن الكلام لمن لا يفهم كالنائم(٣).

ويمكن أن يقال في تعريفه أيضاً: إنه هو: القول الذي يفهم المخاطب به شيئاً(٤).

فالخطاب إذن هو الكلام المشتمل على حروف يفهم من خلالها المخاطَب مرادَ المخاطِب.

## المطلب الثالث: تعريف القرآن:

### تعريف القرآن لغة:

القرآن في الأصل مصدر، نحو: كفران ورجحان، يقال: قرأت الكتاب قراءة وقرآنًا، ومنه سمي القرآن؛ لأنه يجمع السور فيضمها، وقيل: لكونه جامعاً لثمرة كتب الله، بل لجمعه ثمرةَ جميع العلوم، كما أشار تعالى إليه بقوله: {وتفصيل كل شيء} [يوسف/١١١]، وقوله: {تبيانا لكل شيء} [النحل/٨٩](٥).

### تعريف القرآن اصطلاحاً:

**القرآن هو**: كلام الله المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم للإعجاز بسورة منه.

فإضافته إلى "الله" يُخْرِجُ كلام غيره من الإنس والجن والملائكة. وخرج "بالمنزل" على محمد صلى الله عليه وسلم التوراة

---

(١ ) التعريفات، للجرجاني (ص٨٧).

(٢ ) المصباح المنير، للفيومي (ص: ٩٢)، الصحاح، للجوهري (٢/ ١٣٧)، الاشتقاق، لابن دريد (ص: ٥٣).

(٣ ) كتاب الكليات، للكفوي (ص: ٦٥٨).

(٤ ) التوقيف على مهمات التعاريف، للمناوي (ص: ٣١٦).

(٥ ) مفردات ألفاظ القرآن، للراغب الأصفهاني (٢/ ٢٣٨)، الصحاح، للجوهري (٢/ ٧٤)، لسان العرب، لابن منظور (١/ ١٢٨).

والإنجيل وسائر الكتب، "وبالإعجاز" الأحاديث القدسية، والاقتصار على الإعجاز وإن أنزل القرآن لغيره أيضا؛ لأنه المحتاج إليه في التمييز(١).

وزاد بعضهم في التعريف "المتعبد بتلاوته"؛ ليخرج منسوخ التلاوة(٢).

(١ ) إتمام الدراية لقراء النقاية، للسيوطي (ص: ١٨).

(٢ ) مباحث في علوم القرآن، للقطان (ص: ١٧).

# الفصل الأول

## التغيير بين الحمد والذم

**وفيه مبحثان:**

**المبحث الأول: التغيير المحمود، وفيه مبحثان**

**المبحث الثاني: التغيير المذموم، وفيه مبحثان**

## المبحث الأول

## التغيير المحمود

إن الناظر في حديث القرآن الكريم عن التغيير يجد أن التغيير من حيث الحمد والذم يتنوع إلى نوعين: تغيير محمود، وتغيير مذموم، وقد جاء هذا الوصف بالحمد أو بالذم من جهة آثاره العاجلة أو الآجلة.

وقد اشتمل هذا المبحث على مطلبين:

**المطلب الأول: تعريف التغيير المحمود**

**المطلب الثاني: أنواع التغيير المحمود**

### المطلب الأول: تعريف التغيير المحمود:

من خلال استعراض نصوص القرآن الكريم وفهمها في هذا الموضوع يمكن أن يعرف التغيير المحمود بأنه: التغيير الشرعي الذي قام على مصلحة مباحة راجحة، تؤول إلى خير عاجل أو آجل.

**شرح التعريف:**

**ف"التغيير"** هنا يشمل التغيير الإلهي، والتغيير من المكلفين. **و"الشرعي"** هذا قيد يبين المنطلَق الذي جاء منه هذا التغيير، فلا بد أن يكون مأخوذاً من شرع الله مما دعا إليه أو أباحه.

وقول:" **قام على مصلحة مباحة راجحة تؤول إلى خير عاجل أو آجل** " فيه بيان الغاية من هذا التغيير. ويتضح ما احتواه التعريف بالأمثلة الآتية:

**فمن أمثلة التغيير الإلهي: تغيير القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة:**

قال تعالى:{قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاء فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ } [سورة البقرة، الآية: ١٤٤].

عن البراء بن عازب رضي الله عنهما قال: (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى نحو بيت المقدس ستة عشر أو سبعة عشر شهراً، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب أن يوجه إلى الكعبة، فأنزل الله: { قد نرى تقلب وجهك في السماء }. فتوجه نحو الكعبة. وقال السفهاء من الناس وهم اليهود: { ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها قل لله المشرق والمغرب يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم }. فصلى مع النبي صلى الله عليه وسلم رجل، ثم خرج بعدما صلى، فمر على قوم من الأنصار في صلاة العصر نحو بيت المقدس، فقال وهو يشهد أنه صلى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأنه توجه نحو الكعبة فتحرّف القوم حتى توجهوا نحو الكعبة)(١).

فهذا التغيير حكم شرعي من الله تعالى، وفيه مصلحة مباحة راجحة على بقاء التوجه إلى بيت المقدس، وهذه المصلحة هي توجه الجباه والقلوب إلى أول بيت وضع للناس، وإلى الجهة التي خرج منها خير البشر صلى الله عليه وسلم، وفيها مخالفة لأعداء الأمة المحمدية وهم اليهود، وأن هذه الأمة متميزة على غيرها من الأمم، فاختير لها أفضل الجهات.

قال الفخر الرازي– معدداً وجوه حِكم هذا التغيير الإلهي–:" أحدها: أنه إذا ترسخ في أوهام بعض الناس أن هذه الجهات أشرف من غيرها؛ بسبب أن هذا البيت بناه الخليل وعظمه، كان هذا الإنسان عند استقباله أشد تعظيماً وخشوعاً، وذلك مصلحة مطلوبة. وثانيها: أنه لما كان بناء هذا البيت سبباً لظهور دولة العرب كانت رغبتهم في تعظيمه أشد. وثالثها: أن اليهود لما كانوا يعيرون المسلمين عند استقبال بيت المقدس بأنه لولا أنا أرشدناكم إلى القبلة لما كنتم تعرفون القبلة، فصار ذلك سببًا لتشويش الخواطر، وذلك مخل بالخضوع والخشوع، فهذا يناسب الصرف عن تلك القبلة. ورابعها: أن الكعبة منشأ محمد صلى الله عليه وسلم، فتعظيم الكعبة يقتضي تعظيم محمد عليه الصلاة والسلام، وذلك أمر مطلوب؛ لأنه متى رسخ في قلبهم تعظيمه كان قبولهم لأوامره ونواهيه في الدين والشريعة أسرع وأسهل، والمفضي إلى المطلوب مطلوب، فكان تحويل القبلة مناسبًا. وخامسها: أن الله تعالى بين ذلك في قوله: { وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه}[ سورة البقرة، الآية: ١٤٣]، فأمرهم الله تعالى حين كانوا بمكة أن يتوجهوا إلى بيت المقدس؛ ليتميزوا عن المشركين، فلما هاجروا إلى المدينة وبها اليهود أمروا بالتوجه إلى الكعبة؛ ليتميزوا عن اليهود" (٢).

وهناك من الحكم شيء آخر يرتبط بالانقياد لهذا النبي الكريم الذي جاء بدين جديد على العرب، فـ" لقد كان تحويل القبلة عن الكعبة إلى المسجد الأقصى لحكمة تربوية أشار إليها قوله تعالى:{ وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه }[ سورة البقرة، الآية: ١٤٣]، فقد كان العرب يعظمون البيت الحرام في جاهليتهم ، ويعدونه عنوان مجدهم القومي، ولما كان الإسلام يريد استخلاص القلوب لله، وتجريدها من التعلق بغيره، وتخليصها من كل نعرة وكل عصبية لغير المنهج الإسلامي المرتبط بالله مباشرة، المجرد من كل ملابسة تاريخية أو عنصرية أو أرضية على العموم، فقد نزعهم نزعاً من الاتجاه إلى البيت الحرام، واختار لهم الاتجاه – فترة – إلى المسجد الأقصى؛ ليخلص نفوسهم من رواسب الجاهلية، ومن كل ما كانت تتعلق به في الجاهلية، وليظهر من يتبع الرسول اتباعاً مجرداً من كل إيحاء آخر، اتباع الطاعة الواثقة الراضية المستسلمة، ممن ينقلب على عقبيه؛ اعتزازاً بنعرة جاهلية تتعلق بالجنس والقوم والأرض والتاريخ؛ أو تتلبس بها في خفايا

---

(١ ) رواه البخاري (١/ ١٥٥)، ومسلم (١/ ٣٧٤).

(٢ ) تفسير الرازي: مفاتيح الغيب (٤/ ٨٧-٨٨).

المشاعر وحنايا الضمير أي تلبس من قريب أو من بعيد. حتى إذا استسلم المسلمون، واتجهوا إلى القبلة التي وجههم إليها الرسول – صلى الله عليه وسلم – وفي الوقت ذاته بدأ اليهود يتخذون من هذا الوضع حجة لهم، صدر الأمر الإلهي الكريم بالاتجاه إلى المسجد الحرام. ولكنه ربط قلوب المسلمين بحقيقة أخرى بشأنه. هي حقيقة الإسلام. حقيقة أن هذا البيت بناه إبراهيم وإسماعيل؛ ليكون خالصاً لله، وليكون تراثاً للأمة المسلمة التي نشأت تلبية لدعوة إبراهيم ربه أن يبعث في بنيه رسولاً منهم بالإسلام، الذي كان عليه هو وبنوه وحفدته"(١).

**ومن الأمثلة كذلك:** ما حصل في غزوة أحد من قلب نتائج المعركة، من تقدمٍ على العدو إلى آلام وجروح في المسلمين، وهذا التغيير الإلهي فيه خير عاجل، وخير آجل بينه الله تعالى في التعليق على حِكم هذا التغيير في هذه الغزوة فقال تعالى: {قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانْظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ{١٣٧} هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ{١٣٨} وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ{١٣٩} إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاء وَاللهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ{١٤٠} وَلِيُمَحِّصَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ{١٤١} أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الَّذِينَ جَاهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ{١٤٢}١٤١} [سورة آل عمران، الآيات: ١٣٧-١٤١].

فهذا التغيير فيه خير عاجل للمؤمنين وهو: تربيتهم على الطاعة والامتثال للشرع بعدما حصل من الرماة ما حصل، وتصفية للنفس المؤمنة من كل شوائب التعلق بالدنيا عند مواجهة العدو؛ ليكون جهادها خالصاً لوجه الله تعالى، وفيه تكفير لسيئاتهم ، وتمحيص لصفوفهم لإخراج المنافقين الذين يندسون فيهم.

وفي هذا التغيير خير آجل وهو: اتخاذ شهداء من المؤمنين، ورفع لدرجات المبتلَين منهم.

**ومن الأمثلة على التغيير البشري المحمود الذي فيه مصلحة راجحة وخير عاجل وآجل:**

ما فعله أصحاب الكهف الذين آمنوا بربهم من بين قومهم، فخافوا على دينهم الحق، وعلى نفوسهم الزكية من بطش الكفرة وفتنتهم، فغيروا بيئتهم الفاسدة إلى بيئة صالحة يعبدون الله فيها بأمان، حيث هجروا مكان الدعة والنعيم ورغد العيش والاجتماع، وأووا إلى كهف في جبل حيث الزهد وشظف العيش والانعزال عن البشر والأنس برب البشر سبحانه وتعالى.

قال تعالى: {أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَباً{٩} إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَداً{١٠} فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَداً{١١} ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَداً{١٢} نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى{١٣} وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَهاً لَقَدْ قُلْنَا إِذاً شَطَطاً{١٤} هَؤُلَاء قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً{١٥} وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحمته ويُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقاً{١٦}...الخ [سورة الكهف، الآيات: ٩-١٦].

---

(١ ) في ظلال القرآن، لسيد قطب(١/ ٩٥).

والمتأمل في قصة هؤلاء الفتية يرى أن عناصر التغيير من الحركة والانتقال حاضرة من مثل: (أوى، فقاموا)، ثم جاء بعد ذلك السكون والاطمئنان والأمان، فعوضهم الله خيراً مما فقدوا. وتغيير البيئة -وإن كان صعباً على بعض النفوس- لكنه قد يكون هو الخيار الأفضل، كما حصل للنبي عليه الصلاة والسلام والمهاجرين الذين كانت أفئدتهم متعلقة بمكة المكرمة.

## المطلب الثاني: أنواع التغيير المحمود:

**وفيه أربعة فروع:**

**الفرع الأول: التغيير العقدي**

**الفرع الثاني: التغيير الفقهي**

**الفرع الثالث: التغيير النفسي**

### الفرع الأول: التغيير العقدي المحمود

إن التغيير العقدي المحمود أهم أنوع التغيير على الإطلاق؛ لأنه مصدر أنواع التغييرات المحمودة الأخرى، فإذا غيرت الاعتقادات المنحرفة إلى اعتقادات مستقيمة تغيرت حياة الإنسان باطناً وظاهراً غالبًا.

**وفي هذا الفرع ست مسائل:**

**المسألة الأولى: تعريف التغيير العقدي المحمود**

**المسألة الثانية: مظاهر التغيير العقدي المحمود**

**المسألة الثالثة: أسباب التغيير العقدي المحمود**

**المسألة الرابعة: وسائل التغيير العقدي المحمود**

**المسألة الخامسة: آثار التغيير العقدي المحمود**

**المسألة السادسة: معوقات التغيير العقدي المحمود**

**المسألة الأول: تعريف التغيير العقدي المحمود:**

**التغيير العقدي لغة:**

العقدي: نسبة إلى العقد، والعقد: نقيض الحَلِّ، عَقَدَه يَعْقِدُه عَقْداً، يقال: عقدتُ الحبلَ والبيع والعهد فهو معقود، ومنه: عُقْدَةُ النكاح. واعتقد الشيءُ: اشتد وصلب. وهذه المادة-مادة عقد- تدل على الربط والشدّ بقوة؛ فإن ما عقد الإنسان عليه قلبه جازماً به فهو ( عقيدة ). واصطلح على إطلاق " العقيدة " على ما يعمله الشخص ويعتقده بقلبه من أمور الدين(١).

(١ ) لسان العرب، لابن منظور (٣/ ٢٩٦)، المعجم الوسيط، لإبراهيم مصطفى، وزملائه (٢/ ٦١٤)، مباحث في العقيدة، د/ناصر العقل

**التغيير العقدي اصطلاحاً:**

**التغيير العقدي المحمود هو:** عملية تبديل المعتقدات الباطلة شرعاً، بمعتقدات صحيحة شرعاً.

**شرح التعريف:**

فالتعريف يبين أن هناك تحويلاً حميداً يقوم به شخص أو أكثر، وأن هناك أموراً سيئة تحُول إلى أمور حسنة وهي المعتقدات، ثم لا بد أن يكون هذا التغيير والتحويل مبنياً على الشرع الذي جاءت به الرسل–عليهم الصلاة والسلام– من عند ربهم سبحانه وتعالى.

**المسألة الثانية: مظاهر التغيير العقدي المحمود:**

يلاحظ المتتبع للآيات التي تتحدث عن التغيير العقدي المحمود أن له مظهرين رئيسين، هما:

**المظهر الأول: دعوة الأنبياء والرسل – عليهم الصلاة والسلام– مَن أُرسلوا إليهم إلى عبادة الله تعالى وحده.**

فقد جاء الرسل–عليهم الصلاة والسلام– إلى الذين غيروا دين الفطرة دين التوحيد ليدعوهم إلى الرجوع إلى عبادة الله وحده، قائلين لهم: { يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلاَ تَتَّقُونَ }[ الأعراف: ٦٥].

ولم تكن هذه الدعوة الحقة الجديدة على قوم مردوا على الشرك بالله تعالى لِتلقى القبولَ الحسن والأرض الرحبة لاستقبالها ونصرها، بل واجهت صدوداً وعناداً؛ فلذلك استفرغ الرسل عليهم السلام ما بوسعهم من سبل الهداية ومدّوها للناس لعلهم أن يسلكوها إلى الصراط المستقيم، وفي مقابل ذلك كان للمشركين أساليب كذلك في دفع دعوة التغيير.

**أولاً: أساليب الرسل عليهم السلام بين أقوامهم في تغيير الشرك بالتوحيد:**

لقد استخدم الرسل–عليهم الصلاة والسلام– لإقناع المشركين بتغيير ما هم عليه من الانحراف أساليب شتى، كان منها:

**١– طمأنة المدعوين بأن الرسل أمناء فيما جاءوا به، نصحةٌ لهم، لا يريدون بدعوتهم شيئاً من الدنيا: لا مالاً، ولا سلطاناً، ولا جاهًا.**

قال تعالى عن نبيه هود عليه السلام: {أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنَاْ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ }[الأعراف:٦٨].

وقال تعالى: {يَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلاَ تَعْقِلُونَ }[هود:٥١].

وقال عن نبيه نوح عليه السلام: { وَيَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلاقُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ } [هود:٢٩].

وقال تعالى: {يَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلاَ تَعْقِلُونَ }[هود:٥١].

قوله: "{لا أسألكم عليه أجرا} أي: لست طالب نفع لنفسي على إبلاغ القرآن؛ ليكون ذلك تنبيهًا للاستدلال على صدقه؛ لأنه لو كان يريد لنفسه نفعًا لصانعهم ووافقهم"(١).

و "ما من رسول إلا واجه قومه بهذا القول–{لا أسألكم عليه أجرا} –؛ لأن شأنهم النصيحة، والنصيحة لا يمحصها ولا يمحضها إلا حسم المطامع، وما دام يتوهم شيء منها لم تنجع ولم تنفع"(١).

---

(ص: ٤)، رسالة في أسس العقيدة، لمحمد السعوي (ص: ١).

(١ ) التحرير والتنوير، لابن عاشور (٦/ ٢٠٩).

**٢- إظهار الشفقة بهم والخوف عليهم إذ لم يقبلوا دعوة الحق من حصول العذاب**

قال تعالى: { وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ }[الأحقاف:٢١].

وقال تعالى: { لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ [الأعراف:٥٩].

قوله: {إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم}"كأنه قيل: اتركوا عبادة غير الله؛ خوفًا من عذاب يوم عظيم، وبنى نظم الكلام على خوف المتكلم عليهم؛ دلالة على إمحاضه النصح لهم، وحرصه على سلامتهم، حتى جعل ما يضر بهم كأنه يضر به، فهو يخافه كما يخافون على أنفسهم؛ وذلك لأن قوله هذا كان في مبدأ خطابهم بما أرسل به، ويحتمل أنه قاله بعد أن ظهر منهم التكذيب، أي: إن كنتم لا تخافون عذابًا فإني أخافه عليكم، وهذا من رحمة الرسل بقومهم"(٢).

**٣- مناظرتهم ومحاولة إقناعهم عقلياً ببطلان ما يعبدون، وضرورة تغيير تلك المعبودات الباطلة**

وقد ضرب نبي الله إبراهيم –عليه السلام– في ذلك أروع الأمثلة في مناظرة أبيه وقومه، فمن ذلك قوله: {وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَّبِيّاً{٤١} إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئاً{٤٢} يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطاً سَوِيّاً{٤٣} يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيّاً{٤٤} يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيّاً{٤٥} قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيّاً{٤٦} قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيّاً{٤٧}[مريم: ٤١-٤٧].

إن هذه المناظرة الإبراهيمية تقوم على الحرص على هداية إبراهيم لأبيه من الشرك إلى التوحيد، وقد بناها على اللطف والرفق في الخطاب، والحجج العقلية التي لا تقف أمام نورها ظلمات الضلالة، لكن آزر صد نفسه عن القبول ودفع مقال إبراهيم الرفيق بالعنف والوعيد؛ ليرفض دعوة التغيير من الباطل إلى الحق، ومن الظلام إلى النور.

ونجد إبراهيم عليه السلام يستخدم هذا الأسلوب أيضًا مع نمرود، كما قال تعالى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَآجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رِبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ{٢٥٨}[البقرة: ٢٥٨]. إن العقول الصافية إذا ضلت فجاءها نور يهديها سرعان ما تستجيب له، لكن إذا استحكم عليها الانحراف –خصوصًا إذا كان في بقائه مصالح عظيمة لها– فإن الهدى إليها يرتد عنها؛ لوجود الحجب الكثيفة التي تحول بينه وبين النفوذ إليها، كما حصل للجبار نمرود.

**٤- تذكيرهم بالنعم التي أنعم الله عليهم؛ لعل ذلك أن يأخذ بأيديهم إلى عبادة المنعم سبحانه وحده**

قال تعالى عن نبيه هود عليه السلام:{أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَاذْكُرُواْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاء مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُواْ آلاء اللهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ }[الأعراف:٦٩].

---

(١ ) تفسير الكشاف، للزمخشري(٢/ ٣٨٠).

(٢ ) التحرير والتنوير، لابن عاشور (٨/ ١٤٦).

وقال عن نبيه شعيب عليه السلام: { وَاذْكُرُواْ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمْ وَانظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ }[الأعراف:٨٦].

والمقصود من هذا التذكير: " أنهم إذا تذكروا كثرة إنعام الله عليهم فالظاهر أن ذلك يحملهم على الطاعة والبعد عن المعصية"(١)، فـ"التذكير بنعمة الله تعالى طريق من طرق مواعظ الرسل"(٢).

**٥- تذكيرهم بما حل بالأمم المكذبة قبلهم من النكال والهلاك**

قال تعالى عن نبيه شعيب عليه السلام:{وَيَا قَوْمِ لاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ }[هود:٨٩].

وقال تعالى:{ وَلا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ }[الأعراف:٨٦].

فحينما يتأمل الإنسان الضال مصارع أهل الضلال وينظر عاقبتهم فقد يؤوب إلى رشده، فيغير مساره المنحرف ويعود إلى الجادة.

**٦- ترغيبهم بأن الإيمان يجلب لأهله خير الدنيا والآخرة**

قال تعالى عن نبيه هود عليه السلام:{وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاء عَلَيْكُم مِّدْرَاراً وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلاَ تَتَوَلَّوْاْ مُجْرِمِينَ }[هود:٥٢].

وقال: {وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ }[الأنعام:٤٨].

والنفس متعلقة بالمصالح، فقد تستجيب لداعي الحق إذا تحققت لها مصالح عاجلة أو آجلة.

**٧- ترهيبهم -في النهاية إذا لم يقبلوا دعوة التغيير المحمود- بحلول العذاب العاجل والآجل عليهم، وتبديل قوم آخرين مكانهم**

قال تعالى عن نبيه شعيب عليه السلام: {وَيَا قَوْمِ اعْمَلُواْ عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُواْ إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ}[هود:٩٣].

وقال تعالى عن نبيه هود عليه السلام:{فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْماً غَيْرَكُمْ وَلاَ تَضُرُّونَهُ شَيْئاً إِنَّ رَبِّي عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ }[هود:٥٧].

وهذا أسلوب آخر يوافق بعض النفوس التي لا ينجع معها إلا التخويف والوعيد، وهو أسلوب مفاصلة بعد نفاد الأساليب الأخرى التي لم تؤثر عليهم فتغير من أبوقهم عن الحق.

**ثانيًا: أساليب المشركين في دفع دعوة التغيير:**

إن المشركين حينما تغلغلت عقيدة الشرك في قلوبهم، وأخذوها كابراً عن كابر عسُر على كثير منهم قبول دعوة التغيير؛ ولأجل ذلك واجه المشركون الدعوة التغييرية الحقة بالرفض التام، مستخدمين في ذلك عدة أساليب وأعذار، منها:

---

(١ ) تفسير الرازي: مفاتيح الغيب (١٤/ ١٤٣).

(٢ ) التحرير والتنوير، لابن عاشور (٣/ ١٧٥).

**١- رد دعوة التغيير؛ لكون أهلها من البشر، لا من الملائكة، ولكون أتباعها من الضعفاء لا من أصحاب الرئاسة بينهم، ولكونها تدعو إلى إله واحد فقط**

قال تعالى عن نوح عليه السلام: {أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُواْ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ }[الأعراف:٦٣].

فإن كان عجبهم من كون الرسول بشراً مثلهم لا من غيرهم فهذا من حمقهم؛ " لأن العقل شاهد بأن مع حصول التكليف لا بد من منبه ورسول يعرفهم تمام ما يحتاجون إليه في أديانهم كالعبادات وغيرها،

وإذا ثبت هذا فنقول: الأولى أن يبعث إليهم من كان من جنسهم؛ ليكون سكونهم إليه أكمل والفهم به أقوى، كما قال تعالى:{ ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا} [ الأنعام: ٩ ]، وقال: { قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا} [ الإسراء ٩٥ ] "[(١)].

وقال: {فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قِوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَراً مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ }[هود:٢٧].

قال ابن كثير: " والملأ هم: السادة والكبراء من الكافرين منهم،{ ما نراك إلا بشرا مثلنا } أي: لست بملك، ولكنك بشر، فكيف أوحي إليك من دوننا؟ ثم {ما نراك اتبعك إلا أراذلنا } كالباعة والحاكة وأشباههم، ولم يتبعك الأشراف ولا الرؤساء منا، ثم هؤلاء الذين اتبعوك لم يكن عن تروٍّ منهم ولا فكرة ولا نظر، بل بمجرد ما دعوتهم أجابوك فاتبعوك؛ ولهذا قال: { وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي } أي: في أول بادئ الرأي، { وما نرى لكم علينا من فضل } يقولون: ما رأينا لكم علينا فضيلة في خلق ولا خلق، ولا رزق ولا حال، لما دخلتم في دينكم هذا، { بل نظنكم كاذبين } أي: فيما تدعونه لكم من البر والصلاح والعبادة، والسعادة في الدار الآخرة إذا صرتم إليها. هذا اعتراض الكافرين على نوح عليه السلام، وأتباعه، وذلك دليل على جهلهم وقلة علمهم وعقلهم؛ فإنه ليس بعار على الحق رذالة من اتبعه؛ فإن الحق في نفسه صحيح، وسواء اتبعه الأشراف أو الأراذل، بل الحق الذي لا شك فيه أن أتباع الحق هم الأشراف، ولو كانوا فقراء، والذين يأبونه هم الأراذل، ولو كانوا أغنياء. ثم الواقع غالبًا أن ما يتبع الحق ضعفاء الناس، والغالب على الأشراف والكبراء مخالفته، كما قال تعالى: { وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون } [الزخرف: ٢٣]، ولما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان صخر بن حرب عن صفات النبي صلى الله عليه وسلم، قال له فيما قال: (أشراف الناس اتبعوه أو ضعفاؤهم؟ قال: بل ضعفاؤهم. فقال هرقل: هم أتباع الرسل)[(٢)]،

وقولهم:{ بادي الرأي } ليس بمذمة ولا عيب؛ لأن الحق إذا وضح لا يبقى للتروي ولا للفكر مجال، بل لا بد من اتباع الحق والحالة هذه لكل ذي زكاء وذكاء، ولا يفكر وينزوي هاهنا إلا عيي أو غبي، والرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، إنما جاءوا بأمر جلي واضح[(٣)].

---

(١ ) تفسير الرازي : مفاتيح الغيب (١٧/ ٦).

(٢ ) رواه البخاري (١/ ٧)، ومسلم (٣/ ١٣٩٣).

(٣ ) تفسير ابن كثير (٤/ ٣١٦).

وقال تعالى: {أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِداً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ }[ص:٥].

وإنما حصل العجب الكبير منهم لهذا الدعوة لكونها: " خلاف ما ألفوا عليه آباءهم، الذين أطبقوا على عبادة آلهتهم، كابراً عن كابر؛ فإنَّ مدار كل ما يأتون ويذرون من أمور دينهم هو التقليد والاعتياد، فيَعُدون ما يخالف ما اعتادوه عجباً من العجاب، بل محالاً "[١].

**٢- الإصرار على عدم تغيير ما هم فيه من الباطل، والتواصي بالصبر على ذلك**

قال تعالى:{قَالُواْ يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ }[هود:٥٣].

وقال تعالى: { وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلا سُوَاعًا وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا }[نوح:٢٣].

وقال تعالى: { وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ }[ص:٦].

وهذا من شدة عنادهم وصدودهم، فكأن دعوة الرسل إياهم ما زادتهم إلا تمسكًا وثباتًا وصبراً على باطلهم، ولم يفتحوا إلى قلوبهم نافذة لعل النور يتسلل إليها، بل لم يزيحوا عن أعينهم الغشاوة حتى ترى الحقائق لتنقلها من حمأة الضلال إلى آفاق الهدى.

**٣- التباهي بما عندهم من أسباب القوة والقدرة، وظنهم أنهم سيعجزون الله تعالى بذلك**

قال تعالى: {فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ }[فصلت:١٥].

لقد جاء نبي الله هود عليه السلام إلى هؤلاء الجبارين الذين يفخرون على الناس بقوتهم وسعة عيشهم، فدعاهم إلى نبذ إلهتهم الباطلة والاتجاه إلى عبادة الله وحده، فردوا دعوته مغترين بما لديهم من وسائل القوة، ظانين أنها ستبقى لهم، فكان هذا التباهي طريقاً لمواجهة دعوة التغيير التي حملها لهم هود عليه السلام.

**٤- الجواب بالتكذيب**

قال تعالى:{وَلَقَدْ جَاءهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ }[النحل:١١٣].

وقال تعالى:{ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَى بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ }[الأحقاف:٨].

سلوك طريق التكذيب كان أسلوبًا متفقًا عليه بين أعداء الرسل، يحاولون به إقناع أنفسهم وغيرهم للبقاء في بوتقة الانحراف، فصدوا أنفسهم وصدوا غيرهم؛ "لأن شؤم المبادرة إلى تكذيب الرسل سبب للطبع على القلوب والإبعاد عن الهدى"[٢].

**٥- تسفيه الرسل، ورميهم بأسوأ الألقاب: من الجنون والضلال، وطلب الرفعة في الدنيا عليهم**

قال تعالى: {قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وِإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ }{قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ }[الأعراف:٦٦-٦٧].

وقال تعالى: {وَقَالُواْ يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ }[الحجر:٦].

---

(١ ) البحر المديد، لابن عجيبة(٦/ ٣٠٦).

(٢ ) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، للشنقيطي (٢/ ٣٨).

وقال تعالى: {قَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ }[الأعراف:٦٠].

وقال تعالى: {قَالُواْ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاء فِي الأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ }[يونس:٧٨].

وهذه دعاوى باطلة لا يمكن أن تصمد أمام الحقيقة التي يعرفونها من صدق الرسل ورجاحة عقولهم، وأمانتهم ونصحهم، وإخلاصهم في دعوتهم، لكن ماذا يقولون للناس لكي يصرفوهم عن الحق إلا مثل هذه الاتهامات الزائفة التي تنطقها ألسنتهم وتكذبها قلوبهم وأعينهم. قال تعالى: { قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ }[الأنعام:٣٣].

**٦- ادعاء أن ما جاءوا به إنما هو حكايات وأساطير الأولين**

قال تعالى: {وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً }[الفرقان:٥].

قيل: إن النضر بن الحارث كان إذا جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم مجلسًا فدعا فيه إلى الله تعالى وتلا فيه القرآن وحذر قريشًا ما أصاب الأمم الخالية، خلفه في مجلسه إذا قام فحدثهم عن رستم وعن أسفنديار وملوك فارس، ثم يقول: والله ما محمد بأحسن حديثًا مني، وما أحاديثه إلا أساطير الأولين أكتتبها كما اكتتبتها![1].

**٧- إبداء الموافقة على قبول دعوة التغيير، ولكن بشروط اشترطوها على الرسل، مثل: حصول إنزال ملائكة، طلب معجزات مؤيدة، طرد الضعفاء من الأتباع**

قال تعالى: {وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً }[الفرقان:٧].

وقال تعالى: {وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعاً{٩٠} أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيراً{٩١} أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاء كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً أَوْ تَأْتِيَ بِاللّهِ وَالْمَلآئِكَةِ قَبِيلاً{٩٢} أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاء وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إَلاَّ بَشَراً رَّسُولاً{٩٣} وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُواْ إِذْ جَاءهُمُ الْهُدَى إِلاَّ أَن قَالُواْ أَبَعَثَ اللّهُ بَشَراً رَّسُولاً{٩٤} قُل لَّوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلآئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكاً رَّسُولاً{٩٥} قُلْ كَفَى بِاللّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً{٩٦}[الإسراء: ٩٠-٩٦].

وقال تعالى:{وَيَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللهِ وَمَا أَنَاْ بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّهُم مُّلاَقُو رَبِّهِمْ وَلَكِنِّيَ أَرَاكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ{٢٩} وَيَا قَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ اللهِ إِن طَرَدتُّهُمْ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ{٣٠}[هود: ٢٩-٣٠].

وقال تعالى:{وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ }[الأنعام: ٥٢].

عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: (كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم ستة نفر فقال المشركون للنبي صلى الله عليه وسلم: اطرد هؤلاء لا يجترئون علينا، قال: وكنت أنا وابن مسعود ورجل من هذيل وبلال ورجلان لست أسميهما، فوقع في

(١ ) السيرة النبوية، لابن هشام (٢/ ٢٠٣).

نفس رسول الله صلى الله عليه وسلم ما شاء الله أن يقع، فحدث نفسه فأنزل الله عز وجل: {وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ...} [الأنعام: ٥٢]. (١).

**٨- استعجال العذاب**

قال تعالى:{قَالُواْ يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ }[هود:٣٢].

وقال: { قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ }[الأحقاف:٢٢].

وقال تعالى:{ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ}[الحج:٤٧].

وهذا الاستعجال منهم مظهر من مظاهر تكذيب الأنبياء والطعن في صدق ما جاءوا به، وهو تحدٍّ صارخ يواجهونهم به، لكن هذا الأسلوب ينتهي أمده بحلول ما استبطأوه وكذبوا به، قال تعالى: { وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ }[السجدة:٢٠].

**٩- التهديد والوعيد**

قال تعالى:{قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ }[الشعراء: ١١٦].

وقال:{قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ }[الشعراء:١٦٧].

وهذا أسلوب يريدون به إيقاف الرسل عن مواصلة الدعوة، ولكن الرسل عليهم السلام لم يبالوا بذلك، قال تعالى: {وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلا تُنْظِرُونِ }[يونس:٧١].

"إنه التحدي الصريح المثير، الذي لا يقوله القائل إلا وهو مالئ يديه من قوته، واثق كل الوثوق من عدته، حتى ليغري خصومه بنفسه، ويحرضهم بمثيرات القول على أن يهاجموه! فماذا كان وراء نوح من القوة والعدة؟ وماذا كان معه من قوى الأرض جميعاً؟ كان معه الإيمان . . القوة التي تتصاغر أمامها القوى، وتتضاءل أمامها الكثرة، ويعجز أمامها التدبير. وكان وراءه الله الذي لا يدع أولياءه لأولياء الشيطان! إنه الإيمان بالله وحده ذلك الذي يصل صاحبه بمصدر القوة الكبرى المسيطرة على هذا الكون بما فيه ومن فيه. فليس هذا التحدي غروراً ، وليس كذلك تهوراً ، وليس انتحاراً. إنما هو تحدي القوة الحقيقية الكبرى للقوى الهزيلة الفانية التي تتضاءل وتتصاغر أمام أصحاب الإيمان. وأصحاب الدعوة إلى الله لهم أسوة حسنة في رسل الله . . وإنه لينبغي لهم أن تمتلئ قلوبهم بالثقة حتى تفيض. وإن لهم أن يتوكلوا على الله وحده في وجه الطاغوت أياً كان! .." (٢).

---

(١ ) رواه مسلم (٤/ ١٨٧٨).

(٢ ) في ظلال القرآن، لسيد قطب (٤/ ١٧٣).

**١٠- القتل والتصفية الجسدية**

كان هذا الأسلوب آخر سهم في كنانة أعداء الرسل في مواجهة دعوة التغيير الصادقة، فحينما لم تنجع الوسائل السابقة في صد تيار الحق الهادر لجأوا إلى القتل، فقد قتل بعض الأنبياء والرسل، كما ذكر الله ذلك عن أهل الكتاب، وحاولوا قتل آخرين-ومنهم نبينا عليه الصلاة والسلام، ولكن حال الله بينهم وبين ذلك.

قال تعالى: {لَّقَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاء سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ الأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ الْحَرِيقِ }[آل عمران:١٨١].

لقد واجه الرسل عليهم السلام كل هذا العناد من قبل أقوامهم على عدم قبول التغيير بالصبر والمصابرة، والثقة بنصر الله فكتب الله لهم ولمن قبل دعوتهم النجاة، ولمن عاداهم الهلاك والبوار.

قال تعالى: {ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنجَيْنَاهُمْ وَمَن نَّشَاء وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ }[الأنبياء:٩].

فقد "بين جل وعلا: أنه أرسل الرسل إلى الأمم فكذبوهم، وأنه وعد الرسل بأن لهم النصر والعاقبة الحسنة، وأنه صدق رسله ذلك الوعد فأنجاهم. وأنجى معهم من شاء أن ينجيه. والمراد به من آمن بهم من أممهم، وأهلك المسرفين وهم الكفار المكذبون الرسل، وقد أوضح هذا المعنى في مواضع كثيرة من كتابه، كقوله تعالى: {حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا فنجي من نشاء ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين}، وقوله: {فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله إن الله عزيز ذو انتقام}، وقوله تعالى: {فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين ولنسكننكم الأرض من بعدهم}، وقوله: {ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين إنهم لهم المنصورون وإن جندنا لهم الغالبون}، وقوله تعالى: {ولما جاء أمرنا نجينا هودا والذين آمنوا معه برحمة}، وقوله تعالى: {فلما جاء أمرنا نجينا صالحا والذين آمنوا معه برحمة منا}، وقوله: {ولما جاء أمرنا نجينا شعيبا والذين آمنوا معه برحمة منا}، إلى غير ذلك من الآيات"(١).

وهذا التغيير النبوي الكبير للانحراف البشري عن العقيدة الصحيحة قد ختم بخير الأنبياء والرسل محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام، كما قال رسول صلى الله عليه وسلم: (مثلي ومثل الأنبياء كمثل رجل بنى بنيانًا فأحسنه وأجمله، فجعل الناس يطيفون به يقولون: ما رأينا بنيانًا أحسن من هذا إلا هذه اللبنة، فكنت أنا تلك اللبنة)(٢).

إن هذا التغيير العظيم لانحراف البشرية الذي قام به الرسل -عليهم الصلاة والسلام- يعدّ أعظم تغيير في التاريخ؛ لأنه كان سبيلاً لنجاة فئام كثيرة من الناس من شقاء الدنيا والآخرة، بعد أن ضلت عن فطرتها التي فطرها الله عليها وهي البقاء على توحيد الله تعالى. قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: (كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه، أو ينصرانه، أو يمجسانه، كمثل البهيمة تنتج البهيمة هل ترى فيها جدعاء؟!(٣) يقول أبو هريرة: واقرأوا إن شئتم: { فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ }[الروم:٣٠](١).

---

(١ ) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، للشنقيطي (٤/ ١٣٧).

(٢ ) رواه مسلم (٤/ ١٧٩٠).

(٣ ) قال النووي :" (كما تُنتج البهيمةُ بهيمةً ) فهو بضم التاء الأولى وفتح الثانية، ورفع البهيمة ونصب بهيمة، ومعناه: كما تلد البهيمة بهيمة، ( جمعاء ) بالمد أي: مجتمعة الأعضاء سليمة من نقص، لا توجد فيها جدعاء بالمد وهي مقطوعة الأذن أو غيرها من الأعضاء، ومعناه: أن البهيمة تلد البهيمة كاملة الأعضاء لا نقص فيها وإنما يحدث فيها الجدع والنقص بعد ولادتها". شرح النووي على مسلم

قال ابن حجر" وأشهر الأقوال أن المراد بالفطرة: الإسلام، قال ابن عبد البر: وهو المعروف عند عامة السلف. وأجمع أهل العلم بالتأويل على أن المراد بقوله تعالى: {فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا} الإسلام، واحتجوا بقول أبي هريرة في آخر حديث الباب: اقرأوا إن شئتم: {فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا} وبحديث النبي صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه: "إني خلقت عبادي حنفاء كلهم، فاجتالتهم الشياطين عن دينهم"(٢). الحديث. وقد رواه غيره فزاد فيه: "حنفاء مسلمين "ورجحه بعض المتأخرين بقوله تعالى:{فِطْرَتَ اللَّهِ}؛ لأنها إضافة مدح، وقد أمر نبيه بلزومها، فعلم أنها الإسلام" (٣).

**المظهر الثاني: دعوة أتباع الرسل الناسَ إلى ما دعت إليه الرسل –عليهم السلام– من توحيد الله تعالى:**

لقد سار أتباع الرسل–عليهم السلام– على دربهم الحقّ يدعون الناس الضالين عن الطريق المستقيم؛ لكي يغيروا طريقهم المنحرف ويسلكوا سبل السلام، وتحملوا في سبيل ذلك المشقة والعناء، بل منهم من ضحى بروحه من أجل هداية قومه، سواء كانوا من الإنس أم من الجن.

فالرجل المؤمن في سورة يس لما علم بمجيء الرسل لدعوة قومه المشركين–وبلغه أن قومه لم يستجيبوا لهم وهموا بقتلهم– جاء إليهم يحثهم على الاستجابة للرسل وعدم رد دعوتهم.

قال تعالى: { وَجَاء مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ{٢٠} اتَّبِعُوا مَن لاَّ يَسْأَلُكُمْ أَجْراً وَهُم مُّهْتَدُونَ{٢١} وَمَا لِي لاَ أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ{٢٢} أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَن بِضُرٍّ لاَّ تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً وَلاَ يُنقِذُونِ{٢٣} إِنِّي إِذاً لَّفِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ{٢٤} إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ{٢٥} قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ{٢٦} بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ{٢٧} وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِن بَعْدِهِ مِنْ جُندٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ{٢٨} إِن كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ}{٢٩} [سورة يس: ٢٠-٢٩].

ومن أتباع الرسل عليهم السلام: مؤمن آل فرعون الذي جهر بإيمانه –بعد إخفائه– في وجه فرعون ودعاه وقومَه القبط إلى الاستجابة لدعوة موسى والكف عن قتله.

قال تعالى: {وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَاذِباً فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقاً يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ{٢٨} يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِن بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ{٢٩} وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ{٣٠} مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِّلْعِبَادِ{٣١} وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ{٣٢} يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ{٣٣}[سورة غافر: ٢٨-٣٣].

---

(١٦/ ٢٠٩).

(١ ) رواه البخاري (١/ ٤٦٥)، ومسلم (٤/ ٢٠٤٧).

(٢ ) رواه مسلم (٤/ ٢١٩٧).

(٣ ) فتح الباري بشرح صحيح البخاري، لابن حجر العسقلاني (٣/ ٢٤٨).

والقول الصحيح أن هذا الرجل المؤمن لم يكن من بني إسرائيل، بل كان من قوم فرعون القبط، وكان يخفي إيمانه، وكان له دور كبير في الدفاع عن موسى عليه السلام، ولو كان من بني إسرائيل لأوشك أن يعاجله فرعون بالعقوبة (١).

ومثل هذا المقام الكبير لهذا الرجل المؤمن: ما قام به صديق هذه الأمة –رضي الله عنه– بين ظهراني قريش منافحاً عن رسول الله–صلى الله عليه وسلم–، كما قال عروة بن الزبير – رضي الله عنهما–: (سألت عبد الله بن عمرو–رضي الله عنهما– عن أشد ما صنع المشركون برسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: رأيت عقبة بن أبي معيط جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو يصلي فوضع رداءه في عنقه فخنقه به خنقًا شديداً، فجاء أبو بكر حتى دفعه عنه فقال: أتقتلون رجلاً أن يقول: ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم؟!)(٢).

وللجن المؤمنين في سبيل التغيير العقدي بين قومهم جهد صالح كذلك؛ فقد أسلم نفر من الجن بين يدي رسول الله محمد– صلى الله عليه وسلم– وانطلقوا إلى قومهم داعين إلى الإيمان وتغيير عقيدة الضلال بعقيدة الهدى، قال تعالى:{ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ{٢٩} قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَاباً أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ{٣٠} يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ{٣١} وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء أُوْلَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ{٣٢}.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (انطلق النبي صلى الله عليه وسلم في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ، وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء، وأرسلت عليهم الشهب، فرجعت الشياطين إلى قومهم فقالوا: ما لكم ؟ فقالوا: حيل بيننا بين خبر السماء، وأرسلت علينا الشهب، قالوا: ما حال بينكم وبين خبر السماء إلا شيء حدث، فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها فانظروا ما هذا الذي حال بينكم وبين خبر السماء، فانصرف أولئك الذين توجهوا نحو تهامة إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو بنخلة عامدين إلى سوق عكاظ وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر، فلما سمعوا القرآن استمعوا له فقالوا: هذا والله الذي حال بينكم وبين خبر السماء، فهنالك حين رجعوا إلى قومهم فقالوا: يا قومنا { إنا سمعنا قرآنا عجبا . يهدي إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا } فأنزل الله على نبيه صلى الله عليه وسلم { قل أوحي إلي } وإنما أوحي إليه قول الجن)(٣).

"وحقًا كان هذا الحادث نصرًا آخر أمده الله من كنوز غيبه المكنون بجنوده التي لا يعلمها إلا هو، ثم إن الآيات التي نزلت بصدد هذا الحادث كانت في طيها بشارات بنجاح دعوة النبي صلى الله عليه وسلم، وأن أي قوة من قوات الكون لا تستطيع أن تحول بينها وبين نجاحها:{ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء أُوْلَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ } [ الأحقاف: ٣٢] ، { وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن نُّعجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَبًا } [ الجن: ١٢ ]. أمام هذه النصرة، وأمام هذه البشارات، أقشعت سحابة الكآبة والحزن واليأس التي كانت مطبقة عليه منذ أن خرج من الطائف

---

(١ ) تفسير الطبري (٢١/ ٣٧٦)، تفسير ابن كثير (٧/ ١٤٠)، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، للشنقيطي (٦/ ٣٨٤).

(٢ ) رواه البخاري (٣/ ١٣٤٥).

(٣ ) رواه البخاري (١/ ٢٦٧)، ومسلم (١/ ٣٣١).

مطرودًا مدحورًا، حتى صمم على العود إلى مكة، وعلى القيام باستئناف خطته الأولى في عرض الإسلام وإبلاغ رسالة الله الخالدة بنشاط جديد وبجد وحماس" (١) .

**المسألة الثالثة: أسباب التغيير العقدي المحمود:**

لقد كان للتغيير العقدي المحمود أسبابه التي دعت إليه، فإصلاح الاعتقاد أهم ما ابتدأ به الإسلام، وأكثر ما تعرض له؛ وذلك لأن إصلاح الفكرة هو مبدأ كل إصلاح؛ ولأنه لا يرجى صلاح لقوم تلطخت عقولهم بالعقائد الضالة، وخسئت نفوسهم بآثار تلك العقائد المثيرة، خوفًا من لا شيء، وطمعًا في غير شيء. وإذا صلح الاعتقاد أمكن صلاح الباقي؛ لأن المرء إنسان بروحه لا بجسمه(٢).

وقد كان من أسباب حصول التغيير العقدي-بإرسال الرسل- ما يأتي:

**١- انحراف البشرية عن توحيد الله تعالى:**

لقد عاش الناس منذ عهد آدم -عليه السلام- مدة من الزمن على عقيدة التوحيد الخالص لله تعالى، دين الفطرة، ومع امتداد القرون بدأ الشرك يدب إلى أوساطهم فاختلفوا في عبادة الله تعالى، فصاروا فريقين: مؤمنين، ومشركين، قال الله تعالى: {كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللهُ الَّذِينَ آمَنُواْ لِمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ }[البقرة:٢١٣].

فقوله: {وما كان الناس إلا أمة واحدة} [١٠/١٩]. أي: على الدين الحنيف، أي: حتى كفر قوم نوح، وقد أرسل الله آدم إلى ذريته وهم على الفطرة لم يصدر منهم كفر فأطاعوه، ونوح هو أول رسول أرسل لقوم كافرين ينهاهم عن الإشراك بالله تعالى، ويأمرهم بإخلاص العبادة له وحده (٣).

وقال تعالى: {وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلاَّ أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُواْ وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ } [سورة يونس، الآية: ١٩].

أي: "وما كان الناس إلا أهل دين واحد وملة واحدة، فاختلفوا في دينهم، فافترقت بهم السبل في ذلك، { ولولا كلمة سبقت من ربك } ، يقول: ولولا أنه سبق من الله أنه لا يهلك قومًا إلا بعد انقضاء آجالهم {لقضي بينهم فيما فيه يختلفون} يقول: لقضي بينهم بأن يهلك أهل الباطل منهم، وينجي أهل الحق" (٤).

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ( ألا إن ربي أمرني أن أعلمكم ما جهلتم مما علمني يومي هذا، كل مال نحلته عبداً حلال، وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرمتْ عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانًا)(٥).

---

(١ ) الرحيق المختوم، للمباركفوري (ص: ١٠١).

(٢ ) التحرير والتنوير، لابن عاشور (٣/ ٥١)

(٣ ) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، للشنقيطي (١/ ١٥٥).

(٤ ) تفسير الطبري (١٥/ ٤٧)

(٥ ) رواه مسلم (٤/ ٢١٩٧).

إن تلك الحقبة الزمنية التي كانت بين آدم ونوح-عليهما السلام- قد حددها حديث ابن عباس-رضي الله عنهما-في قوله: (كان بين آدم و نوح عشرة قرون، كلهم على شريعة من الحق فلما اختلفوا بعث الله النبيين و المرسلين، و أنزل كتابه فكانوا أمة واحدة)(١).

فهذا الانحراف عن طريق الدين الحق كان سبباً جوهرياً للتغيير العقدي المحمود.

**٢- رحمة الله بعباده:**

اقتضت رحمة الله بعباده أن يرسل إليهم رسلاً يردونهم إلى جادة الحق بعد أن ضلوا عنها، وأن لا يُترَكوا بدون هُداة يهدونهم حينما فشا بينهم الضلال والاعوجاج عن الصواب.

ومن أولئك الرسل العظام: نبينا محمد صلى الله عليه وسلم الذي لم تكن الرحمة بإرساله وإنزال القرآن عليه مقصورة على قوم دون آخرين، أو جنس معين دون غيره، وإنما أرسله الله للناس كافة بشيراً ونذيراً عربيهم وعجميهم، وثنيهم وكتابيهم إلى أن تقوم الساعة.

قال تعالى: {وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلاَّ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُواْ فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ }[النحل:٦٤].

وقال الله تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ }[الأنبياء:١٠٧].

قوله عز وجل: {وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين}، "يعني: وما بعثناك يا محمد، إلا رحمة للعالمين، يعني: نعمة للجن والإنس ويقال:( للعالمين ) أي: لجميع الخلق؛ لأن الناس كانوا ثلاثة أصناف: مؤمن وكافر ومنافق، وكان رحمة للمؤمنين حيث هداهم طريق الجنة، ورحمة للمنافقين حيث أمنوا القتل، ورحمة للكافرين بتأخير العذاب. عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: "من آمن بالله ورسوله فله الرحمة في الدنيا والآخرة، ومن لم يؤمن بالله ورسوله عوفي أن يصيبه ما كان يصيب الأمم قبل ذلك، فهو رحمة للمؤمنين والكافرين" " (٢).

**٣- إرادة الله لعباده أن يحصلوا على الحياة الطيبة:**

الظفر بالحياة الطيبة مطلب حياتي لكل حي، ولكن الناس يتباينون في طرق تحصيله. فيظن كثير من الناس أن نيل ذلك يأتي بالاستجابة للأهواء النفسية، والرغبات الجسدية، ولو كانت مخالفة لشرع الله تعالى، وهذا مفهوم خاطئ.

والحق أن السعادة كل السعادة في تنفيذ أوامر الله، والوقوف عند حدوده ونواهيه، وهذه هي الحياة الطيبة التي لم يذقها إلا القليل من الناس.

قال تعالى: {مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ }[النحل:٩٧].

قال ابن كثير: "والحياة الطيبة تشمل وجوه الراحة من أي جهة كانت" (٣).

---

(١ ) رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٤٨٠)، وقال: حديث صحيح على شرط البخاري، ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

(٢ ) بحر العلوم، للسمرقندي (٢/ ٤٤٥).

(٣ ) تفسير ابن كثير (٤/ ٦٠١).

ولهذا كان الرسل عليهم الصلاة والسلام ينبهون أقوامهم على هذا المراد؛ لعل الميل الطبعي لديهم إلى حب الحياة الطيبة يعينهم على الاستجابة.

قال تعالى: {وَأَنِ اسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعاً حَسَناً إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ }[هود:٣].

والمراد بالمتاع الحسن: الرزق الحلال، ورغد العيش وطيبه، والنعم والخيرات، والعافية في الدنيا، وقيل هو: طيب عيش المؤمن برجائه في الله ورضاه بقضائه؛ لأن الكافر قد يتمتع في الدنيا بالأرزاق(١).

## المسألة الرابعة: وسائل التغيير العقدي المحمود:

كان للتغيير العقدي المحمود وسائل عدة، وهي تقسم إلى قسمين:

وسائل إلهية، ووسائل بشرية:

### الأولى: الوسائل الإلهية:

### ١- إرسال الرسل:

لقد أرسل الله الرسل عليهم السلام لما بدأت فطرة الناس تنحرف عن مسارها الصحيح، وتأخذ بالشرك بدل التوحيد.

وكانت هذه الوسيلة تبشيراً للمؤمنين، وإنذاراً للكافرين، وإقامة للحجة على المكلفين، حتى لا يبقى للمعرضين -إذا عُذبوا- ذريعة يتعلقون بها.

قال الله تعالى: {رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللهُ عَزِيزاً حَكِيماً }[النساء:١٦٥].

وقال: {وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَى }[طه:١٣٤].

فقامت على الخلق الحجة بهذه الوسيلة، وهذا من فضل الله وعدله في خلقه؛ فإنه قال: { وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً }[الإسراء:١٥].

### ٢- إنزال الكتب السماوية على الأنبياء والرسل:

رافق إرسالَ الرسل إنزالُ الكتب عليهم من عند الله تعالى التي حوت وحيه إليهم؛ تأييداً لهم في دعوة قومهم، وإرشاداً لهم إلى سبل الهدى.

قال تعالى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ آمِنُواْ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِيَ أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِاللهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيداً }[النساء:١٣٦].

فقوله: {وَالْكِتَابِ الَّذِيَ أَنزَلَ مِن قَبْلُ } يعني: الكتب المتقدمة: التوراة، والإنجيل، والزبور وسائر الكتب المتقدمة (٢).

---

(١ ) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (١/ ٤٩١)، تفسير السراج المنير، للشربيني (٢/ ٣٧)، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، للشنقيطي (٢/ ١٧٠).

(٢ ) الكشف والبيان، للثعلبي (٣/ ٤٠١).

وقد أوتي رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم القرآن الكريم الذي كان من أعظم الوسائل التي نقلت بعض الكفرة إلى الإسلام؛ بسبب ما فيه من الإعجاز بجميع أنواعه.

**٣- المعجزات التي أجراها الله تعالى على أيدي الأنبياء والرسل:**

المعجزة هي: أمر خارق للعادة، داع إلى الخير والسعادة، مقرون بدعوى النبوة، قصد به إظهار صدق من ادعى أنه رسول من الله (١).

وقد قوّى الله تعالى مجيء رسله وأنبيائه إلى الناس بمعجزات تدل على صدقهم فيما يدعونهم إليه. حيث جعل تعالى معجزات الأنبياء بالوجه الشهير أبرع ما يكون في زمن النبي الذي أراد إظهاره، فكأن السحر في مدة موسى قد انتهى إلى غايته، وكذلك الطب في زمن عيسى، والفصاحة في مدة محمد عليهم الصلاة والسلام، فقامت الحجة على العالم بالعرب ؛إذ كانوا أرباب الفصاحة، ومظنة المعارضة كما قامت الحجة في معجزة عيسى بالأطباء، وفي معجزة موسى بالسحرة (٢).

وقد انتفع بهذه المعجزات من سلم من داء العناد، وأراد الله هدايته، كما انتفع السحرة بمعجزة عصا موسى عليه السلام فآمنوا من حينهم بالله رب العالمين، ولم يبالوا بوعيد فرعون وتهديده حينما ظهر لهم الحق بهذه الوسيلة.

أما من طبع على قلبه فكما قال الله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ } {وَلَوْ جَاءتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُاْ الْعَذَابَ الأَلِيمَ }[يونس٩٦-٩٧].

فلم يسعهم مع المعجزة إلا التكذيب، والتهم الباطلة للرسول بالسحر والجنون، كما قال تعالى: {كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ }[الذاريات:٥٢].

**الثانية: الوسائل البشرية:**

أعطى الله الإنسان إرادة واختياراً للفعل والترك، يستطيع من خلال ذلك أن يعمل ما ينفعه ويترك ما يضره.

ومن المسائل المهمة في هذا الجانب: تغيير المعتقد المنحرف إلى المعتقد المستقيم، وهذا الامر ربما يجد الراغب فيه صعوبات وعراقيل في نفسه، أو في مجتمعه الذي يعيش فيه، لكنه يستطيع الانتصار عليها حينما يسلك بعض الوسائل المعينة على ذلك.

والمتتبع لخطاب القرآن الكريم يجد أن الله تعالى قد أشار إلى وسائل بشرية ممكنة تدعو الإنسان إلى التغيير العقدي المحمود، ووسائل أخرى تخرجه من الضغط الاجتماعي الذي يريد له البقاء على الانحراف العقدي، وهو يريد التحرر منه إلى الدين الصحيح.

---

(١ ) التعريفات للجرجاني (ص: ٢٨٢).

(٢ ) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لابن عطية (١/ ٤٩).

**أولاً–وسائل شخصية تدعو إلى التغيير العقدي المحمود:**

**١– التفكر في خلق الله تعالى:**

العقل نعمة عظيمة من نعم الله تعالى حينما يستغلها الإنسان في البحث عن الحق، وقد جعل الله له في هذا الكون الفسيح مجالات للتفكر والتدبر. فإذا أعمل الإنسان لُبّه في التأمل والنظر الثاقب فيه–وكان بعيداً عن ربه– هداه ما في الكون إلى الصراط المستقيم.

قال تعالى:{ قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ }[يونس:١٠١].

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره: قل، يا محمد، لهؤلاء المشركين من قومك، السائليك الآيات على صحة ما تدعوهم إليه من توحيد الله وخلع الأنداد والأوثان: انظروا أيها القوم، ماذا في السموات من الآيات الدالة على حقيقة ما أدعوكم إليه من توحيد الله، من شمسها وقمرها، واختلاف ليلها ونهارها، ونزول الغيث بأرزاق العباد من سحابها، وفي الأرض من جبالها، وتصدعها بنباتها، وأقوات أهلها، وسائر صنوف عجائبها؛ فإن في ذلك لكم إن عقلتم وتدبرتم موعظة ومعتبرا"(١).

ويقول تعالى: {وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ{٢٠} وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ{٢١}[الذاريات: ٢٠-٢١]. والإنسان إذا تأمل في هذه الآيات وعظته، وساقته إلى الله تعالى. قال الشاعر:

تأمل في نبات الأرض وانظر ... إلى آثار ما صنع المليك

عيون من لجين شاخصات ... بأحداق هي الذهب السبيك

على قضب الزبرجد شاهدات ... بأن الله ليس له شريك

وقال الآخر:

فيا عجبًا كيف يعصى الإله ... أم كيف يجحده الجاحد

وفي كل شيء له آية ... تدل على أنه واحد (٢).

وقيل لإعرابي: "بم عرفت ربك؟ قال: البعرة تدل على البعير، والروث يدل على الحمير، وآثار الأقدام تدل على المسير، فسماء ذات أبراج، وبحار ذات أمواج، أما يدل ذلك على العليم القدير؟! "(٣).

**٢– السير في الأرض للاعتبار بمصارع المكذبين:**

وهذه وسيلة أخرى تقوم على التفكر، ولكن في عاقبة الذين لم يقبلوا التغيير العقدي الذي جاء به المرسلون.

يقول تعالى: {قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانْظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ }[آل عمران:١٣٧]. أي: قل لأهل مكة: سافروا في الأرض { ثم انظروا }يعني: اعتبروا { كيف كان عاقبة } يعني: آخر أمر { المكذبين } بالرسل والكتب(٤).

---

(١ ) تفسير الطبري (١٥/ ٢١٤).

(٢ ) تفسير ابن كثير (١/ ١٩٨).

(٣ ) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، للتلمساني (٥/ ٢٨٩).

(٤ ) بحر العلوم، للسمرقندي (١/ ٤٥٨).

وقال تعالى: {وَإِنَّ لُوطاً لَّمِنَ الْمُرْسَلِينَ{١٣٣} إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ{١٣٤} إِلَّا عَجُوزاً فِي الْغَابِرِينَ{١٣٥} ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ{١٣٦} وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ{١٣٧} وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ{١٣٨}[الصافات: ١٣٣-١٣٨]. وفي قوله: {أفلا تعقلون}، توبيخ لمن مرّ بديارهم، ولم يعتبر بما وقع لهم، ويعقل ذلك؛ ليجتنب الوقوع في مثله(١).

**ثانياً- وسائل مساعدة للخروج من الواقع المحارب للتغيير العقدي المحمود:**

**١- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:**

هذه الوسيلة هي أول خطوة في التغيير للمنكر العام، يقوم بها أهل الحق جماعات أو وحدانًا، سالكين في هذه الوسيلة أسلوبَ الحكمة والموعظة الحسنة، والمجادلة بالتي هي أحسن، وهي سبيل الرسل عليهم الصلاة والسلام، وهي أمر الله تعالى لأهل الإسلام، قال تعالى: (( وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ))[آل عمران:١٠٤].

قال ابن عاشور: "والآية أوجبت أن تقوم طائفة من المسلمين بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولاشك أن الأمر والنهي من أقسام القول والكلام، فالمكلف به هو بيان المعروف، والأمر به، وبيان المنكر، والنهي عنه، وأما امتثال المأمورين والمنهيين لذلك، فموكول إليهم أو إلى ولاة الأمور الذين يحملونهم على فعل ما أمروا به، وأما ما وقع في الحديث (من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطيع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه) فذلك مرتبة التغيير، والتغيير يكون باليد، ويكون بالقلب -أي: تمني التغيير-، وأما الأمر والنهي فلا يكونان بهما(٢).

فإذا لم تجدِ هذه الوسيلة مع قوم مفسدين لهم الغلبة في المجتمع، وضاقت الأمور بالمؤمن فلم يستطع إقامة دينه ولا تغيير واقعه فهناك وسائل أخرى وهي ما يأتي ذكره.

**٢- الدعاء والالتجاء إلى الله تعالى:**

الدعاء وسيلة عظيمة من وسائل التغيير، وهو عملية سهلة تعتمد على صدق التوجه وقوة اليقين والإخلاص. وقد استعمل الدعاء في التغيير العقدي المحمود في القرآن لأمرين:

**الأول: تسهيل سبل الخروج من أرض الكفر المحارب للإسلام:**

قال تعالى: {وَمَا لَكُمْ لاَ تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاء وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيّاً وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيراً }[النساء:٧٥]. يعني بذلك: أن هؤلاء المستضعفين من الرجال والنساء والولدان، يقولون في دعائهم ربهم بأن ينجيهم من فتنة من قد استضعفهم من المشركين:{يا ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها} (٣).

وقد استجاب الله تعالى دعاءهم فيسر لبعضهم الخروج إلى المدينة، وبقي بعضهم إلى أن فتحت مكة له صلى الله عليه وسلم، فتولاهم ونصرهم (٤) .

---

(١ ) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، للشنقيطي (١/ ٣٧٥).

(٢ ) التحرير والتنوير، لابن عاشور (٣/ ١٨٢).

(٣ ) تفسير الطبري (٨/ ٥٤٣).

(٤ ) تفسير السراج المنير، للشربيني (١/ ٢٥٤).

**الثاني: الدعاء بإهلاك الصادين عن دين الله تعالى، أو بإهلاك سبب صدودهم**

كما فعل نوح وموسى عليهما السلام، قال الله تعالى عن نوح: { وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ } { وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ }[الأنبياء:٧٦-٧٧].

"ونداء نوح هذا المذكور هنا هو المذكور في قوله تعالى: {ولقد نادانا نوح فلنعم المجيبون ونجيناه وأهله من الكرب العظيم وجعلنا ذريته هم الباقين} وقد أوضح الله هذا النداء بقوله: {وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا} ، وقوله تعالى: {كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدجر فدعا ربه أني مغلوب فانتصر ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر} . والمراد بالكرب العظيم في الآية: الغرق بالطوفان الذي تتلاطم أمواجه كأنها الجبال العظام، كما قال تعالى: {وهي تجري بهم في موج كالجبال} ، وقال تعالى: {فأنجيناه وأصحاب السفينة}" (١).

وقال عن موسى: {وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُواْ حَتَّى يَرَوُاْ الْعَذَابَ الأَلِيمَ }[يونس:٨٨].

وقد "مهد موسى لدعائه تمهيداً يدل على أن ما سأله من الله لزجر فرعون وملئه إنما هو لمصلحة الدين لا للانتقام منه لقومه ولنفسه، فسأل الله سلب النعمة عن فرعون وملئه وحلول العذاب بهم لخضد شوكتهم، وتذليل تجبرهم ليرجعوا عن ضلالهم ويسهل قبولهم الإيمان. ولما كانت النعمة مغرية بالطغيان لأهل الجهالة والخباثة جعل موسى إمداد فرعون بالنعمة مغريًا لفرعون بالاسترسال على الإعراض عن الدين، فكان دعاء موسى عليهم استصلاحًا لهم، وتطلبًا لإيمانهم بوسائل التشديد عليهم، ولكن الله علم من قلوبهم ما لم يعلمه موسى وقضى عليهم بالاستئصال"(٢).

والظاهر أن نوحًا وموسى عليهما وعلى نبينا الصلاة والسلام ما دعوا ذلك الدعاء على قومهما إلا بعد أن علما من الله أن أقوامهما أشقياء في علم الله لا يؤمنون أبدا، أما نوح فقد صرح الله تعالى له بذلك في قوله: {وأوحي إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن} [٣٦/١١]، وأما موسى فقد فهم ذلك من قول قومه له: {مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين} [١٣٢/٧]؛ فإنهم قالوا هذا القول بعد مشاهدة تلك الآيات العظيمة المذكورة في الأعراف وغيرها (٣).

**٣- الهجرة من وطن الخوف على الدين إلى وطن الأمان عليه:**

**الهجرة لغة:** مأخوذة من الهجر، بمعنى: القطع-ضد الوصل- والترك والإعراض والاعتزال، والتهاجر: التقاطع، والمهاجرة من أرض إلى أرض: ترك الأولى للثانية(٤).

---

(١ ) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، للشنقيطي (٤/ ١٦٩).

(٢ ) التحرير والتنوير، لابن عاشور (١١/ ١٦٣).

(٣ ) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن(٢/ ٢٤٨).

(٤ ) الصحاح، للجوهري (٣/ ٤١٦)، المصباح المنير، للفيومي (ص: ٣٢٦)، المعجم الوسيط، لإبراهيم مصطفى، وزملائه (٢/ ٩٧٢).

**الهجرة اصطلاحاً**: ترك الوطن الذي بين الكفار والانتقال إلى دار الإسلام(١).

الحفاظ على الدين والنفس عندما يتفاقم الخطر عليهما أولى من البقاء بين الأهل في الوطن المحبوب، والعقل الصحيح يقضي بذلك.

فقد هاجر بعض الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من أوطانهم؛ ابتغاء مرضاة الله، منهم إبراهيم ولوط وموسى وهارون ومحمد عليهم الصلاة والسلام.

قال تعالى: {فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ }[العنكبوت:٢٦].

وقال: {وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ }[الصافات:٩٩].

قال القرطبي: "هذه الآية أصل في الهجرة والعزلة، وأول من فعل ذلك إبراهيم عليه السلام، وذلك حين خلصه الله من النار، { قال إن ذاهب إلى ربي } أي: مهاجر من بلد قومي ومولدي إلى حيث أتمكن من عبادة ربي؛ فإنه { سيهدين } فيما نويت إلى الصواب(٢).

وموسى عليه السلام هاجر إلى مدين حينما بدأت المؤامرة الفرعونية تحاك لقتله، قال تعالى: {وَجَاء رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ{٢٠} فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفاً يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ{٢١} وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاء مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاء السَّبِيلِ{٢٢}[القصص: ٢٠-٢٢].

ورسولنا محمد صلى الله عليه وسلم فارق أحبَّ البقاع إلى قلبه مهاجراً إلى المدينة مع أصحابه، فقد" وقف النبي صلى الله عليه وسلم على الحزورة (٣) فقال: (علمت أنكِ خير أرض الله، وأحب الأرض إلى الله، ولولا أن أهلك أخرجوني منك ما خرجت)" (٤).

إن الهجرة -فراراً بالدين- من أعظم وسائل التغيير حفاظاً على العقيدة، وكسباً للراحة وطيبِ العيش إذا أخلصها المهاجر لله تعالى.

قال تعالى: {وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللّهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَماً كَثِيراً وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى اللّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللّهِ وَكَانَ اللّهُ غَفُوراً رَّحِيماً }[النساء:١٠٠].

هذا في الدنيا، وأما في الأخرة فالأجر أعظم، كما قال تعالى: {فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخْرِجُواْ مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُواْ وَقُتِلُواْ لأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ثَوَاباً مِّن عِندِ اللّهِ وَاللّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ }[آل عمران:١٩٥].

---

(١ ) التعريفات للجرجاني (ص: ٣١٩).

(٢ ) تفسير القرطبي (١٥/ ٩٧).

(٣ ) الحزورة من مكة: هو موضع بها عند باب الحناطين، وهو بوزن قسورة . قال الشافعي : الناس يشددون الحزورة والحديبية وهما مخففتان. النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير (١/ ٩٥٢).

(٤ ) رواه أحمد في مسنده (٤/ ٣٠٥)، قال الهيثمي: ورجاله ثقات. مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (٣/ ٣٥٦).

**المسألة الخامسة: آثار التغيير العقدي المحمود:**

لقد كان للتغيير العقدي المحمود آثاره الإيجابية على المستجيبين له في الحياة الدنيا، وفي الآخرة، ومن ذلك:

**١- معرفة الإنسان معبوده الحق وهو الله وحده لا شريك له:**

فبعد أن كان الإنسان يعبد غير الله تعالى مفرداً أو معدّداً صار-بالاستجابة- يعبد إلهاً واحداً هو الله جل جلاله.

فنبي الله إبراهيم عليه السلام -كما في سورة الأنعام- يبين لقومه صفاتِ الإله الحق تعالى من خلال هذه المناظرة العقلية(١) التي تعرفهم بالله الواحد الأحد الذي يتصف بالحياة والقيومية، اللتين تفتقر إليهما معبودتهم الباطلة.

قال تعالى: { وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَاماً آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ{٧٤} وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ{٧٥} فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَباً قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ{٧٦} فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغاً قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ{٧٧} فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ{٧٨} إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ{٧٩} وَحَآجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلاَ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلاَّ أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئاً وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً أَفَلاَ تَتَذَكَّرُونَ{٨٠} وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلاَ تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ {٨١} [سورة الأنعام: ٧٤-٨١].

ومن لم يستنر بنور الفطرة السليمة والوحي الإلهي لن يعرف خالقه، وحكمة خلقه له، ومصيرَه الذي ينتظره، كما قال ذلك التائه:

جئت، لا أعلم من أين، ولكني أتيت،
ولقد أبصرت قدامي طريقا فمشيت،
وسأبقى ماشيًا إن شئت هذا أم أبيت،
كيف جئت؟ كيف أبصرت طريقي؟، لست أدري!
أجديد أم قديم أنا في هذا الوجود، هل أنا حر طليق أم أسير في قيود
هل أنا قائد نفسي في حياتي أم مقود، أتمنى أنني أدري ولكن...، لست أدري!،
وطريقي، ما طريقي؟ أطويل أم قصير؟، هل أنا أصعد أم أهبط فيه وأغور،
أأنا السائر في الدرب أم الدرب يسير، أم كلانا واقف والدهر يجري؟،
أوراء القبر بعد الموت بعث ونشور، فحياة فخلود أم فناء ودثور،
أكلام الناس صدقٌ أم كلام الناس زور، أصحيح أن بعض الناس يدري؟..،لست أدري!، لست أدري!
إنني جئت وأمضي وأنا لا أعلم، أنا لغز ... وذهابي كمجيئي طلسم،

---

(١ ) هذا هو القول الصحيح: أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام، كان في هذا المقام مناظراً لقومه، ولم يكن ناظراً. ينظر في هذه المسألة: تفسير ابن كثير (٣/ ٢٩٢) وما بعدها، وأضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، للشنقيطي (١/ ٤٨٦).

والذي أوجد هذا اللغز لغز منهم، لا تجادل ذا الحجا من قال إني ...، لست أدري!

**٢- تحرير العقل الإنساني من أسر الخرافة، والرق لغير الله تعالى:**

فالعقل هبة سنية من هبات الله تعالى للإنسان، وصرفها للتعلق بعبادة غير الله جحود لها. ودعوة الأنبياء أتت لتطلق العقل ليجعل صاحبه عبداً لله وحده.

لقد حاول إبراهيم-عليه السلام- أن يقنع قومه بالحجج العقلية ببطلان عبادة غير الله، وأن العقل يحكم بذلك، كما قال تعالى عنه:{ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ{٥١} إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ{٥٢} قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءنَا لَهَا عَابِدِينَ{٥٣} قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ{٥٤} قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ{٥٥} قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ{٥٦} وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ{٥٧} فَجَعَلَهُمْ جُذَاذاً إِلَّا كَبِيراً لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ{٥٨} قَالُوا مَن فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ{٥٩} قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ{٦٠} قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ{٦١} قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ{٦٢} قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ{٦٣} فَرَجَعُوا إِلَى أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ{٦٤} ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُؤُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاء يَنطِقُونَ{٦٥} قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئاً وَلَا يَضُرُّكُمْ{٦٦} أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ{٦٧}[سورة الأنبياء: ٥١-٦٧].

كان راشد بن عبد ربه يسدن صنماً لبني سليم، فرأى يومًا ثعلبين يبولان على ذلك الصنم، فقال:

أربٌّ يبول الثعلبان برأسه! ... لقد ذلَّ من بالت عليه الثعالب!

ثم شد عليه فكسره، ثم أتى النبي، صلى الله عليه وسلم، فقال له: ما اسمك؟ قال: غاوي بن عبد العزى، قال: أنت راشد بن عبد ربه، فأسلم وحسن إسلامه، وشهد الفتح مع النبي صلى الله عليه وسلم(١).

**٣- الظفر بخيرات الدنيا وخيرات الآخرة:**

إن القلب إذا استقامت عقيدته استقامت سائر جوارح صاحبه، فالتغير الذي يحصل فيه ينعكس على أعمال الإنسان وأقواله .

ولأجل هذا حينما قبل بعض المشركين دعوة الرسل تغيرت حياتهم السلبية كلها بتغير معتقداتهم، فأدوا حق الخالق وحق الخلق فربحوا سعادة الدنيا والآخرة. ومما أعطاهم الله تعالى في الدنيا: الاستخلاف في الأرض، والنصرة والعزة، والأمن بعد الخوف.

قال الله تعالى: {الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ }[الأنعام:٨٢].

وقال تعالى: {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ }[النور:٥٥].

---

(١ ) الطبقات الكبرى، لابن سعد (٣٠٨/١).

أي: " وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات، أي: الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح أن يستخلفهم في الأرض، فيجعلهم الخلفاء والغالبين والمالكين، كما استخلف عليها من قبلهم في زمن داود وسليمان عليهما السلام وغيرهما، وأنه يمكن لهم دينهم وتمكينه ذلك هو أن يؤيدهم بالنصرة والإعزاز، ويبدلهم من بعد خوفهم من العدو أمناً بأن ينصرهم عليهم فيقتلوهم ويأمنوا بذلك شرهم، فيعبدونني آمنين لا يشركون بي شيئا ولا يخافون" (١).

إن من أولئك الذين تغيرت حياتهم بدعوة الحق: مشركي العرب وضلَّالهم، فلقد أحدث رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم من التغيير المحمود في حياة البشرية عموماً وحياة العرب خصوصاً في مدة وجيزة ما لم يحدث أحدثه أحد، فاهتدى بنور هداه الكونُ الحائر المتخبط في ظلمات الشرك، أو متاهاتِ اليهودية أو النصرانية التي امتدت إليها أيادي التحريف الآثمة، فحصل بذلك الاهتداء خيرات كثيرة.

وقد اعترف بعظم هذا التغيير الذي قام به رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم المنصفون من غير المسلمين، سواء قالوا ذلك بعد إسلامهم أم قالوه وهم باقون على كفرهم. يقول أحدهم: "ومما لا ريب فيه أن النبي محمداً كان من عظام الرجال المصلحين، الذين خدموا المجتمع الإنساني خدمة جليلة، ويكفيه فخراً أنه هدى أمة برمتها إلى نور الحق، وجعلها تجنح للسكينة والسلام وتؤثر عيشة الزهد، ومنعها من سفك الدماء، وتقديم الضحايا البشرية، وفتح لها طريق الرقي والمدنية، وهو عمل عظيم لا يقوم به إلا شخص أوتي قوة، ورجل مثل هذا جدير بالاحترام والإكرام "(٢).

ثم ينتقل هؤلاء الظافرون بهذه الخيرات إلى خيرات أعظم وأحسن يجدونها عند الله تعالى في الدار الآخرة: من دخول الجنة والرضا عنهم والنظر إلى وجه الله الكريم.

قال تعالى:{وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ }[النحل:٤١].

أما من تنكب طريق هذا التغيير، ولم يقبل به فإن الشقاء والهلاك ينتظره في الدنيا وفي الآخرة، ويظهر ندمه يوم القيامة ويتمنى أن لو استجاب.

يقول الله تعالى:{ قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى{١٢٣} وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى{١٢٤} قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيراً{١٢٥} قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى{١٢٦} وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى{١٢٧}[سورة طه: ١٢٣-١٢٧].

فقوله: { ومن أعرض عن ذكري } أي: خالف أمري، وما أنزلته على رسولي، أعرض عنه وتناساه وأخذ من غيره هداه { فإن له معيشة ضنكا } أي: في الدنيا، فلا طمأنينة له، ولا انشراح لصدره، بل صدره ضيق حرج لضلاله، وإن تنعم ظاهره،

---

(١ ) تفسير الرازي : مفاتيح الغيب (٢٢/٢٤).

(٢ ) الحضارة الإسلامية بين أصالة الماضي وآمال المستقبل، لعلي بن نايف الشحود (٢/ ١٣٨).

ولبس ما شاء وأكل ما شاء، وسكن حيث شاء، فإن قلبه ما لم يخلص إلى اليقين والهدى، فهو في قلق وحيرة وشك، فلا يزال في ريبة يتردد. فهذا من ضنك المعيشة... (١).

ويقول الله تعالى: {فَكُلّاً أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ }[العنكبوت:٤٠].

فقوله عز وجل: "{ فكلا أخذنا بذنبه }، يعني: كلهم أهلكناهم بذنوبهم ويقال معناه: أهلكنا كل واحد منهم بذنبه لا بذنب غيره، { فمنهم من أرسلنا عليه حاصبًا } يعني: الحجارة وهم قوم لوط، { ومنهم من أخذته الصيحة } وهم قوم صالح، { ومنهم من خسفنا به الأرض } يعني: قارون، {ومنهم من أغرقنا } وهم فرعون وقومه" (٢).

وقال النبي صلى الله عليه و سلم:( يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة وعلى وجه آزر قترة وغبرة، فيقول له إبراهيم: ألم أقل لك: لا تعصني؟! فيقول أبوه: فاليوم لا أعصيك، فيقول إبراهيم: يا رب، إنك وعدتني أن لا تخزيني يوم يبعثون، فأي خزي أخزى من أبي الأبعد؟ فيقول الله تعالى: إني حرمت الجنة على الكافرين، ثم يقال: يا إبراهيم، ما تحت رجليك؟ فينظر فإذا هو بذيخ متلطخ(٣) فيؤخذ بقوائمه فيلقى في النار)(٤).

## المسألة السادسة: معوقات التغيير العقدي المحمود:

لقد ذكر القرآن الكريم –في حديثه عن المعرضين عن دعوة النبيين والمرسلين– معوقات حالت بين المعرضين والاستجابة للحق والقبول به، ومن تلك المعوقات:

### ١– التقليد للآباء والكبراء الكافرين:

إن التقليد عبارة عن اتباع الإنسان غيره فيما يقول أو يفعل، معتقداً للحقيقة فيه، من غير نظر وتأمل في الدليل، كأن هذا المتبع جعل قول غيره أو فعله قلادة في عنقه (٥).

بهذا التعريف يتبين أن المقِلد قد عطل حواسه وعقله في النظر فيما دُعي إليه من الحق، فصار يرده بدعوى أن آباءه لم يدينوا بذلك.

قال الله تعالى: {بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ }[الزخرف:٢٢].

"ففي الآية إبطال لأن يكون لهم حجة أصلاً، أي: لا حجة لهم على ذلك عقلية ولا نقلية، وإنما جنحوا فيه إلى تقليد آبائهم الجهلة مثلهم، والأمة: الدين والطريقة التي تُؤم" (٦).

وهذا التقليد الأعمى جعلهم يكتفون بما عليه آباؤهم من الضلال، الذي أعاقهم عن قبول الحق، مع أن آباءهم لا علم عندهم بالصواب ولا اهتداء لديهم إليه.

---

(١ ) تفسير ابن كثير (٥/ ٣٢٢-٣٢٤). بتصرف

(٢ ) بحر العلوم، للسمرقندي (٢/ ٦٣٣).

(٣ ) الذِّيخ : ذكَر الضّباع والأنثى ذِيخَة. وأراد بالتَّلطُّخَ: التلطُّخ برَجِيعِه أو بالطِّين. النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير (٢/ ٤٣٥).

(٤ ) رواه البخاري (٣/ ١٢٢٣).

(٥ ) التعريفات، للجرجاني (ص: ٩٠).

(٦ ) روح المعاني، للألوسي (٢٥/ ٧٣).

قال تعالى: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَى مَا أَنزَلَ اللّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ }[المائدة:١٠٤].

بل بلغ بهم هذا الداء إلى استحلال الفواحش التي كان يرتكبها آباؤهم، معتقدين أنها لو كانت حراماً ما فعلها الآباء!

قال تعالى: {وَإِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءنَا }[الأعراف:٢٨ ].

فبين الله لهم –رداً عليهم– ضلال آبائهم فقال: { أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ }[البقرة:١٧٠].

وهذا المعوق لم يكن حجة مشركي قريش وحدهم، بل كان فيمن قبلهم كذلك، فقوم شعيب الكافرون أخذوا يتهكمون به ويستنكرون دعوته المخالفة لدين آبائهم الوثني حيث قالوا: {يَا شُعَيْبُ أَصَلاَتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاء إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ }[هود:٨٧].

هذا في تقليد الآباء، وأما تقليد الكبراء واتباع سبيلهم فهناك فئام من الناس أعرضوا عن الهدى تقليداً للسادة والكبراء، وطاعة لهم. ففرعون صدّ كثيراً من قومه عن دعوة موسى عليه السلام، وقال لهم: { مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ }[غافر:٢٩]. فوجد فرعون له مستجيبين رغباً أو رهباً فأضلهم بذلك، فضلوا عن سواء السبيل. قال تعالى: {وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى }[طه:٧٩]. وقال: {فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ }[الزخرف:٥٤].

وقال: { فَاتَّبَعُواْ أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ }[هود:٩٧]. ويوم القيامة تنكشف للمقلدين الحقائق، حينما يذهب عنهم عمى التقليد فيعترفون بأنهم مضلَّلون، فيدعون على كبرائهم بزيادة العذاب. قال تعالى: {وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا{٦٧} رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْناً كَبِيراً{٦٨}[سورة الأحزاب:٦٧-٦٨].

**٢- الكبر:**

إن أخلاق الإنسان الحميدة وسائل مفيدة لإيصال الخير إليه، ودفع ما عليه ضرر فيه. فإذا اشتمل على أخلاق كريهة مُنع عنه الخير بقدرها، وجلب الشر إليه بحسبها.

وإذا استعرض المرء خارطة الأخلاق السيئة لم يجد أسوأ من الكبر؛ لأنه جناية على النفس، وعلى الخلق، وسوء أدب مع الكبير المتعال جل جلاله.

ومن آثار الكبر الضارة لصاحبها: رد الحق وعدم قبوله، واحتقار الناس وازدراؤهم، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (الكبر بطر الحق، وغمط الناس)(١)(٢).

لقد وقف هذا العائق في طريق أقوام الرسل فصدهم عن الإيمان، وانحرف بهم عن النجاة. قال تعالى: {وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ }[النمل:١٤].

فقوله: { ظلما وعلوا } "أي: ظلمًا من أنفسهم، سجية ملعونة، { وعلوا } أي: استكباراً عن اتباع الحق" (٣).

---

(١ ) قال ابن الأثير: "البَطر : الطُّغْيان عند النّعْمة وطُولِ الْغِنَى، ومنه الحديث ( الكِبْر بَطَر الحقّ )، وهو أن يجْعل ما جعله الله حقًّا من تَوْحِيده وعبادته باطلاً ، وقيل: هو أن يتَجبَّر عند الحقّ فلا يراه حَقًّا ، وقيل: هو أن يتكبَّر عن الحق فلا يقبلُه والغمط: الاسْتِهانة والاسْتحْقار". النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير (١/ ٣٤٩).

(٢ ) رواه مسلم (١/ ٩٣).

(٣ ) تفسير ابن كثير (٦/ ١٨١).

وهذا المرض العضال كان له أسبابه ودواعيه عند أصحابه، فمن ذلك:

**أ- الرئاسة:**

فقد خشي أهل هذا المنصب أن يذهب عنهم بقبول الحق الذي جاء به الرسول؛ لأن النبوة تحتها كل ملك ورياسة(١)، وخافوا كذلك أن يصيروا مع الضعفاء في المنزلة والمعاملة، مؤيدين موقفهم النائي عن الاتباع باتباع الضعفاء له؛ فلهذا تكبروا ورفضوا الإسلام.

قال الله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ }[غافر:٥٦].

قوله: "{إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ } أي: إلا تكبر وتعظم، وهو إرادة التقدم والرياسة، وأن لا يكون أحد فوقهم؛ ولذلك عادوك ودفعوا آياتك؛ خيفة أن تتقدمهم ويكونوا تحت يدك وأمرك ونهيك "(٢).

وقال عن قوم نوح: {قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ }[الشعراء:١١١].

"والأرذولون: سقطُ القوم، موصوفون بالرذالة وهي: الخسة والحقارة، أرادوا بهم ضعفاء القوم وفقراءهم فتكبروا وتعاظموا أن يكونوا والضعفاء سواء في اتباع نوح) (٣).

وقال تعالى: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْراً مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ }[الأحقاف:١١].

حيث "احتقروهم وازدروهم، وأنكروا أن يكون الله منّ عليهم دونهم؛ لأنهم في زعمهم لفقرهم، ورثاثة حالهم، لا يمكن أن يرحمهم الله ويعطيهم من فضله الواسع"(٤).

**ب- القوة:**

وهذا سبب آخر يدعو إلى الكبر، فقد منع هذا السبب عاداً من الإيمان برسالة هود عليه السلام، قال تعالى: {فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ }[فصلت:١٥].

أي: لا أحد أشد منا؛ وذلك لما أعطاهم الله من عظم الخلق وشدة البطش. فرد الله تعالى عليهم بأن الذي أعطاهم ذلك هو أشد منهم قوة، ومع علمهم بآيات الله، كانوا يجحدونها ولا يعترفون بها، كما يجحد المودع الوديعة من طالبها مع معرفته بها . ..(٥).

---

(١ ) تفسير الكشاف، للزمخشري (٤/ ١٧٨).

(٢ ) المصدر السابق.

(٣ ) التحرير والتنوير، لابن عاشور (١٩/ ١٦٨).

(٤ ) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، للشنقيطي (٦/ ٣٦).

(٥ ) تفسير البحر المحيط، لأبي حيان (٧/ ٤٦٩).

**ت- النعمة والترف:**

النعمة إذا لم تشكر -باستعمالها فيما يرضي المنعم- ساقت صاحبها إلى مساوئ الأعمال والأقوال، ولقد تحدث القرآن الكريم عن المترفين المنعمين، وكيف منعَهم ترفهم قبولَ التغيير الذي أرسل به الرسل، حيث كانوا أول من صدّ عن الرسالة.

يقول تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ }[سبأ:٣٤].

وقال:{وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاء الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ }[المؤمنون:٣٣].

"والمترَفون: الذين أُعطوا الترف، والترف: النعيم وسعة العيش"(١).

إن " الترف يغلظ القلوب، ويفقدها الحساسية؛ ويفسد الفطرة، ويغشيها فلا ترى دلائل الهداية؛ فتستكبر على الهدى وتصر على الباطل، ولا تتفتح للنور"(٢).

فقارون ذو الأموال الكثيرة سلك طريق التكذيب والإعراض عن نصح الناصحين الذين دعوه إلى تغيير حال الجحود إلى الشكر، فأبى ترفه وزهوه بما لديه ذلك.

قال تعالى: {إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ{٧٦} وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ{٧٧} قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعاً وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ{٧٨}.... فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ المنتَصِرِينَ{٨١}[القصص:٧٦-٨١].

ف"قارون لم يستمع لنداء قومه، ولم يشعر بنعمة ربه، ولم يخضع لمنهجه القويم. وأعرض عن هذا كله في استكبار لئيم وفي بطر ذميم، ويتجلى في هذا المشهد البغي والتطاول، والإعراض عن النصح، والتعالي على العظة، والإصرار على الفساد، والاغترار بالمال، والبطر الذي يقعد بالنفس عن الشكران"(٣).

وقد تجتمع هذه الأسباب الداعية إلى الكبر: من رئاسة وقوة ونعمة بالمال في شخصية واحدة، كشخصية فرعون. فقد وقف بين قومه من القبط متباهياً مغروراً بما عنده من النعم، محتقراً لموسى عليه السلام الذي لم يكن له مثل ما لفرعون من متع الدنيا.

قال تعالى: {وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ{٥١} أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ{٥٢} فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَاء مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ{٥٣}[سورة الزخرف: ٥١-٥٣].

---

(١ ) التحرير والتنوير، لابن عاشور (٢٢/ ٧٥).

(٢ ) في ظلال القرآن، لسيد قطب (٦/ ١٢٢).

(٣ ) في ظلال القرآن، لسيد قطب (٥/ ٤٤٤).

قال الطبري: "افتخر بملكه مصر عدوُ الله، وما قد مكن له من الدنيا استدراجًا من الله له، وحسب أن الذي هو فيه من ذلك ناله بيده وحوله، وأن موسى إنما لم يصل إلى الذي يصفه، فنسبه من أجل ذلك إلى المهانة، محتجاً على جهلة قومه بأن موسى عليه السلام لو كان محقاً فيما يأتي به من الآيات والعبر، ولم يكن ذلك سحراً، لأكسب نفسه من الملك والنعمة، مثل الذي هو فيه من ذلك جهلاً بالله واغتراراً منه بإملائه إياه" (١).

فهذه الأسباب التي أردتْ أولئك المعرضين في الكبر قد جعلت منهم أناساً ينظرون إلى الرسل وأتباعهم المؤمنين نظرة دونية، حجبت عنهم وصول الهدى إلى قلوبهم، بل اعتقد بعضهم أنه بالرسالة أولى.

قال تعالى: {كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ{٢٣} فَقَالُوا أَبَشَراً مِّنَّا وَاحِداً نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذاً لَّفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ{٢٤} أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ{٢٥} سَيَعْلَمُونَ غَداً مَّنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ{٢٦}[سورة القمر: ٢٣-٢٦].

أي: "خصص بالرسالة من بين آلِ ثمود وفيهم من هو أكثر مالاً وأحسن حالاً؟! يريد أن يتعظم علينا بادعائه النبوة، وهو استفهام بمعنى الإنكار"(٢).

**٣- الحسد:**

هذا هو المعوق الثالث، وهو خلق ممقوت، لا تتحلى به إلا النفوس الشريرة، التي لا تحب الخير لغيرها. ومن طبع الحسد أن ينأى بصاحبه عن قبول حق من محسوده، خاصة في الشيء الذي كان سبب الحسد. فحساد الرسل واجهوهم بالصد والرد، مع علم كبارهم بصدقهم وصحة ما يدعون إليه. وقد واجه رسولنا عليه الصلاة والسلام منهم صنفين: مشركي قريش في مكة، واليهود في المدينة.

قال تعالى: {قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ }[الأنعام:٣٣].

"أتى الأخنس بن شريق أبا جهل فدخل عليه بيته فقال: يا أبا الحكم، ما رأيك فيما سمعت من محمد؟ فقال: ماذا سمعت؟ تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف: أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تحاذينا على الركب، وكنا كفرسي رهان قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء، فمتى ندرك مثل هذه؟! والله لا نؤمن به أبداً ولا نصدقه. قال: فقام عنه الأخنس وتركه" (٣).

وقال تعالى: {وَإِذَا جَاءتْهُمْ آيَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللهِ اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ اللهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُواْ يَمْكُرُونَ }[الأنعام:١٢٤].

قال الرازي:" اعلم أنه تعالى حكى عن مكر هؤلاء الكفار وحسدهم أنهم متى ظهرت لهم معجزة قاهرة تدل على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، قالوا: لن نؤمن حتى يحصل لنا مثل هذا المنصب من عند الله، وهذا يدل على نهاية حسدهم، وأنهم إنما بقوا مصرّين على الكفر لا لطلب الحجة والدلائل، بل لنهاية الحسد" (٤).

---

(١ ) تفسير الطبري (٢١/ ٦١٧).

(٢ ) اللباب في علوم الكتاب، لابن عادل (١٨/ ٢٦٢)، تفسير البغوي (٧/٤٣٠).

(٣ ) السيرة النبوية، لابن هشام (٢/ ١٥٧).

(٤ ) تفسير الرازي : مفاتيح الغيب (١٣/ ١٤٣).

أما اليهود فقد أُشرب في قلوبهم الحسد لرسولنا عليه الصلاة والسلام أكثر من المشركين؛ لأنهم كانوا ينتظرون الرسول أن يكون من بني إسرائيل، لا من العرب، فلما بعث محمد عليه الصلاة والسلام بُعث الحسد في قلوبهم وألسنتهم وأعمالهم.
قال تعالى: {أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكاً عَظِيماً }[النساء:٥٤].

"يعني بذلك: حسدهم النبي صلى الله عليه وسلم على ما رزقه الله من النبوة العظيمة، ومنعهم من تصديقهم إياه حسدهم له؛ لكونه من العرب وليس من بني إسرائيل" (١).

مع أنهم يعرفون صدقه، وصدق ما جاء به أكثر من غيرهم. فقد ورد ."عن صفية بنت حيي بن أخطب أنها قالت: كنت أَحبَّ ولد أبي إليه وإلى عمي أبي ياسر، لم ألقهما قط مع ولد لهما إلا أخذاني دونه، فلما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة ونزل قباء في بني عمرو بن عوف، غدا عليه أبي حيي بن أخطب، وعمي أبو ياسر بن أخطب مغلسين، فلم يرجعا حتى كانا مع غروب الشمس، فأتيا كالَّين، كسلانين، ساقطين يمشيان الهوينى، فهششت إليهما كما كنت أصنع، فوالله ما التفت إلي واحد منهما؛ مع ما بهما من الغم، وسمعت عمي أبا ياسر وهو يقول لأبي حيي بن أخطب: أهو هو؟ قال: نعم، والله، قال: أتعرفه وتثبته؟ قال: نعم، قال: فما في نفسك منه؟ قال: عداوته والله ما بقيت"(٢).

ولشدة حسد اليهود ورسوخه في كثير منهم لم يُسلم منهم في عهد رسول الله إلا القليل، خلافاً للمشركين، فقد أسلم منهم كثير؛ لأن الحسد لم يكن في جميعهم، بل في أفراد منهم فقط.

**٤- الخوف على المصالح الدنيوية:**

تعلق الإنسان بأسباب سلامة الأبدان وتنعمها، وجعل ذلك غاية الغايات يمثل عائقاً كبيراً أمام ولوج الهداية إلى القلوب والتأثير عليها. وهذا السبب الخطير ناشئ من قلة اليقين بالله، وضعف الثقة بما عنده، والنظر إلى الأمور بالعين المادية التي لا تؤمن إلا بما ترى. وهذا الشعور السلبي مازال يزداد مع الأيام عند بعض الناس، حتى باع مبادئه وقيمه، وأبى أن يقبل الحق وأن يظهر به بين الخلق.

وفي القديم نجد أن مشركي قريش قد وصلوا إلى قمة هرم الزعامة بين العرب، فجلب ذلك لهم السيادة، والأمان، وسعة الرزق، فخاف بعضهم أذية العرب لهم، وانقطاع تلك المصالح الحسية والمعنوية عنهم إن أسلموا وغيروا دين الآباء والأجداد، فأمنهم الله من هذا الخوف كما قال تعالى: {وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَماً آمِناً يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقاً مِن لَّدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ }[القصص:٥٧].

قال ابن كثير: "يقول تعالى مخبراً عن اعتذار بعض الكفار في عدم اتباع الهدى حيث قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم: { إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا } أي: نخشى إن اتبعنا ما جئت به من الهدى، وخالفنا من حولنا من أحياء العرب المشركين، أن يقصدونا بالأذى والمحاربة، ويتخطفونا أينما كنا، فقال الله تعالى مجيبًا لهم: { أولم نمكن لهم حرما آمنا }

---

(١ ) تفسير ابن كثير (٢/ ٣٣٦).

(٢ ) السيرة النبوية، لابن هشام (٣/ ٥٢).

يعني: هذا الذي اعتذروا به كذب وباطل؛ لأن الله جعلهم في بلد أمين، وحرم معظم آمن منذ وضع، فكيف يكون هذا الحرم آمنًا في حال كفرهم وشركهم، ولا يكون آمنًا لهم وقد أسلموا وتابعوا الحق؟!." (١).

وأما بالنسبة لمصلحة المال والقوت فإننا نجد أن الله يطمئن عباده المقيمين لأمره بأن طاعتهم لله واستجابتهم لشرعه لا تصد عنهم ما كان يحصل لهم من المشركين من أقوات وتجارات، فمنعهم للمشركين من دخول المسجد الحرام لا يعني ذلك قطعًا لرزقهم الذي يأتي على أيدي المشركين القادمين إلى مكة. قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ }[التوبة:٢٨].

"وإنما قيل ذلك لهم لأن المؤمنين خافوا بانقطاع المشركين عن دخول الحرم، انقطاع تجاراتهم، ودخول ضرر عليهم بانقطاع ذلك. وأمَّنهم الله من العيلة، وعوَّضهم مما كانوا يكرهون انقطاعه عنهم، ما هو خير لهم منه، وهو الجزية، فقال لهم:( قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ )، إلى:(صَاغِرُون)" (٢).

فالرزق بيد الله لا بيد خلقه، وترك الاستجابة لأمر الله؛ حفاظًا على مصلحة الرزق تكذيب لهذه الحقيقة. قال تعالى: { وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦٠) }

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره للمؤمنين به وبرسوله، من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم: هاجروا وجاهدوا في الله أيها المؤمنون أعداءه، ولا تخافوا عيلة ولا إقتاراً، فكم من دابة ذات حاجة إلى غذاء ومطعم ومشرب(لا تَحْمِلُ رِزْقَهَا)، يعني: غذاءها لا تحمله، فترفعه في يومها لغدها لعجزها عن ذلك( اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ) يومًا بيوم"(٣).

---

(١ ) تفسير ابن كثير (٦/ ٢٤٧).

(٢ ) تفسير الطبري (١٤/ ١٩٣).

(٣ ) تفسير الطبري (٢٠/ ٥٨).

## الفرع الثاني: التغيير الفقهي المحمود

**وفي هذا الفرع أربع مسائل:**

**المسألة الأولى: تعريف التغيير الفقهي المحمود**

**المسألة الثانية: مظاهر التغيير الفقهي المحمود**

**المسألة الثالثة: أسباب التغيير الفقهي المحمود**

**المسألة الرابعة: آثار التغيير الفقهي المحمود**

### المسألة الأولى: تعريف التغيير الفقهي المحمود:

**التغيير الفقهي لغة:**

الفقهي نسبة إلى الفقه، والفقه: الفهم. تقول منه: فقِه الرجل،-بالكسر-، وفلان لا يفقه ولا ينقه، وأفقهتك الشيء، ثم خص به علم الشريعة، والعالم به فقيه، وقد فقُه —بالضم- فقاهة، وفقهه الله، وتفقه، إذا تعاطى ذلك، وأُوتِيَ فلانٌ فِقْهاً في الدين أي: فَهْماً فيه.

والفقه في الاصطلاح هو: العلم بالأحكام الشرعية العملية المكتسبُ من أدلتها التفصيلية (١).

**التغيير الفقهي اصطلاحاً:**

التغيير الفقهي المحمود هو: التغيير الشرعي الذي يطرأ على بعض الأحكام الفقهية فيبدلها ذاتاً، أو صفة لمصلحة شرعية عاجلة أو آجلة.

**شرح التعريف:**

**ف"الشرعي"** قيد في التعريف لابد منه؛ لأن التصرف في تشريع الأحكام الشرعية وتبديلها حق للمشرّع وحده، وهو الله تعالى، ثم لرسله المبلغين عنه بإذنه.

**و"طرأ"** بمعنى: حدث(٢)؛ لأن التبديل عقلاً أمرٌ مسبوق بغيره.

**و"بعض الأحكام الفقهية"** يعني: أن التغيير لا يشمل جميع الأحكام الفقهية، بل بعضها، فهناك أحكام فقهية شرعت من أول الأمر على الدوام، ولم يدخل عليها تغيير شرعي.

**و" فيبدلها ذاتاً "** أي: أن التغيير قد يبدل بعض الأحكام بغيرها، مثل: تبديل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة، فهذا تبديل ذاتي.

---

(١ ) الصحاح، للجوهري (٧/ ٩٣)، تهذيب اللغة، للأزهري (٥/ ٢٦٣)، الحدود الأنيقة والتعريفات الدقيقة، لزكريا الأنصاري(ص: ٦٧)، الإبهاج (١/ ٢٨) البحر المحيط في أصول الفقه، للزركشي (١/ ١٥).

(٢ ) المعجم الوسيط(٢/ ٥٥٢).

**"أو صفة"** أي: أن الحكم الشرعي يبقى، لكن تتغير صفته كمية أو كيفية، فالكمية مثل: نسخ فرض ثبات الواحد من المؤمنين في القتال أمام عشرة من الكافرين في أول الأمر، فنسخ بعد ذلك فصار الواحد يقابل اثنين فقط. والكيفية مثل: تغيير كيفية الصلاة في القتال إلى صفة صلاة الخوف، كما سيأتي.

**"لمصلحة شرعية عاجلة أو آجلة "** يعني: أن هذا التغيير ليس عبثاً، وليس مفسدة على المكلفين، بل هو لحكمة تنطوي على مصلحة لهم عاجلة أو آجلة، كما سيأتي في الآثار.

**المسألة الثانية: مظاهر التغيير الفقهي المحمود:**

هناك مظاهر وأمثلة متعددة للتغيير الفقهي المحمود في القرآن الكريم، منها:

**١- النسخ:**

قال الله تعالى: {مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ }[البقرة١٠٦].

**النسخ لغة:**

نسخ الشيءَ نسخاً أزاله، يقال: نسخت الريح آثارَ الديار، ونسخت الشمس الظلُّ، والمعنى: أذهبت الظل وحلّت محله، ونسختُ الكتابَ نسخاً نقلته، ونسخ الشيبُ الشبابَ، ويقال: نسخ الله الآية أزال حكمها، فالنسخ: تحويل شيء إلى شيء آخر، أو رفع شيء وإثبات غيره مكانه، والمنسوخ: أمر كان يعمل به من قبل ثم ينسخ بحادث غيره، كالآية ينزل فيها أمر ثم تنسخ بآية أخرى. وكل شيء خلف شيئًا فقد انتسخه (١).

مما سبق يتبين أن النسخ يأتي لهذه المعاني: الإزالة والرفع، والنقل والتحويل

**النسخ اصطلاحاً:**

هو: رفع حكم شرعي بمثله مع تراخيه عنه (٢).

إن النسخ في الأحكام الشرعية فيه خير كثير للعباد كما قال الله تعالى: {مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ }[البقرة١٠٦]

وهذا الخير عام فقد يكون في الدنيا، أو في الآخرة، وقد يكون بالنسخ إلى أخف منه، فيكون الخير في التخفيف، وقد يكون إلى أثقل منه، فيكون الخير في الزيادة؛ تكثيراً للأجر.

والنسخ حق لله تعالى مبني على العلم والحكمة، قال تعالى: {وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُواْ إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ }[النحل١٠١].

فقد "ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة: أنه إذا بدل آية مكان آية، بأن نسخ آية أو أنساها، وأتى بخير منها أو مثلها أن الكفار يجعلون ذلك سببًا للطعن في الرسول صلى الله عليه وسلم؛ بادعاء أنه كاذب على الله، مفترٍ عليه. زعماً منهم أن

---

(١ ) معجم مقاييس اللغة، لابن فارس (٥/ ٤٢٤)، تاج العروس من جواهر القاموس، للزبيدي (٧/ ٣٥٥)، المصباح المنير، للفيومي (ص: ٣١٠)، المعجم الوسيط(٢/ ٩١٧).

(٢ ) هذا التعريف هو الذي ارتضاه الشوكاني في إرشاد الفحول (٢/ ٥٢)، وقال: إنه الأولى، وهناك تعريفات أخرى في كتب الأصول، فيها اعتراضات وعليها إيرادات تراجع في مظانها.

نسخ الآية بالآية يلزمه البداء، وهو الرأي المجدد(١) وأن ذلك مستحيل على الله، فيفهم عندهم من ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم مفترٍ على الله، زاعمين أنه لو كان من الله لأقره وأثبته، ولم يطرأ له فيه رأي متجدد حتى ينسخه" (٢).

وللنسخ في الأحكام الشرعية في القرآن الكريم أمثلة كثيرة استوفتها كتب الناسخ والمنسوخ ٣).

**ومن تلك الأمثلة:**

**١- نسخ عدة المتوفى عنها زوجها من سنة إلى أربعة أشهر وعشر ليال:**

قال تعالى: {وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِم مَّتَاعاً إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِيَ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ }[البقرة٢٤٠]،

نسخت هذه الآية بقوله تعالى {وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْراً فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ }[البقرة٢٣٤].

" قال المفسرون كانت الجاهلية تمكث زوجة المتوفى في بيته حولاً يُنفَق عليها من ميراثه، فأقرهم بهذه الآية على مكث الحول ثم نسخها: { يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرا }" (٤).

قال ابن الزبير قلت لعثمان بن عفان:{والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا} قال: قد نسختها الآية الأخرى فلم تكتبها أو تدعها؟ قال يا ابن أخي، لا أغير شيئاً منه من مكانه"(٥)

**٢- التيمم بدلاً عن الماء، عند عدم الماء، أو حصول الضرر باستعماله:**

**التيمم لغةً:** يقال: يمم الشيءَ: قصده، وتَيَمَّمَهُ تقصده، وتَيَمَّمَ الصعيد للصلاة، وأصله: التعمد والتوخي، من قولهم: تيممه وتأمه، والتيمم: مطلق القصد، ويجري مجرى التوخي، يقال له: تيمم أمراً حسناً، وتيمموا أطيب ما عندكم: تصدقوا به، وقوله تعالى: { فتيمموا صعيدا طيبا } أي: اقصدوا لصعيد الطيب وتعمدوه، ثم كثُر استعمالهم لهذه الكلمة حتى صار التَّيَمُّم مسح الوجه واليدين بالتراب (٦).

**التيمم شرعاً:** إيصال التراب إلى الوجه واليدين بشرائط مخصوصة (٧).

---

(١ ) البداء هو: ظهور الرأي بعد أن لم يكن به، وهذا اتهام بالجهل بعواقب الأمور. التعريفات، للجرجاني (ص: ٦٢)، التوقيف على مهمات التعاريف، للمناوي (ص: ١١٨)، كتاب الكليات، لأبي البقاء الكفوي (ص: ١٤٣٧).

(٢ ) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، للشنقيطي (٢/ ٤٤٥)، وللشنقيطي مسائل مهمة تتعلق بالنسخ ذكرها عند الآية السابقة من سورة النحل.

(٣ ) من كتب الناسخ والمنسوخ: الناسخ والمنسوخ لقتادة، والناسخ والمنسوخ لابن النحاس، والناسخ والمنسوخ لابن حزم.

(٤ ) المصفى من علم الناسخ والمنسوخ، لابن الجوزي (ص: ٢١).

(٥ ) رواه البخاري (٤/ ١٦٤٦).

(٦ ) التعريفات، للجرجاني (ص: ٩٨)، مختار الصحاح، للرازي (ص: ٧٤٥)، معجم مقاييس اللغة لابن فارس (١/٣٠).

(٧ ) اللباب في شرح الكتاب، للغنيمي (ص: ١٧)، أسنى المطالب في شرح روض الطالب، لزكريا الأنصاري (١/ ٧٢)، المبدع في شرح المقنع، لابن مفلح (١/ ٢٠٥).

إن من رحمة الله تعالى وتيسيره العبادةَ على هذه الأمة أن شرع لهم التيمم عند فقدان الماء، أو خشية حدوث ضرر على بعض الأعضاء أو على الجسم كله باستعماله، وقد فصل الفقهاء القول في هذين السببين المبيحينِ للتيمم في أبواب التيمم (١).

وهذا التغيير في وسيلة الطهارة نعمة عظيمة خصت به هذه الأمة، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: ( أعطيت خمسًا لم يعطهن أحد قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل، وأحلت لي المغانم، ولم تحل لأحد قبلي، وأعطيت الشفاعة، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى الناس عامة)(٢).

وقد دل على حكم التيمم واعتباره بديلاً عن الماء بشرطه قولُ الله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَقْرَبُواْ الصَّلاَةَ وَأَنتُمْ سُكَارَى حَتَّىَ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلاَ جُنُباً إِلاَّ عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىَ تَغْتَسِلُواْ وَإِن كُنتُم مَّرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاء أَحَدٌ مِّنكُم مِّن الْغَآئِطِ أَوْ لاَمَسْتُمُ النِّسَاء فَلَمْ تَجِدُواْ مَاء فَتَيَمَّمُواْ صَعِيداً طَيِّباً فَامْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَفُوّاً غَفُوراً }[ سورة النساء، الآية:٤٣].

وقوله:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فاغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُواْ بِرُؤُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَينِ وَإِن كُنتُمْ جُنُباً فَاطَّهَّرُواْ وَإِن كُنتُم مَّرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاء أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لاَمَسْتُمُ النِّسَاء فَلَمْ تَجِدُواْ مَاء فَتَيَمَّمُواْ صَعِيداً طَيِّباً فَامْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ مَا يُرِيدُ اللّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَكِن يُرِيدُ لِيُطَهَّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ }[ سورة المائدة، الآية: ٦].

عن عائشة زوج النبي صلى الله عليه و سلم قالت: خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض أسفاره، حتى إذا كنا بالبيداء أو بذات الجيش انقطع عقد لي، فأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم على التماسه، وأقام الناس معه، وليسوا على ماء، فأتى الناس إلى أبي بكر الصديق فقالو: ألا ترى ما صنعت عائشة ؟ أقامت برسول الله صلى الله عليه وسلم والناس، وليسوا على ماء وليس معهم ماء، فجاء أبو بكر ورسول الله صلى الله عليه وسلم واضع رأسه على فخذي قد نام، فقال: حبست رسول الله صلى الله عليه وسلم والناس وليسوا على ماء وليس معهم ماء، فقالت عائشة: فعاتبني أبو بكر، وقال ما شاء الله أن يقول، وجعل يطعنني بيده في خاصرتي، فلا يمنعني من التحرك إلا مكان رسول الله صلى الله عليه وسلم على فخذي، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أصبح على غير ماء فأنزل الله آية التيمم فتيموا، فقال أسيد بن الحضير: ما هي بأول بركتكم يا آل أبي بكر، قال: فبعثنا البعير الذي كنت عليه فأصبنا العقد تحته)(٣).

وقد اختلف العلماء في أي الآيتين حصلت بها مشروعية التيمم: آية النساء أم آية المائدة؟

---

(١ ) البحر الرائق شرح كنز الدقائق، لابن نجيم الحنفي (١/ ١٥٨)، الفواكه الدواني على رسالة ابن أبي زيد القيرواني، للنفراوي (١/١٥٦)، إعانة الطالبين على حل ألفاظ فتح المعين، للدمياطي (١/ ٥٧)، المبدع في شرح المقنع، لابن مفلح (١/ ٢٠٦).

(٢ ) رواه البخاري (١/ ١٢٨)، ومسلم (١/ ٣٧٠).

(٣ ) رواه البخاري (١/ ١٢٧)، ومسلم (١/ ٢٧٩).

فقال بعضهم: هي آية المائدة، وهذا ظاهر صنيع البخاري؛ حيث قال: كتاب التيمم وقول الله تعالى: { فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه }[ سورة المائدة، الآية: ٦ ]، (١)، فذكر آية المائدة.

قال ابن حجر: " ظهر لي أن البخاري أراد أن يبين أن المراد بالآية المبهمة في قول عائشة في حديث الباب: "فأنزل الله آية التيمم " أنها آية المائدة، وقد وقع التصريح بذلك في رواية حماد بن سلمة عن هشام عن أبيه عن عائشة في قصتها المذكورة قال: "فأنزل الله آية التيمم: فإن لم تجدوا ماء فتيمموا " الحديث، فكأن البخاري أشار إلى هذه الرواية المخصوصة، واحتمل أن تكون قراءة شاذة لحماد بن سلمة أو غيره أو وهماً منه، وقد ظهر أنها عنت آية المائدة، وأن آية النساء قد ترجم لها المصنف في التفسير وأورد حديث عائشة أيضًا، ولم يرد خصوص نزولها في قصتها، بل اللفظ الذي على شرطه محتمل للأمرين، والعمدة على رواية حماد بن سلمة في ذلك؛ فإنها عينت، ففيها زيادة على غيرها. والله أعلم"(٢).

وقال-بعد أن ذكر القول المخالف: " خفي على الجميع ما ظهر للبخاري من أن المراد بها آية المائدة بغير تردد؛ لرواية عمرو بن الحارث؛ إذ صرح فيها بقوله: "فنزلت: {يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة} الآية"(٣).

ورجح بعض العلماء أنها آية النساء، منهم: الواحدي والقرطبي، وابن عاشور.

قال ابن حجر: "وقال القرطبي: هي آية النساء. ووجهه بأن آية المائدة تسمى آية الوضوء، وآية النساء لا ذكر فيها للوضوء فيتجه تخصيصها بآية التيمم. وأورد الواحدي في أسباب النزول هذا الحديث عند ذكر آية النساء أيضا" (٤).

وقال ابن عاشور: "والتيمم شرع في غزوة المريسيع على الصحيح، وكانت سنة ست أو سنة خمس على الأصح. وظاهر حديث مالك عن عائشة أن الآية التي نزلت في غزوة المريسيع هي آية التيمم، فيظهر أن تكون هذه الآية التي في سورة النساء؛ لأنها لم يذكر منها إلا التيمم" (٥).

وقال أيضاَ: "إذا جرينا على ما تحصحص لدينا وتمحص: من أن سورة المائدة هي من آخر السور نزولاً، وأنها نزلت في عام حجة الوداع، جزمنا بأن هذه الآية[يعني: آية المائدة] نزلت هنا تذكيراً بنعمة عظيمة من نعم التشريع: وهي منة شرع التيمم عند مشقة التطهر بالماء، فجزمنا بأن هذا الحكم كله مشروع من قبل، وإنما ذكر هنا في عداد النعم التي امتن الله بها على المسلمين، فإن الآثار صحت بأن الوضوء والغسل شرعا مع وجوب الصلاة، وبأن التيمم شرع في غزوة المريسيع سنة خمس أو ست" (٦).

---

(١ ) صحيح البخاري (١/ ١٢٥).

(٢ ) فتح الباري بشرح صحيح البخاري، لابن حجر العسقلاني (١/ ٤٣٢)

(٣ ) المصدر السابق (١/ ٤٣٤)

(٤ ) المصدر السابق (١/ ٤٣٤)

(٥ ) التحرير والتنوير، لابن عاشور (٤/ ١٣٥).

(٦ ) المصدر السابق (٥/ ٤٨).

**٣- تغيير هيئة الصلاة في القتال بشرعية صلاة الخوف:**

للصلاة مكانة عظيمة عند الله تعالى؛ ولذلك لا تسقط عن المكلف على حال ولو في أشد المواقف كالقتال. ولكن لما كان القتال له ظروفه الخاصة، فمن تيسير الله وفضله على المسلمين أن أباح لهم تغيير هيئات الصلاة في هذه الحال الحرجة، فشرع لهم صلاة الخوف.

وصلاة الخوف يُعنى بها: الصلاة لأجل الخوف، "وليس المراد: أن للخوف صلاة كالعيد ونحوه، وإنما المراد: أن الخوف يقتضي احتمال أمور في الصلاة لا تحتمل عند انتفائه، ولا يؤثر في قدرها"(١).

والخوف الذي أبيحت له هذه الكيفية الخاصة ورد بخصوص قتال العدو، لكن عمم بعض العلماء معنى الخوف على كل ما يتعذر أو يشق معه أداء الصلاة على الكيفية المعهودة؛ لذلك قالوا: من كان طالباً للعدو وخاف أن يفوته صلى بالإيماء ولو ماشياً إلى غير القبلة، والمطلوب مثل الطالب في ذلك، ويلحق بهما كل من منعه عدو عن الركوع والسجود، أو خاف على نفسه أو أهله أو ماله من عدو أو لص أو حيوان مفترس فإنه يصلي بالإيماء إلى أي جهة توجه إليها. ويجوز ذلك في كل هرب مباح من سيل أو حريق إذا لم يجد معدلاً عنه، وكذا المدين المعسر إذا كان عاجزاً عن بينة الإعسار ولو ظفر به المستحق لحبسه ولم يصدقه (٢).

وقد دل على مشروعية هذه الصلاة القرآن قولاً والسنة فعلاً.

قال تعالى: {وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاَةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَى أَن تَضَعُواْ أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ إِنَّ اللّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُّهِيناً }[النساء١٠٢].

عن أبي عياش الزرقي رضي الله عنه قال: (كنا مع رسول الله صلى الله عليه و سلم بعسفان فاستقبلنا المشركون عليهم خالد بن الوليد وهم بيننا وبين القبلة فصلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الظهر فقالوا: قد كانوا على حال لو أصبنا غرتهم، ثم قالوا: تأتي عليهم الآن صلاة هي أحب إليهم من أبنائهم وأنفسهم، قال: فنزل جبريل عليه السلام بهذه الآيات بين الظهر والعصر: { وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة } قال: فحضرت فأمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخذوا السلاح قال: فصففنا خلفه صفين، قال: ثم ركع فركعنا جميعا، ثم رفع فرفعنا جميعًا، ثم سجد النبي صلى الله عليه وسلم بالصف الذي يليه، والآخرون قيام يحرسونهم، فلما سجدوا وقاموا جلس الآخرون فسجدوا في مكانهم، ثم تقدم هؤلاء إلى مصاف هؤلاء، وجاء هؤلاء إلى مصاف هؤلاء، قال: ثم ركع فركعوا جميعًا، ثم رفع فرفعوا جميعًا، ثم سجد النبي صلى الله عليه وسلم والصف الذي يليه، والآخرون قيام يحرسونهم، فلما جلس جلس الآخرون فسجدوا، فسلم عليهم ثم انصرف، قال: فصلاها رسول الله صلى الله عليه وسلم مرتين: مرة بعسفان، ومرة بأرض بنى سليم)(٣).

---

(١ ) النجم الوهاج في شرح المنهاج، للدميري (٢/ ٥١٠).

(٢ ) فقه السنة، لسيد سابق (١/ ٢١٢-٢١٣) بتصرف يسير.

(٣ ) رواه أحمد (٤/ ٥٩)، والطبراني، المعجم الكبير للطبراني (٥/ ١٥٦) ، وإسناده صحيح.

وقد اختلف العلماء في صفات صلاة الخوف التي صلى بها رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأقرب ما قيل في ذلك ما قاله ابن القيم- بعد أن ذكر ست صفات لها: " وقد روي عنه صلى الله عليه وسلم في صلاة الخوف صفات أخر ترجع كلها إلى هذه، وهذه أصولها، وربما اختلف بعض ألفاظها وقد ذكرها بعضهم عشر صفات، وذكر أبو محمد بن حزم نحو خمس عشرة صفة، والصحيح: ما ذكرناه أولاً، وهؤلاء كلما رأوا اختلاف الرواة في قصة جعلوا ذلك وجوهاً من فعل النبي صلى الله عليه وسلم، وإنما هو من اختلاف الرواة، والله أعلم" (١). وقد اعتمد ابن حجر ما ذكره ابن القيم(٢).

وهناك تفاصيل في هذه الصلاة تراجع في مظانها من كتب الفقه.

## المسألة الثالثة: أسباب التغيير الفقهي المحمود:

لقد كان للتغيير الفقهي أسباب فمنها:

**١- إرادة رفع الحرج والعسر عن الأمة:**

وهذا مقصد من مقاصد التشريع، يقول الله تعالى: { يُرِيدُ اللّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ }[البقرة١٨٥]، وقال بعد أن شرع التيمم: {... مَا يُرِيدُ اللّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَكِن يُرِيدُ لِيُطَهَّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ }[المائدة٦].

**٢- بيان فضل الله تعالى ورحمته بعباده المؤمنين:**

فإن الله جعل في هذه التغييرات الفقهية وأمثالها مجالاً رحباً للتزود من الأجر، واتصالاً مستمراً بالعبادة، حتى في الظروف الضيقة. وعلم تعالى ضعف عباده فرحمهم وشرع لهم ما يتلاءم مع هذه القدرة الضعيفة، كما في التيمم.

والمتتبع في هذه الحكمة يجد أمثلة كثيرة.

## المسألة الرابعة: آثار التغيير الفقهي المحمود:

لقد كان للتغيير الفقهي المحمود آثار حسنة على العباد؛ لأن هذا التغيير تغيير إلهي مبني على العلم والحكمة، والإكرام والرحمة، ومن تلك الآثار الطيبة:

**١- حصول التخفيف والتيسير على العباد رحمةً من الله بهم:**

قال تعالى في وجوب مصابرة المسلم عشرةً من الكفار الذي نسخ إلى واحد مقابل اثنين: {الآنَ خَفَّفَ اللّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُواْ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللّهِ وَاللّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ }[الأنفال٦٦].

وظهر التخفيف والتيسير كذلك في عدة المرأة المتوفى عنها زوجها التي كانت تمكث سنة كاملة، ثم خفف عنها وعن الراغبين في نكاحها حتى صارت المدة بعد ذلك أربعة أشهر وعشراً.

---

(١ ) زاد المعاد في هدي خير العباد (١/ ٥١٠).

(٢ ) فتح الباري بشرح صحيح البخاري (٢/ ٤٣١).

فعن زينب بنت أبي سلمة قالت: سمعت أم سلمة تقول: جاءت امرأة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت: يا رسول الله، إن ابنتي توفي عنها زوجها، وقد اشتكت عينها أفنكحلها ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ( لا ). مرتين أو ثلاثاً. كل ذلك يقول: ( لا ) ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ( إنما هي أربعة أشهر وعشر، وقد كانت إحداكن في الجاهلية ترمي بالبعرة على رأس الحول)(١).

قال النووي: "قوله صلى الله عليه وسلم: ( إنما هي أربعة أشهر وعشر وقد كانت إحداكن في الجاهلية ترمي بالبعرة على رأس الحول ):معناه لا تستكثرن العدة ومنعَ الاكتحال فيها؛ فإنها مدة قليلة، وقد خففت عنكن وصارت أربعة أشهر وعشراً، بعد أن كانت سنة. وفي هذا تصريح بنسخ الاعتداد سنةً المذكورِ في سورة البقرة في الآية الثانية "(٢).

**٢- ظهور شرف رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم على سائر الرسل، وظهور شرف أمته على سائر الأمم:**

لقد شرّف الله رسوله محمداً بخيرات كثيرة، ومن ذلك ما خصه به من بعض التغييرات الفقهية دون بقية الرسل، كالتيمم.

ومثل: نسخ بعض الأحكام إلى غيرها، وهذا فيه أيضاً شرف للأمة مبني على شرف رسولها، وقد ذكر بعض الأصوليين هذا الأثر في حِكم النسخ فقالوا: "من ذلك بيان شرف نبينا عليه السلام؛ فإنه نسخ بشريعته شرائعهم، وشريعته لا ناسخ لها"(٣).

**٣- حصول تكثير الثواب والأجر:**

هناك تغييرات فقهية كان من آثارها: تكثير أجر من يعمل بها من الأمة، ويتضح ذلك في نسخ الأخف بالأثقل، مثل: نسخ التخيير بين الصوم والإطعام المنصوص عليه في قوله تعالى: {وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين} [٢/١٨٤]، بأثقل منه، وهو تعيين إيجاب الصوم في قوله: {فمن شهد منكم الشهر فليصمه} [٢/١٨٥](٤).

---

(١ ) رواه البخاري (٥/ ٢٠٤٢)، ومسلم (٢/ ١١٢٤).

(٢ ) شرح النووي على مسلم (٥/ ٢٥٥).

(٣ ) البحر المحيط في أصول الفقه (٣/ ١٥٦).

(٤ ) الناسخ والمنسوخ لقتادة (ص: ٣٧)، الناسخ والمنسوخ للنحاس (ص: ٩٥)، المصفى من علم الناسخ والمنسوخ (ص: ١٨)، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، للشنقيطي (٢/ ٤٤٨)، التحرير والتنوير، لابن عاشور (١/ ٦٤٢).

## الفرع الثالث: التغيير النفسي المحمود

**وفيه ست مسائل:**

**المسألة الأولى: تعريف التغيير النفسي**

**المسألة الثانية: مظاهر التغيير النفسي**

**المسألة الثالثة: أسباب التغيير النفسي**

**المسألة الرابعة: وسائل التغيير النفسي**

**المسألة الخامسة: آثار التغيير النفسي**

**المسألة السادسة: معوقات التغيير النفسي**

### المسألة الأولى: تعريف التغيير النفسي المحمود

**التغيير النفسي لغة:**

النفسي نسبة إلى النفس، والنفس: الروح، قال تعالى: {أخرجوا أنفسكم} [الأنعام/٩٣](١).

**التغيير النفسي اصطلاحاً:**

التغيير النفسي المحمود هو: عبارة عن تحويل داخل النفس المكلفة من الشر إلى الخير.

**شرح التعريف:**

**فقول:" تحويل"** أي: تبديل حالة إلى حالة أخرى مخالفة للحال السابقة.

**وقول: "داخل النفس"** أي: أن التغيير يبدأ من تحول الباطن نية وإرادة وعزماً؛ لأن عمل الظاهر مبني على ذلك.

**وقول: "المكلفة"** يشمل نفوس الإنس، ونفوس الجن؛ لأنهم أهل التكليف، فيخرج بذلك غيرهم من الحيوانات.

**وقول:" من الشر إلى الخير"** هذا هو قيد التغيير النفسي المحمود، فهو انتقال داخلي وخارجي من شر قولي أو فعلي إلى خير قولي أو فعلي.

### المسألة الثانية: مظاهر التغيير النفسي المحمود:

إن التغيير النفسي من المعصية إلى الطاعة، ومن الخمود إلى المنافسة مهمةٌ سامية؛ إذ هي أساس استجلاب النعم، واستدفاع النقم، ووسيلة صلاح الفرد والجماعة.

وهي عملية صعبة على النفوس التي قد مردت على المساوئ، فنقْلها عنها يحتاج إلى عزم وجد وتضحيات ومجاهدة، كما يحتاج إلى تدرج ومرحلية؛ لأن " تغيير النفوس وإزاحتها عن مألوفاتها، ونقلها من ميولها أمر ليس سهلاً، كما أن تغيير

---

(١ ) القاموس المحيط، للفيروزآبادي (ص: ٧٤٥)، المصباح المنير، للفيومي (ص: ٣١٨)، مفردات ألفاظ القرآن، للراغب الأصفهاني (٢/ ٤٤٦).

الأعراف التي تجذرت في النفوس، واستقرت في العقول وتواطأ الناس عليها لا تتغير بأمر يصدر أو دعوة توجه؛ ولذلك لابد في الدعاة من مراعاة الطبائع والأفهام، والمقاصد والنيات، والأحوال الخاصة، والأعراف والعوائد العامة، والأولويات، والمصالح والمفاسد، والأوقات عندما يتصدرون لدعوة الناس وتعريفهم بالإسلام (١).

لقد تعامل الجيل الأول من صدر هذه الأمة مع أنفسهم تعاملَ المجاهد الذي يبذل غاية ما يقدر عليه حتى ينتصر على خصمه؛ ومن ثم غلبوا الكافرين المعتدين، بعد تغلبهم على نفوسهم، وسادوا الخلق بالعدل والخير.

ونحن المسلمين اليوم لن نستطيع أن نتعامل مع أعداء ديننا بعزة المسلم الصادق حتى نستطيع أن نتعامل مع نفوسنا تعامل المحاسب الحريص بتغيير مسيرها المعوج، وردها إلى الجادة القاصدة.

إن كل إنسان مطالب بالتغيير النفسي المحمود، حتى تصلح دنياه وآخرته، وهو مطلب فردي، ومطلب جماعي أيضاً.

فالإنسان أداة من أدوات التغيير، فإذا استطاع أن ينتصر على نفسه، وينقلها من المساوئ إلى المحاسن، فتغيير الله لأحواله السيئة سيكون عقب ذلك. فالبداية من العبد، والغوث من المعبود سبحانه وتعالى. والتغيير مثل الهداية؛ فمن سلك طريقها هُدي، ومن أعرض عن سبيلها ضل" فالبداية بالجهد من العبد، والجزاء بالهداية من الله عز وجل؛ ولذلك قال تعالى { والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا}(٢).

وأحوال الأمة المتردية يعوزها التغيير النفسي الجماعي، فلو بادرت إلى ثورة تغييرية نفسية، لأصلحت أحوالها، وبلغت آمالها.

فالتغيير النفسي المحمود لدى الأمة هو سبيلها إلى النهضة، والانعتاق من قيود تخلفاتها المتعددة.

لذلك يجب الاتجاه إلى النظر في العوامل الداخلية؛ لأنها الأصل، ليتم إصلاحها، ثم يُنطلق بعد ذلك إلى العوامل الخارجية التي ستسهل بعد ذلك.

وعندنا في هذه القضية أصل من كتاب الله تعالى، يعد نبراساً للعباد في هذه السبيل.

وهو قول الله تعالى: {ذَلِكَ بِأَنَّ اللّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ }[الأنفال٥٣].

فقد "ذكر تعالى في هذه الآية الكريمة أنه لا يغير نعمة أنعمها على أحد إلا بسبب ذنب ارتكبه؛ وأوضح هذا المعنى في آيات أخر، كقوله: {إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وإذا أراد الله بقوم سوءا فلا مرد له وما لهم من دونه من وال} [١١/١٣]، وقوله: {وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير} [٣٠/٤٢]، وقوله: {وما أصابك من سيئة فمن نفسك}إلى غير ذلك من الآيات" (٣). إن تغيير الله ما بالعباد من سوء ينبني على تغيير عام منهم، فإذا كان السوء قائماً ببعضهم، وكان لذلك ظهور وكثرة فقد يتخلف تغيير الله، ففي الآية السابقة " أخبر الله تعالى.. أنه لا يغير ما بقوم حتى يقع منهم تغيير، إما منهم أو من الناظر لهم، أو ممن هو منهم بسبب، كما غير الله بالمنهزمين يوم أحد بسبب تغيير الرماة بأنفسهم، إلى غير هذا من أمثلة الشريعة، فليس معنى الآية أنه ليس ينزل بأحد عقوبة إلا بأن يتقدم منه ذنب،

---

(١ ) فقه النصر والتمكين في القرآن الكريم، للصلابي (١/ ٤١٤).

(٢ ) إحياء علوم الدين، للغزالي (١/ ٢٣٢).

(٣ ) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن(٢/ ١٠٤).

بل قد تنزل المصائب بذنوب الغير، كما قال صلى الله عليه وسلم – وقد سئل: أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: ( نعم، إذا كثر الخبث)"(١)(٢).

إن التغيير البشري في الآية الماضية قد يكون تركاً لمأمور، أو فعلاً لمحظور، وقد يكون باطناً، وقد يكون ظاهراً.

قال ابن تيمية عند الآية السالفة: "وهذا التغيير نوعان: أحدهما: أن يبدو ذلك فيبقى قولاً وعملاً يترتب عليه الذم والعقاب. والثاني: أن يغيروا الإيمان الذى في قلوبهم بضده من الريب والشك والبغض، ويعزموا على ترك فعل ما أمر الله به ورسوله، فيستحقون العذاب هنا على ترك المأمور، وهناك على فعل المحظور. وكذلك ما في النفس– مما يناقض محبة الله، والتوكل عليه، والإخلاص له والشكر له– يعاقب عليه؛ لأن هذه الأمور كلها واجبة. فإذا خلا القلب عنها، واتصف بأضدادها استحق العذاب على ترك هذه الواجبات" (٣).

ويتبين من هذا القول أن التغيير البشري الذي يتخلف بسببه التغيير الإلهي قد يكون اعتقادياً، وقد يكون عملياً. وقال ابن تيمية أيضًا في موضع آخر: "ومعلوم أنهم إذا كانوا على عادتهم الموجودة يقولون ويفعلون ما هو خير، لم يكونوا قد غيروا ما بأنفسهم، فإذا انتقلوا عن ذلك فاستبدلوا بقصد الخير قصد الشر، وباعتقاد الحق اعتقاد الباطل قيل: قد غيروا ما بأنفسهم، مثل: من كان يحب الله ورسوله، والدار الآخرة فتغير قلبه، وصار لا يحب الله ورسوله والدار الآخرة، فهذا قد غير ما في نفسه" (٤) .

والله عز وجل عدل في تغيير أحوال المبدِّلين نعمَه عصياناً وأشراً، حتى يؤبوا إلى رشدهم من داخل أنفسهم، فيقيموا عوج سيرهم حتى يغير الله ما بهم؛ فإنه تعالى "يقرر عدله في معاملة العباد؛ فلا يسلبهم نعمة وهبهم إياها إلا بعد أن يغيروا نواياهم، ويبدلوا سلوكهم، ويقلبوا أوضاعهم، ويستحقوا أن يغير ما بهم مما أعطاهم إياه للابتلاء والاختبار من النعمة التي لم يقدروها ولم يشكروها، ومن الجانب الآخر يكرم هذا المخلوق الإنساني أكبر تكريم، حين يجعل قدر الله به ينفذ ويجري عن طريق حركة هذا الإنسان وعمله؛ ويجعل التغيير القدري في حياة الناس مبنياً على التغيير الواقعي في قلوبهم ونواياهم وسلوكهم وعملهم وأوضاعهم التي يختارونها لأنفسهم. ومن الجانب الثالث يلقي تبعة عظيمة – تقابل التكريم العظيم – على هذا الكائن . فهو يملك أن يستبقي نعمة الله عليه ويملك أن يزاد عليها، إذا هو عرف فشكر؛ كما يملك أن يزيل هذه النعمة عنه إذا هو أنكر وبطر، وانحرفت نواياه فانحرفت خطاه.

وهذه الحقيقة الكبيرة تمثل جانباً من جوانب التصور الإسلامي لحقيقة الإنسان؛ وعلاقة قدر الله به في هذا الوجود؛ وعلاقته هو بهذا الكون وما يجري فيه، ومن هذا الجانب يتبين تقدير هذا الكائن في ميزان الله؛ وتكريمه بهذا التقدير؛ كما تتبين فاعلية الإنسان في مصير نفسه وفي مصير الأحداث من حوله، فيبدوا عنصراً إيجابياً في صياغة هذا المصير– بإذن الله وقدره الذي يجري من خلال حركته وعمله ونيته وسلوكه، وتنتفي عنه تلك السلبية الذليلة التي تفرضها عليه المذاهب المادية، التي

---

(١ ) رواه البخاري(٣/ ١٢٢١)، ومسلم (٤/ ٢٢٠٧).

(٢ ) تفسير القرطبي (٩/ ٢٩٤)، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لابن عطية (٣/ ٣٠٧).

(٣ ) مجموع فتاوى ابن تيمية (٢/ ٤٤٠).

(٤ ) المصدر السابق (٦/ ٢٥٠).

تصوره عنصراً سلبياً إزاء الحتميات الجبارة ..." (١).

**إن لهذا التغيير النفسي المحمود مظاهر ذكرها القرآن الكريم، إذا ما قام الناس بها غيّر الله أحوالهم السيئة إلى أحوال حسنة، ومن ذلك:**

**١- تغيير الكفر بالإيمان:**

إن الكفر أعظم الأدواء المنطوية داخل نفس صاحبها، وهو مرض متحرك ينساح إلى جميع أعضاء الجسد، فيغير فكر الإنسان وعمله وسلوكه. وعملية تغييره عملية صعبة-خاصة مع امتداد العمر- تحتاج إلى توفيق من الله تعالى، وعزم صادق من العبد، وليس لجميع الكفار هذان الشرطان.

ولهذا لم تكن دعوة الأنبياء عليهم السلام ودعوة المصلحين بعدهم مأهولة بالمستجيبين الكُثر بين أقوامهم. فرسل الله عليهم السلام كذبتهم أقوامهم، كما قال تعالى: {ثم أرسلنا رسلنا تتراكل ما جاء أمة رسولها كذبوه فأتبعنا بعضهم بعضا وجعلناهم أحاديث}، ما عدا قوم يونس الذين استثناهم الله من هذا العموم، فقال تعالى: {فَلَوْلاَ كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ }[يونس٩٨].

وقال: {وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ{١٤٧} فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ{١٤٨}.

أي:" أنه لم توجد قرية آمنت بكمالها بنبيهم ممن سلف من القرى، إلا قوم يونس، وهم أهل نينوى، وما كان إيمانهم إلا خوفًا من وصول العذاب الذي أنذرهم به رسولهم، بعد ما عاينوا أسبابه، وخرج رسولهم من بين أظهرهم، فعندها جأروا إلى الله واستغاثوا به، وتضرعوا لديه. واستكانوا وأحضروا أطفالهم ودوابهم ومواشيهم، وسألوا الله تعالى أن يرفع عنهم العذاب الذي أنذرهم به نبيهم. فعندها رحمهم الله، وكشف عنهم العذاب وأخروا، كما قال تعالى: { إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين }. واختلف المفسرون: هل كشف عنهم العذاب الأخروي مع الدنيوي؟ أو إنما كشف عنهم في الدنيا فقط؟ على قولين، أحدهما: إنما كان ذلك في الحياة الدنيا، كما هو مقيد في هذه الآية. والقول الثاني: فيهما لقوله تعالى: { وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون فآمنوا فمتعناهم إلى حين } [الصافات: ١٤٧- ١٤٨]، فأطلق عليهم الإيمان، والإيمان منقذ من العذاب الأخروي، وهذا هو الظاهر، والله أعلم" (٢).

إن تغيير الكفر إلى الإيمان مقبول محمود إذا كان في وقت المهلة من عمر الإنسان، وذلك قبل مشاهدة العذاب، وحصول الغرغرة، أما ما كان بعد ذلك فلا يفيد؛ لأن الغيب قد صار شهادة، ولم يعد غيباً، والابتلاء إنما حصل بالإيمان بالغيب.

فتوبة قوم يونس-عليه السلام- كانت في وقت يمكن فيه قبول التوبة، وهو قبل نزول العذاب؛ فلذلك قبل الله توبتهم بخلاف فرعون الذي تاب عند معاينة العذاب. و"المستخلص من الروايات الواردة في قوم يونس أنهم بادروا إلى الإيمان بعد أن فارقهم يونس، توقعاً لنزول العذاب، وقبل أن ينزل بهم العذاب، وذلك دليل على أن معاملة الله إياهم ليست مخالفة لما عامل به غيرهم من أهل القرى، وأن ليست لقوم يونس خصوصية، وبذلك لا يكون استثناؤهم استثناءً منقطعا"(٣).

---

(١ ) في ظلال القرآن، لسيد قطب (٣/ ٤٢٣).

(٢ ) تفسير ابن كثير (٤/ ٢٩٧)، و أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٢/ ١٦٢).

(٣ ) التحرير والتنوير، لابن عاشور (١١/ ١٨٠)، و تفسير الرازي: مفاتيح الغيب (١٧/ ١٣٣).

وقد دل على هذه المسألة –عدم قبول التوبة عند نزول الموت ورؤية العذاب–كتابُ الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، قال تعالى: {فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنت الله التي قد خلت في عباده وخسر هنالك الكافرون} [٤٠/٨٤، ٨٥]، وقال: {حتى إذا أدركه الغرق قال آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين آلآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين} [١٠/٩٠، ٩١]، وقال: {وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن} الآية [٤/١٨]،

وقال: {أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُم بِهِ آلآنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ }[يونس٥١]، وقال: {هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن تَأْتِيهُمُ الْمَلآئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لاَ يَنفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْراً قُلِ انتَظِرُواْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ{١٥٨}.

قال الطبري: " لا ينفع كافراً لم يكن آمن بالله قبل طلوعها، كذلك إيمانه بالله إن آمن وصدق بالله ورسله؛ لأنها حالة لا تمتنع نفس من الإقرار بالله، لعظيم الهول الوارد عليهم من أمر الله، فحكم إيمانهم، كحكم إيمانهم عند قيام الساعة، وتلك حال لا يمتنع الخلق من الإقرار بوحدانية الله؛ لمعاينتهم من أهوال ذلك اليوم ما ترتفع معه حاجتهم إلى الفكر والاستدلال والبحث والاعتبار، ولا ينفع من كان بالله وبرسله مصدقًا، ولفرائض الله مضيعًا، غير مكتسب بجوارحه لله طاعة، إذا هي طلعت من مغربها أعماله إن عمل، وكسبه إن اكتسب؛ لتفريطه الذي سلف قبل طلوعها في ذلك" (١). وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ( لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا رآها الناس آمن من عليها فذاك حين { لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل })(٢). وقال النبي صلى الله عليه و سلم: ( إن الله تبارك وتعالى يقبل توبة العبد ما لم يغرغر )(٣).

وعند مجيئ الموت والانتقال إلى الدار الآخرة يطلب الكفرة الرجوع إلى الدنيا لتغيير الكفر إلى إيمان بالله، ولكن ذلك لا يحصل، ولو حصل لن يقبل؛ لأنه فات الأوان، وقضي زمن الابتلاء، مع أنهم لو عادوا لرجعوا إلى كفرهم ولن يغيروا، قال تعالى:{ حَتَّى إِذَا جَاء أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ{٩٩} لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ{١٠٠}،[المؤمنون ٩٩–١٠٠]، وقال: { {بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ }[الأنعام: ٢٨].

وجاء عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: ( يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة، وعلى وجه آزر قترة وغبرة، فيقول له إبراهيم: ألم أقل لك: لا تعصني؟! فيقول أبوه: فاليوم لا أعصيك، فيقول إبراهيم: يا رب، إنك وعدتني أن لا تخزيني يوم يبعثون، فأي خزي أخزى من أبي الأبعد ؟ فيقول الله تعالى: إني حرمت الجنة على الكافرين، ثم يقال: يا إبراهيم، ما تحت

---

(١ ) تفسير الطبري (١٢/ ٢٦٦-٢٦٧).

(٢ ) رواه البخاري (٤/ ١٦٩٧)، ومسلم (١/ ١٣٧).

(٣ ) رواه أحمد (٢/ ١٣٢)، وابن حبان(٢/ ٣٩٤)، وابن ماجه (٢/ ١٤٢٠)، والحاكم (٤/ ٢٨٦)، وصححه ابن حجر، وقال الهيثمي: "رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح، غير عبد الرحمن وهو ثقة، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، لابن حجر العسقلاني (١١/ ٣٥٣)، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (١١/ ٧٥).

رجليك ؟ فينظر فإذا هو بذيخ متلطخ، فيؤخذ بقوائمه فيلقى في النار )(١).

**٢- تغيير الجحود بالشكر:**

نعم الله على عباده كثيرة لا تعدّ ولا تحصى، قال تعالى: {وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ }[إبراهيم٣٤]. وقال: {وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ اللهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ }[النحل١٨].

فالإنسان كثير الظلم لنفسه حينما يجحد نعم الله عليه، ومن ذلك صرفه العبادة لغيره، ومع ذلك فالله غفور له ظلمه، رحيم به لقبوله توبته إذا تاب إليه؛ ولهذا ختمت آية سورة إبراهيم بوصف الإنسان، وآية سورة النحل بوصف الرحمن، كأنه يقول: إذا حصلت النعم الكثيرة فأنت آخذها وأنا معطيها، فحصل لك عند أخذها وصفان: كونك ظلومًا وكونك كفاراً يعني: لعدم وفائك بشكرها، ولي عند إعطائها وصفان وهما: إني غفور رحيم، أقابل ظلمك بغفراني، وكفرك برحمتي، فلا أقابل تقصيرك إلا بالتوقير، ولا أجازي جفاك إلا بالوفاء. أو إنما خص سورة إبراهيم بوصف المنعَم عليه، وسورة النحل بوصف المنعِم؛ لأنه في سورة إبراهيم في مساق وصف الإنسان، وسورة النحل في مساق صفات الله وإثبات ألوهيته (٢).

إن جحود الإنسان لنعم الله عليه بالقول أو بالفعل اعوجاج نفسي، يشير إلى أن هذه النفس لا تستحق هذه النعم، وأنها بهذا الكفران تمضي إلى صرفها عنها، ولا علاج لهذا الداء إلا شكر الله تعالى ظاهراً وباطناً.

و"حقيقة الشكر في العبودية هو ظهور أثر نعمة الله على لسان عبده: ثناء واعترافًا، وعلى قلبه: شهوداً ومحبة، وعلى جوارحه: انقياداً وطاعة. والشكر مبني على خمس قواعد: خضوع الشاكر للمشكور، وحبه له، واعترافه بنعمته، وثناؤه عليه بها، وأن لا يستعملها فيما يكره. فهذه الخمس هي أساس الشكر وبناؤه عليها، فمتى عدم منها واحدةً اختل من قواعد الشكر قاعدة" (٣).

قال تعالى: { إِنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ }[الرعد١١ ]. و"معنى الآية: إنَّ الله لا يُغَيِّر ما أنعم على قوم ، حتى يُغَيِّرُوا ما بهم بالكفران وترك الشكر، فإذا فعلوا ذلك غيَّر اللَّهُ ما بهم ، فسلبهم النعمة" (٤).

كما حصل من قارون حينما رآه قومه الصالحون جحوداً كفوراً لنعمة الله عليه بالمال، فدعوه لتغيير ما في نفسه من كفر النعمة بالشكر، لكنه أبى موعظتهم وتمادى في جحوده، حتى بغته العقاب، وأحال نعمته نقمة عليه.

وكما حصل في الحديث عن الثلاثة: الأقرع والأبرص والأعمى الذين ابتلوا بالنعم، فجحد الأقرع والأبرص فذهبت النعمة عنهما، وشكر الأعمى فبقيت النعمة عليه.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن ثلاثة في بني إسرائيل: أبرص وأقرع وأعمى، بدا لله أن يبتليهم[٥]، فبعث إليهم ملكاً فأتى الأبرص فقال: أي شيء أحب إليك ؟ قال: لون حسن، وجلد حسن قد قذرني الناس. قال: فمسحه فذهب عنه،

---

(١ ) رواه البخاري (٣/ ١٢٢٣).

(٢ ) الإتقان في علوم القرآن، للسيوطي (٢/ ٢٧٤).

(٣ ) مدارج السالكين، لابن القيم (٢/ ٢٤٤).

(٤ ) اللباب في علوم الكتاب، لابن عادل (٩/ ٥٤٤).

(٥ ) أي: سبق في علم الله، فأراد إظهاره، وليس المراد أنه ظهر له بعد أن كان خافيًا؛ لأن ذلك محال في حق الله تعالى،... وقال الخطابي: معناه: قضى الله أن يبتليهم؛ لأن القضاء سابق. عمدة القاري شرح صحيح البخاري، للعيني (٢٣/ ٤٦٥).

فأعطي لونًا حسنًا وجلداً حسنًا، فقال: أي المال أحب إليك؟ قال: الإبل – أو قال: البقر –هو شك في ذلك أن الأبرص والأقرع– قال أحدهما: الإبل وقال الأخر: البقر – فأعطي ناقة عُشَراء، فقال: يبارك لك فيها. وأتى الأقرع فقال: أي شيء أحب إليك ؟ قال: شعر حسن، ويذهب عني هذا، قد قذرني الناس، قال: فمسحه فذهب، وأعطي شعراً حسنًا، قال: فأي المال أحب إليك؟ قال: البقر، قال: فأعطاه بقرة حاملاً، وقال: يبارك لك فيها. وأتى الأعمى فقال: أي شيء أحب إليك؟ قال: يرد الله إلي بصري فأبصر به الناس، قال: فمسحه فرد الله إليه بصره، قال: فأي المال أحب إليك؟ قال: الغنم، فأعطاه شاة والداً، فأنتج هذان وولد هذا، فكان لهذا وادٍ من إبل؛ ولهذا وادٍ من بقر، ولهذا وادٍ من غنم، ثم إنه أتى الأبرص في صورته وهيئته فقال: رجل مسكين تقطعت بي الحبال في سفري، فلا بلاغ اليوم إلا بالله ثم بك، أسألك بالذي أعطاك اللون الحسن، والجلد الحسن والمال بعيراً أتبلّغ عليه في سفري. فقال له: إن الحقوق كثيرة! فقال له: كأني أعرفك، ألم تكن أبرص يقذرك الناس، فقيرا فأعطاك الله ؟! فقال: لقد ورثت لكابر عن كابر، فقال: إن كنت كاذبًا فصيرك الله إلى ما كنت. وأتى الأقرع في صورته وهيئته فقال له مثل ما قال لهذا! فرد عليه مثل ما رد عليه هذا، فقال: إن كنت كاذبًا صيّرك الله إلى ما كنت. وأتى الأعمى في صورته فقال: رجل مسكين، وابن سبيل، وتقطّعت بي الحبال في سفري، فلا بلاغ اليوم إلا بالله ثم بك، أسألك بالذي ردّ عليك بصرك شاة أتبلّغ بها في سفري، فقال: قد كنت أعمى فرد الله بصري، وفقيراً فقد أغناني، فخذ ما شئت فوالله لا أجهدك اليوم بشيء أخذته لله. فقال: أمسك مالك؛ فإنما ابتليتم، فقد رضي الله عنك، وسخط على صاحبيك)(١).

**٣– تغيير المعصية بالطاعة:**

ليس الإنسان معصوماً من المعصية وتسويل النفس الأمارة بالسوء؛ لأن (كل بني آدم خطّاء وخير الخطائين التوابون)(٢). لكن الذي يفسد النفسَ ويحجب عنها تغيير أحوالها السيئة هو إصرارها على العصيان، وعظم ما تجنيه من الخطايا.

وطاعة الله تعالى –ومن أعظمها: الإنابة والتوبة عند كل زلة– يجعل النفس محلاً قابلاً لنزول التبديل الإلهي الحسن للنقم التي حلّت بها بسبب عصيانها، قال تعالى: {إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وإذا أراد الله بقوم سوءا فلا مرد له وما لهم من دونه من وال}، فبين تعالى في هذه الآية الكريمة، أنه لا يغير ما بقوم من النعمة والعافية، حتى يغيروا ما بأنفسهم من طاعة الله جل وعلا إلى معصيته. والمعنى: أنه لا يسلب قوماً نعمة أنعمها عليهم، حتى يغيروا ما كانوا عليه من الطاعة والعمل الصالح(٣).

وإذا وجد خلاف ذلك من تبديل الطاعة إلى معصية –ولو من بعض المسلمين– نزلت العقوبة العامة، كما قال تعالى: { أولما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا قل هو من عند أنفسكم إن الله على كل شيء قدير (١٦٥) }

"يعني تعالى ذكره بذلك: أوَ حين أصابتكم، أيها المؤمنون، مصيبة، وهي القتلى الذين قتلوا منهم يوم أحد، والجرحى الذين جرحوا منهم بأحد، وكان المشركون قتلوا منهم يومئذ سبعين نفراً. {قد أصبتم مثليها}، يقول: قد أصبتم، أنتم أيها المؤمنون،

---

(١ ) رواه البخاري (٣/ ١٢٧٦)، ومسلم (٤/ ٢٢٧٥).

(٢ ) رواه أحمد (٣/ ١٩٨)، والترمذي (٤/ ٦٥٩)، وابن ماجه (٢/ ١٤٢٠)، والحاكم (٤/ ٢٧٢)، وصححه ابن القطان، وقوى سنده ابن حجر، بيان الوهم والإيهام في كتاب الأحكام (٥/ ٤١٤)، بلوغ المرام من أدلة الأحكام (١/ ٢٨٧).

(٣ ) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن(٢/ ٢٣٦).

من المشركين مثلي هذه المصيبة التي أصابوا هم منكم، وهي المصيبة التي أصابها المسلمون من المشركين ببدر، وذلك أنهم قتلوا منهم سبعين وأسروا سبعين {قلتم أنى هذا}، يعني: قلتم لما أصابتكم مصيبتكم بأحد {أنى هذا}، من أي وجه هذا؟ ومن أين أصابنا هذا الذي أصابنا، ونحن مسلمون وهم مشركون، وفينا نبي الله صلى الله عليه وسلم يأتيه الوحي من السماء، وعدونا أهل كفر بالله وشرك؟ {قل}يا محمد، للمؤمنين بك من أصحابك: {هو من عند أنفسكم}، يقول: قل لهم: أصابكم هذا الذي أصابكم من عند أنفسكم، بخلافكم أمري وترككم طاعتي، لا من عند غيركم، ولا من قبل أحد سواكم ..."(١).

**المسألة الثالثة: أسباب التغيير النفسي المحمود:**

إن حصول التغيير النفسي المحمود عند العبد حركة فعلية قامت على أسباب دعت إليه حتى خرج من النية الراغبة في التغيير إلى أفعال في الواقع العملي، وقد كان من تلك الأسباب الآتي:

**١- الخوف من عقاب الله تعالى:**

الخوف من الله ومن عقابه خُلُق حميد يعين العبدَ على الإقبال على الصلاح، والإدبار عن الفساد، ويساعده على الانتصار على النفس الأمّارة بالسوء؛ لأن "من خاف شيئاً سعى في الأمن منه بكل ما عساه ينفع فيه" (٢).

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ( من خاف أدلج(٣) ، ومن أدلج بلغ المنزل، ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله الجنة) (٤).

ومعناه: "من خاف ألزمه الخوف السلوك إلى الآخرة، والمبادرة بالعمل الصالح؛ خوف القواطع والعوائق. وقيل: هو حث على قيام الليل. جعل قيامه من علامات الخوف؛ لأن الخائف يدلج، أي: منعه الخوف من نوم كل الليل. والأظهر: أنه ضُرِب مثلاً لكل من خاف الردى، أو فوْتَ ما يتمنى أن يصل إلى السير بالسُرى، ولا يركن إلى الراحة والهوى حتى يبلغ المنى"(٥).

وقد كان الخوف من عقاب الله حاملاً لقوم يونس على الإيمان حينما تحققوا ذلك، قال تعالى: {فَلَوْلاَ كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ }[يونس٩٨].

**٢- الرغبة في الحصول على السعادة والطمأنينة:**

إن النفس المنغمسة في العصيان تعيش في تعاسة وشقاء، ولو تظاهر أهلها بالفرح والمرح؛ فإن بداخلهم ناراً تلظى، وغموماً تتوالد مع مرور الزمن. وهذه الآثار نتيجة حتمية من نتائج مخالفة شرع الله. قال تعالى: {وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى{١٢٤}، "أي: خالف أمري، وما أنزلته على رسولي، أعرض عنه وتناساه، وأخذ من غيره هداه { فإن له معيشة ضنكا } أي: في الدنيا، فلا طمأنينة له، ولا انشراح لصدره، بل صدره ضيق حرِج لضلاله،

---

(١ ) تفسير الطبري (٧/ ٣٧١).

(٢ ) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، للبقاعي (٨/ ٢٦٧).

(٣ ) يُقال: أدْلَجَ –بالتَّخفيف– إذا سَار من أوّل اللَّيْل. النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير (٢/ ٣٠٧).

(٤ )رواه الترمذي (٤/ ٦٣٣)، والبيهقي، شعب الإيمان (١/ ٥١٢)، والحاكم (٤/ ٣٤٣)، وحسنه الترمذي، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير (٢٣/ ١٦٧).

(٥ ) فيض القدير شرح الجامع الصغير، للمناوي (٦/ ١٢٣).

وإن تنعّم ظاهره، ولبس ما شاء وأكل ما شاء، وسكن حيث شاء؛ فإن قلبه مالم يخلص إلى اليقين والهدى، فهو في قلق وحيرة وشك، فلا يزال في ريبة يتردد. فهذا من ضنك المعيشة "(١).

والإنسان العاقل قد يؤوب إليه صوابه فيغير ما في نفسه من هذا الإعراض إلى الإقبال على طاعة الله، ومفارقة المداومة على الخطايا؛ لكي يجد في هذا التغيير طوق النجاة، وهناء الحياة. فهذه الرغبة في الخروج من التعاسة التي يقاسيها تنطلق به إلى التغيير النفسي المنشود الذي يجد في ظلاله السعادةَ والطمأنينة، قال الله تعالى فيه: {مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ }[النحل٩٧].

فالله تعالى "ضمن لأهل الإيمان والعمل الصالح الجزاء في الدنيا بالحياة الطيبة، والحسنى يوم القيامة، فلهم أطيب الحياتين وهم أحياء في الدارين، ونظير هذا قوله تعالى: {للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة ولدار الآخرة خير ولنعم دار المتقين}، ونظيرها قوله تعالى: {وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعا حسنا إلى أجل مسمى ويؤت كل ذي فضل فضله}، ففاز المتقون المحسنون بنعيم الدنيا والآخرة، وحصلوا على الحياة الطيبة في الدارين؛ فإن طيب النفس، وسرور القلب، وفرحه ولذته وابتهاجه، وطمأنينته وانشراحه، ونوره وسعته، وعافيته من ترك الشهوات المحرمة، والشبهات الباطلة هو النعيم على الحقيقة، ولا نسبة لنعيم البدن إليه، فقد قال بعض من ذاق هذه اللذة: "لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف"، وقال آخر: "إنه يمر بالقلب أوقات أقول فيها: إن كان أهل الجنة في مثل هذا إنهم لفي عيش طيب"، وقال الآخر: "إن في الدنيا جنة هي في الدنيا كالجنة في الآخرة، من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة"(٢).

**٣- الخوف على النعم من الزوال:**

النعمة فضلٌ من الله تعالى، يختبر بها عباده، فينظر الشاكرَ من الجاحد، فمن شكر فعلى نعمته أبقى، ومن جحد فعلى نعمته قضى. قال تعالى: {وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ }[إبراهيم٧].

وأصحاب الجنة-كما في سورة القلم- حينما رأوا جنتهم البهيجة صارت كالليل المظلم؛ بسبب عزمهم السيء على منع حق المساكين رجعوا إلى أنفسهم فغيروا ما فيها من هذا العمل الخاطئ، إلى توبة وعزم على أداء حق الله من النعمة؛ حفاظاً عليها، وتقرباً إلى من أسداها، وخوفًا من ذهاب ثمرها مرة أخرى.

قال تعالى: {قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ{٢٨} قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ{٢٩} فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ{٣٠} قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ{٣١} عَسَى رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْراً مِّنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ{٣٢}[ القلم ٢٨-٣٢].

---

(١ ) تفسير ابن كثير (٥/ ٣٢٢-٣٢٣).

(٢ ) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي، لابن القيم (ص: ٨٤).

**المسألة الرابعة: وسائل التغيير النفسي المحمود:**

التغيير النفسي المحمود عمل عظيم؛ لأنه انتصار على الأهواء والعادات غير الحميدة، ولأنه ينقل الإنسان إلى حياة أخرى مليئة بالسعادة والهناء، وهذا التغيير العظيم لابد أن تكون له وسائله المعينة عليه، فمن ذلك ما يأتي:

**١- الاعتبار بالعقوبة الدنيوية:**

كم من منح جاءت بها المحن، وكم من مسرات خرجت من أرحام المضرات، والنفس حينما كان صاحبها محدود المدارك، قليل العلم والخبرة، جاهلاً بمستقبل الأيام والأحوال وبواطن الأمور غابت عنه ألطاف مكارهه، ومصالح مصائبه. والإنسان العاقل يعتبر بالملمة، بل ويتفاءل بالجرح؛ فقد يكون سبب الشفاء، ولا ييأس فيخلقَ من المصيبة مصيبة جديدة.

والله تعالى يعلمنا هذا الدرس فيقول: { فَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللّهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً }[النساء١٩].

لقد خرج أصحاب الجنة-كما في سورة القلم-عازمين على قطع المعروف، ومنع حق المساكين من النعمة، فعوقبوا بقصدهم الفاسد بهلاك جنتهم وذهاب نعمتهم. لكن هذه المصيبة الفظيعة عليهم لم تحملهم على القنوط والجحود، بل كانت سبباً لتغيير نفسي محمود نقلهم إلى التوبة والفأل الحسن، ورجاء العوض الأفضل. قال تعالى:{ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ{١٧} وَلَا يَسْتَثْنُونَ{١٨} فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ{١٩} فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ{٢٠} فَتَنَادَوا مُصْبِحِينَ{٢١} أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ{٢٢} فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ{٢٣} أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ{٢٤} وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ{٢٥} فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ{٢٦} بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ{٢٧} قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ{٢٨} قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ{٢٩} فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ{٣٠} قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ{٣١} عَسَى رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْراً مِّنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ{٣٢}[ القلم ١٧-٣٢].

قال الحسن: قول أهل الجنة (إنا إلى ربنا راغبون) لا أدري إيمانًا كان ذلك منهم، أو على حدّ ما يكون من المشركين إذا أصابتهم الشدة، فيوقف في كونهم مؤمنين. وسئل قتادة عن أصحاب الجنة: أهم من أهل الجنة أم من أهل النار ؟ فقال: "لقد كلفتني تعبًا". والمعظم يقولون: إنهم تابوا وأخلصوا، وأن الله أبدلهم في الدنيا خيرًا من جنتهم، ببركة التوبة والاعتراف بالخطيئة، ولأن من دعا الله صادقًا، ورغب إليه ورجاه، أعطاه سؤله، والله أعلم (١).

**٢- الانقياد لدعوة البراهين الصادقة:**

هناك من النفوس المعرضة من لا تقبل الحق إلا بأدلة حسية تلامس عقولها وقلوبها، فتحدث لديها تغييراً نفسياً يزيح عنها حجاب الإعراض الكثيف فترى الحق فتقبله، وتستطيع أن تثبت عليه، وتضحي في سبيله بأغلى ما تمتلك.

ومن هؤلاء: سحرة فرعون الذي جلبتهم الرغبة في المال والقرب من فرعون لأن يقارعوا معجزة موسى عليه السلام بالسحر العظيم.

لكنهم-وهم أرباب الصنعة- رأوا أن ما جاء به موسى عليه السلام ليس بسحر، وشاهدوا براهين ذلك، فعندئذ أعلنوا

---

(١ ) تفسير القرطبي (١٨/ ٢٤٥)، زاد المسير في علم التفسير، لابن الجوزي (٨/ ٣٣٩)، تفسير البيضاوي (٥/ ٣٧٣)، تفسير السعدي (ص: ٨٨٠)، التحرير والتنوير، لابن عاشور (٢٩/ ٨٣).

للجمهور الحقيقة التي صدّعت هامة الطاغية فرعون وأتباعه الضُلّال فقالوا:{ آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى{٧٠}[طه ٧٠]. فتوعدهم فرعون بالنكال والوبال، غير أن الإيمان حينما خالطت بشاشته قلوبهم انزاح معه الشعور بالهيبة، والخوف من تهديد مَن عرفوا حقيقة تلبيسه وكذبه عليهم وعلى الناس سنين طويلة.

قال تعالى:{ قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَاباً وَأَبْقَى{٧١} قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا{٧٢} إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى{٧٣} إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِماً فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى{٧٤} وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِناً قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُوْلَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى{٧٥} جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاء مَن تَزَكَّى{٧٦}[ طه ٧١-٧٦].

إن السحرة هم أعلم الناس بحقيقة فنّهم، ومدى ما يمكن أن يبلغ إليه. وهم أعرف الناس بالذي جاء به موسى إن كان من السحر والبشر، أم من القدرة التي وراء مقدور البشر والسحر. والعالم في فنه هو أكثر الناس استعداداً للتسليم بالحقيقة فيه حين تتكشف له؛ لأنه أقرب إدراكاً لهذه الحقيقة، ممن لا يعرفون في هذا الفن إلا القشور، ومن هنا تحول السحرة من التحدي السافر إلى التسليم المطلق، الذي يجدون برهانه في أنفسهم عن يقين، ولكن الطواغيت المتجبرين لا يدركون كيف يتسرب النور إلى قلوب البشر؛ ولا كيف تمازجها بشاشة الإيمان؛ ولا كيف تلمسها حرارة اليقين. فهم لطول ما استعبدوا الناس يحسبون أنهم يملكون تصريف الأرواح وتقليب القلوب – وهي بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء– ومن ثم فوجئ فرعون بهذا الإيمان المفاجئ الذي لم يدرك دبيبه في القلوب، ولم يتابع خطاه في النفوس، ولم يفطن إلى مداخله في شعاب الضمائر، ثم هزته المفاجأة الخطيرة التي تزلزل العرش من تحته: مفاجأة استسلام السحرة – وهم من كهنة المعابد – لرب العالمين . رب موسى وهارون . بعد أن كانوا مجموعين لإبطال دعوة موسى وهارون إلى رب العالمين! والعرش والسلطان هما كل شيء في حياة الطواغيت، وكل جريمة يمكن أن يرتكبوها بلا تحرج في سبيل المحافظة على الطاغوت(١) .

**٣– المجاهدة الصادقة للنفس:**

إن النفس الإنسانية جَموح تعشق الانفلات والارتخاء، وصاحبها إذا لم يزمّها ويأخذ بقيادها قادته إلى المهالك.

والتغيير النفسي المحمود أمر شاق على النفس، ولا يمكن لها أن تستجيب لهذا التغيير إلا بعد جهاد ومغالبة وتهذيب ومعالجة.

فلابد من عزم صادق ينطلق إلى العمل في تنقية النفس وانتشالها من عثارها؛ لتصبح نفساً حية تنفع صاحبها وغيره.

والمجاهدة عملية تغييرية توصل صاحبها إلى بَرّ الأمان. يقول الله تعالى: {وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ }[العنكبوت٦٩].

والجهاد في الآية عام يشمل: قتال الكفار، وجهاد النفوس في هواها، والاجتهاد في العمل بالطاعة والكف عن المعصية،

(١ ) في ظلال القرآن، لسيد قطب (٣/ ٢٧١-٢٧٢).

والتوبة من الذنوب رغبة في ثواب الله وحذراً من عقابه(١)، فمن قام بهذه المجاهدة وفقه الله إلى سبل الخير، ورزقه المعونة والنصر (٢).

**المسألة الخامسة: آثار التغيير النفسي المحمود:**

عندما يستطيع الإنسان الانتصار على نفسه فيغير مسارها المنحرف فإن ذلك يعطيه آثاراً طيبة وثماراً حسنة تنسيه ألمَ مجاهدة النفس، ومشقة تحويل سلوكها غير السوي، وتنقله إلى أحوال معمورة بالحياة الطيبة، ومن ذلك:

**١- النجاة من العذاب العاجل والآجل:**

إن التغيير النفسي المحمود يهب النفس روحاً متقدة تبعث فيها العزمَ على الندم على مساويها قبل التغيير، وتعطيها قوة تستطيع بها المسارعةَ إلى مراضي الله تعالى، وهذا كله يحميها من نزول عذاب الله بها في دنياها وأخراها بمشيئة الله تعالى؛ ولذلك نجى الله قوم يونس عليه السلام حينما غيروا ما في نفوسهم من التكذيب والكفر إلى التصديق والإيمان. قال تعالى: {فَلَوْلاَ كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الخِزْيِ فِي الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ }[يونس٩٨].

**٢- حصول الرزق الحسن:**

كثير من الخلق يظن أن الرزق يأتي بالجد وحده، ناسين أو متناسين أن الرزق من عند الله تعالى، وأن ما عند الله لا ينال إلا بطاعته، وكثرة ما عند المعرضين عن الله من متاع الدنيا ليس إنعاماً عليهم، بل هو ابتلاء ونقمة يحاسبون عليها عند الله جل وعلا.

والإنسان كلما هجر المعاصي وأقبل على الطاعات فهذا تغيير نفسي يجلب له الرزق الحلال المبارك ولو كان قليلاً. وهذا أمر تحدثت عنه عدة آيات من القرآن الكريم، منها: قوله تعالى: {ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم}، وقوله عن نوح وقومه: {فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا، يرسل السماء عليكم مدرارا، ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا} [١١/٧١]، وقوله عن هود وقومه: {ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدرارا ويزدكم قوة إلى قوتكم} الآية [٥٢/١١]، وقوله عن نبينا عليه الصلاة والسلام وقومه: {وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعا حسنا إلى أجل مسمى} [٣/١١]، وقوله تعالى: {من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة} الآية [٩٧/١٦]. وقوله: {ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض} الآية [٩٦/٧]، وقوله: {ومن يتق الله يجعل له مخرجا، ويرزقه من حيث لا يحتسب} [٣،٢/٦٥].

**٣- النصر على الأعداء:**

إن النصر على أعداء دين الإسلام أمنية كل مسلم صادق؛ لأنه المظلة التي تتحقق تحتها الآمال الخيّرة لازمها ومتعديها. لكن الآمال لا تنال إلا بأعمال، وأول هذه الأعمال: التغيير النفسي المحمود من إيمان بالله، وثقة به، وتوكل عليه، وهذه سنة من سنن الله في التغيير، قال الله تعالى: { إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ }[الرعد١١]. فإذا تحقق ذلك فما

---

(١ ) النكت والعيون، للماوردي (٤/ ٢٩٤)، تفسير أبي السعود (٧/ ٤٨) تفسير البحر المحيط، لأبي حيان (٧/ ١٥٥).
(٢ ) تفسير أبي السعود (٧/ ٤٨).

بعده أيسر منه.

وهذه الخطوات العملية التغييرية ستسرع بالنصر المنشود للأمة، وإذا لم يحصل عندها تغيير نفسي حقيقي فهي بعيدة كل البعد عن النصر والتمكين.

قال الله تعالى: {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ }[النور٥٥].

فالإيمان والعمل الصالح عملان عظيمان في تغيير النفس يسوقانها إلى التمكين والنصر.

ومعنى {ليستخلفنهم}: "والله ليورثنهم أرض الكفار من العرب والعجم، فجعلهم ملوكها وساستها وسكانها { كما استخلف الذين من قبلهم }أي: كما استخلف داوُد وسليمان وغيرهما من الأنبياء، وكما استخلف بني إسرائيل وأهلك الجبابرة بمصر والشام وأورثهم أرضهم وديارهم {وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم }أي: اختاره، قال ابن عباس: يوسع لهم في البلاد حتى يملكوها، ويظهر دينهم على سائر الأديان{ وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً يعبدونني} آمنين { لا يشركون بي شيئاً} فأنجز الله وعده، وأظهر دينه، ونصر أولياءه، وأبدلهم بعد الخوف أمناً: وبسطاً في الأرض" (١).

لقد خرج طالوت بجنود كثيرين لقتال جالوت وجنوده، وكان هذا القتال مهماً جداً لبني إسرائيل فاحتاج إلى جنود مخلصين صادقين؛ فلهذا مرّ هذا الجمع العسكري بتمحيصات وابتلاءات؛ لإخراج الزبد عنه، وإبقاء ما ينفع الناس، وهذا تغيير نفسي محمود، انتشل الفئة الصالحة للجهاد من بين العدد الكثير غيرِ المصفّى الذي قد يكون عائقاً في طريق النصر؛ لعدم تغير نفسه تغيراً محموداً. فتمّ الابتلاء ثم الاصطفاء للثلة القليلة الصالحة التي جعل الله النصر على يدها. قال الله تعالى: {فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلاَّ مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُواْ مِنْهُ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ قَالُواْ لاَ طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاَقُو اللّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللّهِ وَاللّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ{٢٤٩} وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُواْ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ{٢٥٠} فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلاَ دَفْعُ اللّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ{٢٥١}[ البقرة ٢٤٩-٢٥١].

"والعبرة الكلية التي تبرز من القصة كلها هي أن هذه الانتفاضة – انتفاضة العقيدة – على الرغم من كل ما اعتورها أمام التجربة الواقعة من نقص وضعف، ومن تخلي القوم عنها فوجاً بعد فوج في مراحل الطريق – على الرغم من هذا كله فإن ثبات حفنة قليلة من المؤمنين عليها قد حقق لبني إسرائيل نتائج ضخمة جداً، فقد كان فيها النصر والعز والتمكين بعد الهزيمة المنكرة، والمهانة الفاضحة، والتشريد الطويل والذل تحت أقدام المتسلطين. ولقد جاءت لهم بملك داود، ثم ملك سليمان – وهذه أعلى قمة وصلت إليها دولة بني إسرائيل في الأرض– وهي عهدهم الذهبي الذي يتحدثون عنه؛ والذي لم يبلغوه من قبل في عهد النبوة الكبرى، وكان هذا النصر كله ثمرة مباشرة لانتفاضة العقيدة من تحت الركام؛ وثبات حفنة قليلة

(١ ) تفسير الخازن (٥/ ٨٥-٨٦).

عليها أمام جحافل جالوت" (١) .

**المسألة السادسة: معوقات التغيير النفسي المحمود:**

العمل على تغيير ما في النفس من المساوئ إلى المحاسن يحتاج إلى قوة داخلية تطلق صاحبها من الجواذب المحظورة التي تتشبث به خشية الترك والمفارقة.

لهذا يجد العازم على هذا التغيير الحميد معوقات داخلية وخارجية تحاول عرقلة مسيرة التغيير المنشود، وهو إما أن يستجيب لها رغبة أو رهبة، وإما أن يكسر هذا الحاجز السميك بقوة عزمه، متحملاً في ذلك كل العواقب.

**المعوقات الداخلية:**

من المعوقات الداخلية ما يأتي:

**١- اتباع الهوى تعلقاً بالدنيا ونسياناً للآخرة:**

اتباع الهوى هو: "إيثار ميل النفس إلى الشهوة والانقياد لها فيما تدعو إليه من معاصي الله- عز وجل-" (٢). وهذا الاتباع الذميم بطبيعته يحيد بأهله عن المراجعة التصحيحية المرادة.

فـ "اتباع الهوى، وطول الأمل مادة كل فساد؛ فإن اتباع الهوى يُعمي عن الحق معرفة وقصداً، وطول الأمل يُنسي الآخرة، ويصدّ عن الاستعداد لها"(٣).

وحينما يكون الإنسان أسيراً لهواه الصادِّ عن الهدى يغدو في إذلال كان باستطاعته-لو حذر- أن لا يكون أسيره، وبمقدوره كذلك-لو عزم- التحررُ منه.

فـ"لكل عبد بداية ونهاية، فمن كانت بدايته اتباعَ الهوى كانت نهايته الذلَّ والصغار والحرمان والبلاء المتبوع، بحسب ما اتبع من هواه، بل يصير له ذلك في نهايته عذابًا يعذب به في قلبه كما قال القائل:

مآربُ كانت في الشباب لأهلها ... عِذابًا فصارت في المشيب عَذابا)(٤).

لقد حدثنا القرآن الكريم أن اتباع الهوى لدى مكذبي الرسل كان معوقاً في دعوة أولئك المكذبين إلى تغيير ما في أنفسهم من الكفر وسيئ العمل، فيقول تعالى: {فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ }[القصص٥٠]

"أي: أن ما ركبوه من الكفر لم يحملهم عليه حجة، وإنما آثروا فيه الهوى"(٥).

إن النفس التي سلمت زمامها لهواها أضحت مقادة إلى أودية الهلكة، ولو كان صاحبها ذا علم ومعرفة؛ فإن العلم النافع ليس معلومات تخزن في الأذهان والصدور فقط، بل هو قائد-بعد الفهم- إلى إصلاح العمل وتطهير الظاهر والباطن، ومحرِّر لحامله من التبعية للجهل، ومطالبِ النفس المقيتة. وقد ذكر لنا القرآن الكريم عظة وعبرة بذلك العالم الضال؛ بسبب اتباعه

---

(١ ) في ظلال القرآن، لسيد قطب (١/ ٢٤٣).

(٢ ) نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، لمجموعة من الباحثين (٩/ ٣٧٥٢).

(٣ ) كتاب الفوائد، لابن القيم(ص: ٩٩).

(٤ ) روضة المحبين روضة المحبين ونزهة المشتاقين، لابن القيم (ص: ٤٨٣).

(٥ ) زاد المسير في علم التفسير، لابن الجوزي (٦/ ٢٢٨).

هواه فقال تعالى: {وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِيَ آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ } {وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ }[الأعراف١٧٥-١٧٦].

يعني:" أنه أعرض عن التمسك بما آتاه الله من الآيات، واتبع الهوى فخسر دنياه وآخرته، ووقع في هاوية الردى والهلاك.

وهذه الآية من أشدّ الآيات على العلماء الذين يريدون بعلمهم الدنيا وشهواتِ النفس، ويتبعون الهوى؛ وذلك لأن الله عز وجل خصّ هذا الرجل بآياته وحكمته وعلمه اسمه العظيم، وجعل دعاءه مستجاباً، ثم إنه اتبع هواه وركن إلى الدنيا، ورضي بها عوضاً عن الآخرة فنزع منه ما كان أُعطيَه، وانسلخ من الدين، فخسر الدنيا والآخرة، ومن الذي يسلم من الميل إلى الدنيا واتباع الهوى إلا من عصمه الله بالورع، وثبته بالعلم وبصره بعيوب نفسه"(١).

**٢- النظر إلى النعمة بعين الاستحقاق ونسيان فضل المنعم:**

كل نعمة يتنعم فيها المخلوق فهي من عند خالقه وحده، يقول الله تعالى: {وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ }[النحل٥٣]. وهذا يوجب على المخلوق شكرَ خالقه؛ حتى تدوم عليه نعمته ويبارك له فيها. قال تعالى: {وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ }[إبراهيم٧].

ولكن بعض الناس يتسلط عليه أشرُه وبطره -عندما ينظر إلى النعمة بعين الأهلية لها؛ لذكائه وحرصه وقوته- فيحمله ذلك على تناسي المنعم، والسعي لتسخيرها في مساخط الكريم المعطي.

وإذا وصل الإنسان إلى هذه الحال السيئة فقد أوجد مانعاً من نفسه يصد عنه الاستجابة للحق، وتغيير ما في نفسه من الانغماس في السيئات، وسماع نصائح الناصحين المخلصين.

ومن الأمثلة على هذا ما ذكره الله من قصة قارون.

قال تعالى: {إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ{٧٦} وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ{٧٧} قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعاً وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ{٧٨}[ القصص ٧٦-٧٨].

فقوله: {إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي} أي: "على علم مني بأني سأُعطاه؛ لِما فيّ من فضل واستحقاق، أو على علم من الله تعالى باستحقاقي لذلك المال"(٢).

---

(١ ) تفسير الخازن (٢/ ٣١٥).

(٢ ) البحر المديد، لابن عجيبة (٦/ ٤١٠).

**المعوقات الخارجية:**

من المعوقات الخارجية ما يأتي:

**١- البيئة الفاسدة:**

الحياة الإنسانية السعيدة لا تقوم إلا على العيش الجماعي؛ فـ "الاجتماع الإنساني ضروري، ويعبر الحكماء عن هذا بقولهم: الإنسان مدني بالطبع، أي: لا بد له من الاجتماع" (١). وهذا الاجتماع يحرك لدى الإنسان قابلية التأثر والتأثير، سلباً أو إيجاباً، مما يجعل الإنسان يحكي بيئته التي يعيش فيها في أفكاره وأعماله وسلوكه، شعر بذلك أم لم يشعر.

وهذا يحتم على الشخص اختيارَ بيئة صالحة يلازمها، وجليسٍ صالح يرافقه؛ لكي يصلح نفسه، ويقوّم عوجها فيها. فإذا كانت البيئة تعج بالسوء والسيئين ولم يمكن إصلاحها فيجب تغيير المكان، هجرة إلى الخير، وفراراً من الشر.

فنبي الله إبراهيم-عليه السلام- فارق قومه وما يعبدون من دون الله إلى الأرض المقدسة، كما قال تعالى: {وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاء رَبِّي شَقِيّاً }[مريم٤٨].

"والمراد أني أفارقكم في المكان، وأفارقكم في طريقتكم أيضًا، وأبعد عنكم وأتشاغل بعبادة ربي الذي ينفع ويضر والذي خلقني وأنعم علي؛ فإنكم بعبادة الأصنام سالكون طريقة الهلاك، فواجب علي مجانبتكم"(٢)

وقد نهى الله تعالى عن مجالسة الطاعنين في دين الله، وأمر بمفارقتهم فقال:

{وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلاَ تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ }[الأنعام٦٨].

وقال: {وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللّهِ يُكَفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلاَ تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذاً مِّثْلُهُمْ إِنَّ اللّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعاً }[النساء١٤٠].

وجاء عن رسول الله صلى الله عليه و سلم أنه قال: (كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعًا وتسعين نفسًا، فسأل عن أعلم أهل الأرض، فدُلَّ على راهب، فأتاه فقال: إنه قتل تسعًا وتسعين نفسًا فهل له من توبة؟ فقال: لا، فقتله فكمل به مائة، ثم سأل عن أعلم أهل الأرض، فدُلَّ على رجل عالم، فقال: إنه قتل مائة نفس، فهل له من توبة ؟ فقال: نعم، ومن يحول بينه وبين التوبة؟ انطلق إلى أرض كذا وكذا؛ فإن بها أناساً يعبدون الله، فاعبد الله معهم، ولا ترجع إلى أرضك؛ فإنها أرض سوء ...)(٣).

فقد أمره العالم الناصح بمفارقة أرض المعصية إلى أرض جديدة صالحة؛ لأن البيئة السابقة تمثل معوقاً حقيقياً أمام التوبة، وهذه النصيحة تساعد على التغيير النفسي المحمود الذي قد عزم عليه وسار في طريقه رحمه الله.

إن مجالسة أهل السوء تعيق الإنسان عن التحول الصحيح، وتعده وتمنيه، وتغريه بالبقاء على ما هو عليه، حتى في لحظات وداعه للدنيا، وهذا يوجب على الشخص- الذي رأى أنوار الهدى تلوح أمامه ولم يتبعها؛ خشية مفارقة بيئته السيئة التي

---

(١ ) مقدمة ابن خلدون (١/ ٦٣).

(٢ ) تفسير الرازي : مفاتيح الغيب (٢١/ ١٩٦).

(٣ ) رواه مسلم (٤/ ٢١١٨).

تعوّد عليها–الندمَ والحسرة يوم القيامة.

فأبو طالب لما حضرته الوفاة جاءه رسول الله صلى الله عليه وسلم فوجد عنده أبا جهل بن هشام وعبد الله بن أمية بن المغيرة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي طالب: ( يا عم، قل: لا إله إلا الله، كلمة أشهد لك بها عند الله ). فقال أبو جهل وعبد الله بن أمية: يا أبا طالب، أترغب عن ملة عبد المطلب؟! فلم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرضها عليه، ويعودان بتلك المقالة حتى قال أبو طالب آخر ما كلمهم: هو على ملة عبد المطلب، وأبى أن يقول لا إله إلا الله(١).

وقال تعالى:{وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً{٢٧} يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَاناً خَلِيلاً{٢٨} لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنسَانِ خَذُولاً{٢٩}[ الفرقان ٢٧-٢٩].

إنه مشهد مؤثر في ذلك اليوم العظيم:{ويوم يعض الظالم على يديه} "كناية عن شدة الندم والحسرة؛ لأن النادم ندمًا شديداً، يعض على يديه" (٢).

إن الحديث عن هذا المعوق يكتسب أهمية كبيرة حينما يتحدث الإنسان عن هذا الزمن الذي نعيشه، حيث غدا الفساد يستشري في أوساط المجتمع فينمي الرذائل، ويحارب الفضائل، فأصبحت البيئات النقية قليلة الوجود، وهذا يجلب العناء والهم على الإنسان الحريص على صلاح نفسه وأهله وأولاده.

**٢- وعيد ذوي الأمر والسلطة وبطشهم:**

يتخذ الجبابرة هذه الوسيلة في صد الناس عن الحق؛ ليبقوا لهم عبيداً حقيقة أو حكماً، ولكي لا يذهب سلطانهم وعلوهم القائم على أركان الظلم ومصادرة الحقوق، بهذا التحول إلى الرشاد والصواب.

وهذه الوسيلة القهرية قد تعمل في أناس ضعفَ إيمانُهم فاستجابوا للوعيد، وهذا لا يعدّ لهم عذراً عند الله تعالى وهم يستطيعون التحول والهجرة إلى مكان آخر.

قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلآئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالُوَاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءتْ مَصِيراً } {إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاء وَالْوِلْدَانِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلاَ يَهْتَدُونَ سَبِيلاً } {فَأُوْلَئِكَ عَسَى اللّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللّهُ عَفُوّاً غَفُوراً }النساء٩٧-٩٩].

لكن من قوي إيمانهم فالوعيد والبطش لا يزيدهم إلا إصراراً وتمسكاً بالحق الذي حولوا أنفسهم إليه، كما حصل للمؤمنين في حادثة الأخدود.

قال الله تعالى: {وَالسَّمَاء ذَاتِ الْبُرُوجِ{١} وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ{٢} وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ{٣} قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ{٤} النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ{٥} إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ{٦} وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ{٧} وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ{٨} الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ{٩} إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ{١٠} إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ{١١} إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ{١٢}[البروج ١-١٢].

---

(١ ) رواه البخاري (١/ ٤٥٧)، ومسلم (١/ ٥٤).

(٢ ) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن(٦/ ٤٥).

"وهذا خبر عن قوم من الكفار عمدوا إلى من عندهم من المؤمنين بالله، عز وجل، فقهروهم وأرادوهم أن يرجعوا عن دينهم، فأبوا عليهم، فحفروا لهم في الأرض أخدوداً وأججوا فيه ناراً، وأعدوا لها وقوداً يسعرونها به، ثم أرادوهم فلم يقبلوا منهم، فقذفوهم فيها" (١).

بل إن هذا الثبات تجاه شدة التهديد وقسوة العقاب يشجع أناساً آخرين على المضي في هذا الطريق علناً، أو الانضمام إليه مع استشعار ما سيواجههم فيه. كما في قصة الغلام والملك والساحر التي قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها: "كان ملك فيمن كان قبلكم، وكان له ساحر فلما كبر قال للملك: إني قد كبرت فابعث إلي غلاما أعلمه السحر. فبعث إليه غلامًا يعلمه، فكان في طريقه -إذا سلك- راهب، فقعد إليه وسمع كلامه فأعجبه، فكان إذا أتى الساحر مر بالراهب، وقعد إليه، فإذا أتى الساحر ضربه، فشكا ذلك إلى الراهب فقال: إذا خشيت الساحر فقل: حبسني أهلي، وإذا خشيت أهلك فقل: حبسني الساحر، فبينما هو كذلك إذ أتى على دابة عظيمة قد حبست الناس فقال: اليوم أعلم آلساحر أفضل أم الراهب أفضل، فأخذ حجراً فقال: اللهم إن كان أمر الراهب أحب إليك من أمر الساحر فاقتل هذه الدابة؛ حتى يمضي الناس فرماها فقتلها ومضى الناس. فأتى الراهب فأخبره فقال له الراهب: أي بني، أنت اليوم أفضل مني، قد بلغ من أمرك ما أرى، وإنك ستبتلى، فإن ابتليت فلا تدل علي، وكان الغلام يبرئ الأكمه والأبرص، ويداوي الناس من سائر الأدواء، فسمع جليس للملك كان قد عمي فأتاه بهدايا كثيرة فقال: ما ههنا لك أجمع إن أنت شفيتني، فقال: إني لا أشفي أحداً، إنما يشفي الله، فإن أنت آمنت بالله دعوت الله فشفاك، فآمن بالله فشفاه الله، فأتى الملك فجلس إليه كما كان يجلس فقال له الملك: من رد عليك بصرك ؟ قال: ربي، قال: ولك رب غيري ؟! قال: ربي وربك الله، فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دل على الغلام، فجئ بالغلام فقال له الملك: أي بني، قد بلغ من سحرك ما تبرئ الأكمه والأبرص وتفعل وتفعل، فقال: إني لا أشفي أحداً، إنما يشفي الله، فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دل على الراهب، فجئ بالراهب فقيل له: ارجع عن دينك، فأبى فدعا بالمنشار فوضع المئشار على مفرق رأسه فشقه حتى وقع شقاه، ثم جيء بجليس الملك فقيل له: ارجع عن دينك فأبى، فوضع المنشار في مفرق رأسه فشقه به حتى وقع شقاه، ثم جيء بالغلام فقيل له: ارجع عن دينك فأبى، فدفعه إلى نفر من أصحابه فقال: اذهبوا به إلى جبل كذا وكذا فاصعدوا به الجبل، فإذا بلغتم ذروته فإن رجع عن دينه وإلا فاطرحوه، فذهبوا به فصعِدوا به الجبل فقال: اللهم اكفنيهم بما شئت، فرجف بهم الجبل، فسقطوا ، وجاء يمشي إلى الملك فقال له الملك: ما فعل أصحابك ؟ قال: كفانيهم الله فدفعه إلى نفر من أصحابه فقال: اذهبوا به فاحملوه في قرقور فتوسطوا به البحر فإن رجع عن دينه وإلا فاقذفوه، فذهبوا به فقال: اللهم اكفنيهم بما شئت، فانكفأت بهم السفينة فغرقوا، وجاء يمشي إلى الملك فقال له الملك: ما فعل أصحابك ؟ قال: كفانيهم الله، فقال للملك: إنك لست بقاتلي حتى تفعل ما آمرك به قال: وما هو ؟ قال: تجمع الناس في صعيد واحد وتصلبني على جذع، ثم خذ سهماً من كنانتي ثم ضع السهم في كبد القوس، ثم قل: باسم الله رب الغلام، ثم ارمني؛ فإنك إذا فعلت ذلك قتلتني. فجمع الناس في صعيد واحد وصلبه على جذع ثم أخذ سهما من كنانته، ثم وضع السهم في كبد القوس، ثم قال: باسم الله رب الغلام، ثم رماه فوقع السهم في صدغه، فوضع يده في صدغه في موضع السهم فمات، فقال الناس: آمنا برب الغلام، آمنا برب الغلام، آمنا برب الغلام. فأتي الملك فقيل له: أرأيت ما

(١ ) تفسير ابن كثير (٨/ ٣٦٦).

كنت تحذر ؟ قد والله نزل بك حذرك قد آمن الناس. فأمر بالأخدود في أفواه السكك فخدت، وأضرم النيران وقال: من لم يرجع عن دينه فأحموه فيها، أو قيل له: اقتحم، ففعلوا ،حتى جاءت امرأة ومعها صبي لها فتقاعست أن تقع فيها فقال لها الغلام: يا أمه، اصبري؛ فإنك على الحق) (١).

(١ ) رواه مسلم (٤/ ٢٢٩٩).

## المبحث الثاني: التغيير المذموم

**وقد اشتمل هذا المبحث على مطلبين:**

**المطلب الأول: تعريف التغيير المذموم**

**المطلب الثاني: أنواع التغيير المذموم**

### المطلب الأول: تعريف التغيير المذموم

سبق الحديث عن التغيير المحمود وأنه: التغيير الشرعي الذي قام على مصلحة مباحة راجحة تؤول إلى خير عاجل أو آجل.

وتبين فيه أن التغيير المحمود قد يكون من الله تعالى لعباده رحمة بهم، وقد يكون من الخلق أنفسهم: من الرسل، أو من اتباعهم الصالحين.

أما التغيير المذموم فإنه تغيير صِرْفٌ من المكلفين أنفسهم، جاء منهم لما حادوا عن منهج الله تعالى فيما قاموا به من التغيير.

وعلى هذا فيمكن تعريف التغيير المذموم بأنه:

**التغيير المحظور شرعاً، الذي أحدثه المكلف؛ لمصلحة عاجلة، أو رجاء مصلحة آجلة.**

**شرح التعريف:**

**ف" التغيير"** انتقال من حالة إلى حالة أخرى، وهذا يعم التغييرين: المحمود والمذموم.

**و"المحظور"** الممنوع(١)، وهذا قيد يخص التغيير المذموم.

**و "شرعاً"** قيد يوضح الجهة الحاظرة لهذا التغيير، وإن كان العقل الصحيح قد يتفق مع الشرع في حظر مجالات هذا التغيير، ولكن خص الشرع؛ لأنه هو الذي يجري به الثواب والعقاب. **و"أحدثه"** لفظ يحمل معنى تبديل شيء بشيء جديد لم يكن عليه من قبل.

**و" المكلف"** لفظ يعم من يجري عليه الثواب أو العقاب من الإنس والجن، ممن وصل حد التكليف.

**و" لمصلحة عاجلة"** فيه ذكر الغاية من هذا التغيير، وهي كون المغيّر المذموم دعاه إلى فعله إرادة نيل شيء من مكاسب الدنيا، من مال أو جاه، أو لذة، أو نحو ذلك. و" **أو رجاء مصلحة آجلة**" وهذه غاية أخرى تخص من أراد بتغييره المذموم التقربَ إلى الله تعالى فأخطأ الطريق لذلك، كبعض أهل البدع.

---

(١ ) مفردات ألفاظ القرآن، للراغب الأصفهاني (١/ ٢٤٤).

## المطلب الثاني: أنواع التغيير المذموم

**وفيه خمسة فروع هي:**

**الفرع الأول: التغيير العقدي المذموم**

**الفرع الثاني: التغيير الفقهي المذموم**

**الفرع الثالث: التغيير النفسي المذموم**

**الفرع الرابع: التغيير الفطري المذموم**

## الفرع الأول: التغيير العقدي المذموم

**وفيه خمس مسائل:**

**المسألة الأولى: تعريف التغيير العقدي المذموم**

**المسألة الثانية: مظاهر التغيير العقدي المذموم**

**المسألة الثالثة: أسباب التغيير العقدي المذموم**

**المسألة الرابعة: وسائل التغيير العقدي المذموم**

**المسألة الخامسة: آثار التغيير العقدي المذموم**

### المسألة الأولى: تعريف التغيير العقدي المذموم (١)

**التغيير العقدي المذموم هو:** عبارة عن عملية تبديل للمعتقدات الصالحة شرعاً بمعتقدات فاسدة شرعاً.

**شرح التعريف:**

يوضح هذا التعريف أن هناك حركة تحويل غير محمودة يقوم بها مكلف أو مكلفون، تستهدف جانباً معيناً هو جانب المعتقدات الصالحة في شرع الله لتحويلها إلى معتقدات يحكم الشرع الشريف بفسادها وضلالها، مآلها ضلالُ صاحبها أو إضلال غيره.

### المسألة الثانية: مظاهر التغيير العقدي المذموم:

معرفة الحق واعتقاده والعمل به نعمة عظيمة من الله تعالى على الإنسان تستوجب عليه شكرها بالمداومة عليها، ونفع الخلق بها.

---

(١ ) تقدم في التغيير العقدي المحمود التعريف اللغوي لكل من ألفاظ: العقدي، الفقهي، النفسي، السياسي؛ فلذلك رأيت أنه لا داعي لتكرارها في هذا المبحث.

لكن بعض الناس قد تغلبه شبهة أو شهوة فتميله عن اعتقاده الحق إلى غيره، فيصبح من الذين بدلوا نعمة الله كفراً.

والناظر في خطاب القرآن الكريم يجد أن هناك بعض المظاهر للتغيير المذموم، منها:

**١- الإشراك بالله تعالى:**

عاش الناس بعد آدم عليه السلام زمانًا على عبادة الله وحده، حتى جاءهم الشيطان، فألبس عليهم دينهم، فانحرفوا عن توحيد الله إلى الإشراك به(١).

قال الله تعالى: {كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللهُ الَّذِينَ آمَنُواْ لِمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ }[البقرة٢١٣].

"والمعنى: أن الناس ما كانوا جميعاً إلا أمة واحدة موحدة لله سبحانه مؤمنة به فصار البعض كافراً وبقي البعض الآخر مؤمناً، فخالف بعضهم بعضا"(٢).

وقد كان أول رسول أرسله الله -بعد هذا التغيير المذموم- نوحاً عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام. ويدل على هذا قوله: {إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده}، ثم تواترت الرسل بعد ذلك حتى جاء إبراهيم عليه السلام وترك ابنه إسماعيل عليه السلام في مكة فنشر توحيد الله بين العرب، فكان معظم العرب يدينون بدين إبراهيم عليه السلام منذ أن نشأت ذريته في مكة وانتشرت في جزيرة العرب، فكانوا يعبدون الله ويوحدونه ويلتزمون بشعائر دينه الحنيف، حتى طال عليهم الأمد ونسوا حظًا مما ذكروا به، إلا إنهم بقي فيهم التوحيد وعدة شعائر من هذا الدين، حتى جاء عمرو بن لُحَيٍّ رئيس خزاعة، وكان قد نشأ على أمر عظيم من المعروف والصدقة والحرص على أمور الدين، فأحبه الناس ودانوا له، ظنًا منهم أنه من أكابر العلماء، وأفاضل الأولياء . ثم إنه سافر إلى الشام، فرأى العماليق وهم يعبدون الأصنام فاستحسن ذلك منهم، وظنه حقًا؛ لأن الشام محل الرسل والكتب، فاستوهبهم واحداً منها، وهو هبل، وجاء به إلى مكة فجعله في جوف الكعبة، ودعا أهل مكة إلى الشرك بالله فأجابوه، ثم لم يلبث أهل الحجاز أن تبعوا أهل مكة؛ لأنهم ولاة البيت وأهل الحرم.

ولم يكتف عمرو بن لحي بهذا، بل زاد عليه حينما راقته عبادة الأصنام، فقد كان في زمن جرهم رجلٌ يقال له: أساف فجَرَ في الكعبة بامرأة يقال لها: نائلة فمسخهما الله جل وعلا حجرين، فأخذهما عمرو بن لحي فنصبهما حول الكعبة، فصار من يطوف يتمسح بهما، يبدأ بأساف ويختم بنائلة. ويذكر أن عمرو بن لحي كان له رئيٌّ من الجن، فأخبره أن أصنام قوم نوح: ودًا وسواعًا ويغوث ويعوق ونسرًا ، مدفونة بجدة، فأتاها فاستثارها، ثم أوردها إلى تهامة، فلما جاء الحج دفعها إلى القبائل، فذهبت بها إلى أوطانها (٣).

وهذا الذي قام به عمرو أحد الأقوال في تفسير قوله تعالى: {وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلاَّ أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُواْ وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ }[يونس١٩].

---

(١ ) تفسير ابن كثير (١/ ٥٦٩)، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن(٣/ ٨٠).

(٢ ) فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، للشوكاني (٢/ ٦٢٧).

(٣ ) فتح الباري بشرح صحيح البخاري، لابن حجر العسقلاني (٦/ ٥٤٩)، الرحيق المختوم (ص: ٢٠).

فقد قيل: إن الناس كانوا على دين الإسلام من عهد إبراهيم الخليل عليه السلام إلى أن غيّره عمرو بن لحي. فعلى هذا القول ، يكون المراد:{ من الناس} في قوله: { وما كان الناس إلا أمة واحدة } العرب خاصة(١).

إن هذا التغيير العقدي المذموم الذي أحدثه عمرو بن لحي كان سنة سيئة، على عمرو وزرُها ووزر من عمل بها من بعده، وقد أطلع الله رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم على مصير هذا المغير وعذابه في النار، فقال عليه الصلاة والسلام: ( رأيت عمرو بن عامر بن لحي الخزاعي يجر قصبه في النار، وكان أول من سيّب السوائب )(٢). وفي رواية: (و هو أول من سيب السوائب، وغيّر عهد إبراهيم عليه السلام)(٣).

**٢- تحريف ما أنزل الله تعالى:**

تحريف الشيء: إمالته، كتحريف القلم، وتحريف الكلام: أن تجعله على حرف من الاحتمال يمكن حمله على الوجهين، وتحريف الكلام عن مواضعه: تغييره والعدول به عن جهته(٤).

جاء في وصف اليهود أنهم يحرفون كتب الله ووحيه إلى رسله، ويشمل ذلك: تحريف العقائد: ككتمان صفة رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم، وتحريف الأحكام مثل: إلغاء حكم الرجم. والمراد بتحريفهم: إخراجهم الوحي والشريعة عما جاءت به: إما بتبديل- وهو قليل-، وإما بكتمان بعض، وتناسيه، وإما بالتأويل البعيد وهو أكثر أنواع التحريف(٥).

قال تعالى: {أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلاَمَ اللّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ }[البقرة٧٥]. أي: يميلونه عن وجهه ومعناه الذي هو معناه، إلى غيره. فأخبر الله جل ثناؤه أنهم فعلوا ما فعلوا من ذلك على علم منهم بتأويل ما حرفوا، وأنه بخلاف ما حرفوه إليه. فقال:(يحرفونه من بعد ما عقلوه)، يعني: من بعد ما عقلوا تأويله،(وهم يعلمون)، أي: يعلمون أنهم في تحريفهم ما حرفوا من ذلك مبطلون كاذبون. وذلك إخبار من الله جل ثناؤه عن إقدامهم على البهت، ومناصبتهم العداوة له ولرسوله موسى صلى الله عليه وسلم، وأن بقاياهم – من مناصبتهم العداوة لله ولرسوله محمد صلى الله عليه وسلم بغيًا وحسداً – على مثل الذي كان عليه أوائلهم من ذلك في عصر موسى عليه الصلاة والسلام"(٦).

وقال تعالى: {مِّنَ الَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيّاً بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْناً فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِن لَّعَنَهُمُ اللّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً }[النساء٤٦].

"{يحرفون الكلم } والكلم: جمع كلمة، يعني: يغيرون صفة محمد صلى الله عليه وسلم { عن مواضعه } يعني: في كتابهم أي: من بعدما وافق القرآن يعني: عن صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم في كتابهم، ويقال: استحلوا ما حرم الله تعالى

---

(١ ) تفسير الخازن (٣/ ١٨١)، تفسير الرازي : مفاتيح الغيب (١٧/ ٥٠)، اللباب في علوم الكتاب، لابن عادل (١٠/ ٢٨٧).

(٢ ) رواه البخاري (٣/ ١٢٩٧)، ومسلم (٤/ ٢١٩١).

(٣ ) رواه الحاكم (٤/ ٦٤٧)، وقال: حديث صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي .

(٤ ) مفردات ألفاظ القرآن، للراغب الأصفهاني (١/ ٢٢٥)، مختار الصحاح، للرازي (ص: ١٦٧).

(٥ ) التحرير والتنوير، لابن عاشور (١/ ٥٥٠).

(٦ ) تفسير الطبري (٢/ ٢٤٩).

عليهم، ولم يعملوا به، فكان ذلك تغيير الكلم عن مواضعه"(١).

وقال تعالى:{وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقاً يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ }[آل عمران٧٨].

قال ابن كثير: "يخبر تعالى عن اليهود، عليهم لعائن الله، أن منهم فريقًا يحرفون الكلم عن مواضعه ويبدلون كلام الله، ويزيلونه عن المراد به؛ ليوهموا الجهلة أنه في كتاب الله كذلك، وينسبونه إلى الله، وهو كذب على الله، وهم يعلمون من أنفسهم أنهم قد كذبوا وافتروا في ذلك كله؛ ولهذا قال: { ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون }"(٢).

وقد اختلف العلماء في الشيء المحرف هل كان يكتب في التوراة أو لا؟ إلى قولين:

فذهب جمع إلى أنه ليس في التوراة سوى كلام الله تعالى، وأن تحريف اليهود لم يكن إلا تغييراً وقت القراءة، أو تأويلاً باطلاً للنصوص. وأما أنهم يكتبون ما يرومون في التوراة على تعدد نسخها فلا. واستدلوا بأن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول لليهود إلزاماً لهم: (ائتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين)(٣)، وهم يمتنعون عن ذلك، فلو كانت مغيرة إلى ما يوافق مرامهم ما امتنعوا، بل وما كان يقول لهم ذلك رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم؛ لأنه يعود على مطلبه الشريف بالإبطال.

وذهب آخرون إلى أنهم بدلوا وكتبوا ذلك في نفس كتابهم، واحتجوا على ذلك بكثير من الظواهر، ولا يمنع من ذلك تعدد النسخ إما لاحتمال التواطؤ، وإما أنه فعل ذلك في بعضه دون بعضه الآخر. وكذا لا يمنع منه قول الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم لهم ذلك؛ لاحتمال علمه صلى الله عليه وسلم ببقاء بعض ما يفي بغرضه سالماً عن التغيير: إما لجهلهم بوجه دلالته، وإما لصرف الله تعالى إياهم عن تغييره، ومما يؤيد وقوع التغيير في كتب الله تعالى وأنها لم تبق كيوم نزلت: وقوع التناقض في الأناجيل، وتعارضها، وتكاذبها، وتهافتها، ومصادمتها بعضها ببعض(٤).

**٣- الردة عن الإسلام:**

**الردة عن الشيء:** الرجوع عنه إلى غيره، قال تعالى: {ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين} [ المائدة: ١٢١ ] .وارتدّ عن سفره وعن دينه وهو من أهل الردة ، وارتدّ هبته: ارتجعها(٥).

**وفي الشرع:** الرجوع عن الإسلام إلى الكفر، اعتقاداً أو قولاً أو فعلاً(٦).

الردة- عياذاً بالله منها- مظهر ذميم من مظاهر التغيير العقدي، حيث ينقل الإنسان من نعمة الإسلام إلى نقمة الكفر، فيخسر بذلك الدنيا والآخرة، إن مات على ذلك.

قال الله تعالى: {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ

---

(١ ) بحر العلوم، للسمرقندي (١/ ٤٠٠).

(٢ ) تفسير ابن كثير (٢/ ٦٥).

(٣ ) رواه البخاري (٦/ ٢٧٤٢).

(٤ ) روح المعاني، للألوسي (٣/ ٢٠٦).

(٥ ) أساس البلاغة، للزمخشري (١/ ٣٢٢)، مختار الصحاح، للرازي (ص: ٢٦٧).

(٦ ) البحر الرائق شرح كنز الدقائق، لابن نجيم الحنفي (٥/ ١٢٩)، الشرح الكبير، الدردير (٤/ ٣٠١) الحاوي الكبير، للماوردي (١٣/ ٣٢١)، الإقناع لطالب الانتفاع، للحجاوي (٢/ ٢٠٥)، القاموس الفقهي لغة واصطلاحًا، لسعدي أبو جيب (ص: ١٤٧).

الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ }[الحج١١].

فالمرتدون "يقبلون دعوة الإسلام ويدخلون في عداد متبعيه ويرقبون ما ينتابهم بعد الدخول في الإسلام، فإن أصابهم الخير عقب ذلك علموا أن دينهم القديم ليس بحق، وأن آلهتهم لا تقدر على شيء؛ لأنها لو قدرت لانتقمت منهم على نبذ عبادتها، وظنوا أن الإسلام حق، وإن أصابهم شر من شرور الدنيا العارضة في الحياة المسببة عن أسباب عادية سخطوا على الإسلام وانخلعوا عنه. وتوهموا أن آلهتهم أصابتهم بسوء غضبًا من مفارقتهم عبادتها كما حكى الله عن عاد إذ قالوا لرسولهم: {إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ}"(١) .

وهذا التغيير العقدي الذميم يحرص أعداء الدين على إيجاده بين المسلمين، وحملهم عليه إما بالترغيب وإما بالترهيب.

قال الله تعالى: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلاَ يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىَ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُواْ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ }[البقرة٢١٧].

والمعنى: أن فتنتهم وقتالهم يدوم إلى أن يحصل غرضهم وهو أن يردوكم عن دينكم(٢).

ولكن ذلك الحرص لن تحصل ثمرته إلا عند قوم أتاهم ما يوافق ما في باطنهم من ضعف الإيمان، وقلة اليقين برب العالمين.

أما غيرهم فلن يفلحوا معهم ولو فعلوا ما فعلوا من الترغيب والترهيب؛ ولذلك ذيل الله هذه القضية بقوله:{ إِنِ اسْتَطَاعُواْ}، وهذا الشرط تعريض بأنهم لا يستطيعون رد المسلمين عن دينهم، فموقع هذا الشرط موقع الاحتراس مما قد توهمه الغاية في قوله: {حَتَّىَ يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ}؛ ولهذا جاء الشرط بحرف "إن" المشعر بأن شرطه مرجو عدم وقوعه(٣).

إن هذا التغيير العقدي المذموم إنما يجني على صاحبه، ولن يضر الله شيئاً، فمن بقي على الإسلام فبقاؤه لنفسه، ومن ارتد عنه فقد جنى على نفسه الخسارة والنكال، وفي عباد الله دونه كثير.

قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لآئِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ }[المائدة٥٤].

**٤- البدعة في الدين:**

(بدع) الباء والدال والعين أصلان: أحدهما: ابتداء الشيء وصنعه لا عن مثال، والآخر الانقطاع والكلال. فالأول قولهم: أبدعت الشيءَ قولاً أو فعلاً، إذا ابتدأته لا عن سابق مثال. والله بديع السموات والأرض. والعرب تقول: ابتدع فلان الركي إذا استنبطه. وفلان بدع في هذا الأمر. قال الله تعالى: {قل ما كنت بدعاً من الرسل} [الأحقاف ٩]، أي: ما كنت أول الرسل. والبدع بالكسر: الأمر الذي يكون أولاً... (٤).

**والبدعة في الشرع:**عبارة عن طريقة في الدين مخترعة، تضاهي الشرعية، يقصد بالسلوك عليها المبالغة في التعبد لله سبحانه

---

(١ ) التحرير والتنوير، لابن عاشور (١٧/ ١٥٣).

(٢ ) التحرير والتنوير، لابن عاشور (٢/ ٣١٤).

(٣ ) التحرير والتنوير، لابن عاشور (٢/ ٣١٤).

(٤ ) معجم مقاييس اللغة لابن فارس (١/ ٢٠٩)، القاموس المحيط، للفيروزآبادي (ص: ٩٠٦).

.(١)

إن إحداث البدع في دين الله تعالى تجنٍ على حق الله تعالى؛ ذلك أن تعبيد الناس بشيء لم يشرعه الله تعالى ولا رسله عليهم الصلاة والسلام مزاحمة لله تعالى في حقه الخالص.

فلله تعالى أن يشرع لعباده ما شاء؛ لأنه الرب الخالق العليم الحكيم، ولا يجوز للعباد أن يزيدوا على شرعه في أمر الدين إلا بإذن من الله تعالى، ولا يكون ذلك إلا للرسل عليهم السلام. خصوصاً هذه الشريعة التي جاء بها محمد عليه الصلاة والسلام، التي اتسمت بالكمال والتمام. قال الله تعالى: { الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً }[المائدة٣].

عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن رجلاً من اليهود قال له: (يا أمير المؤمنين، آية في كتابكم تقرؤونها لو علينا –معشر اليهود– نزلت – لاتخذنا ذلك اليوم عيداً. قال: أي آية؟ قال: { اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا }. قال عمر: قد عرفنا ذلك اليوم والمكان الذي نزلت فيه على النبي صلى الله عليه وسلم: وهو قائم بعرفة يوم جمعة)(٢).

إن "ديننا قد كمل وظهر كضوء الشمس بشهادة: { اليوم أكملت لكم دينكم } فمن رام زيادة حاول ما ليس بمرضي؛ لأنه من قصور فهمه. أما ما عضده عاضد منه بأن شهد له من أدلة الشرع أو قواعده فليس برد، بل مقبول كبناء نحو ربط ومدارس وتصنيف علم وغيرها" (٣).

أكثر ما يكون الابتداع طلباً للقربة والسمو الروحي، ولكن ذلك لا يعد مبرراً لتصحيح هذا الفعل المحدث؛ لأن الله ما كتبه ولا شرعه.

قال تعالى: {ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاء رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ }[الحديد٢٧].

كان الله عز وجل قد كتب على أتباع عيسى عليه السلام القتالَ قبل أن يبعث محمداً صلى الله عليه وسلم، فلما استخرج أهل الإيمان، ولم يبق منهم إلا القليل، وكثر أهل الشرك، وانقطعت الرسل، اعتزلوا الناس، فصاروا في الغيران، فلم يزالوا كذلك حتى غيرت طائفة منهم، فتركوا دين الله وأمره، وعهده الذي عهده إليهم، وأخذوا بالبدع، فابتدعوا النصرانية واليهودية، فقال الله عز وجل لهم:( فما رعوها حق رعايتها)، وثبتت طائفة منهم على دين عيسى صلوات الله عليه، حتى بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم، فآمنوا به. والمعنى: ابتدعوا رهبانية، وأحدثوها من غير أن يشرعها الله لهم، وإنما هم التزموها من تلقاء أنفسهم. والرهبانية هي: الانفراد في الجبال، والانقطاع عن الناس في الصوامع، ورفض النساء، وترك الدنيا. وقوله: { إلا ابتغاء رضوان الله } فيه قولان: أحدهما: أنهم قصدوا بذلك رضوان الله، ... والآخر: ما كتبنا عليهم ذلك، إنما كتبنا عليهم

---

(١ ) الاعتصام، للشاطبي(١/ ٣٧).

(٢ ) رواه البخاري (١/ ٢٥)، ومسلم (٤/ ٢٣١٢).

(٣ ) فيض القدير شرح الجامع الصغير، للمناوي (٦/ ٣٦).

ابتغاء رضوان الله. وقوله: { فما رعوها حق رعايتها } أي: فما قاموا بما التزموه حق القيام. وهذا ذم لهم من وجهين: أحدهما: في الابتداع في دين الله ما لم يأمر به الله. والثاني: في عدم قيامهم بما التزموه مما زعموا أنه قربة يقربهم إلى الله، عز وجل(١).

## المسألة الثالثة: أسباب التغيير العقدي المذموم:

### ١- عدم الإيمان الصادق بالله واليوم الآخر:

الإيمان الحق بالله واليوم الآخر يجعل الإنسان ثابتاً على المعتقد الصحيح، ولا يميله عن ذلك ترغيبٌ أو ترهيب، بل يسهل لديه في هذا السبيل تجرع صنوف الأذى، وبذل النفس ثمناً للبقاء على هذا الحق؛ لأنه يوقن أن ما عند الله خير له من الدنيا وما فيها.

أما إذا كان القلب خالياً من هذا الإيمان، أو فيه شيء ضئيل منه فسرعان ما تحمله رياح التغيير إلى تغيير مذموم كلي، أو تغيير مذموم جزئي في عقيدته.

وتنكشف حقائق ما في القلوب في وهج الابتلاءات التي تزيح أغشية الباطل، وتظهر للعِيان ما استقر في الجَنان.

ولذلك يقول الله تعالى مبيناً بعض الحكم مما جرى يوم أحد: {وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ{١٦٦} وَلْيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُواْ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ قَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللهِ أَوِ ادْفَعُواْ قَالُواْ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لاَّتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ{١٦٧}[آل عمران ١٦٦-١٦٧].

لقد اتخذ المنافقون إسلامهم الظاهر وسيلة للسلامة ونيل الرغبات في المجتمع المسلم، فإذا غابوا عن الأعين ولم تبق إلا عيون النفاق والكفر غيروا ذلك المعتقد الظاهر، وأعلنوا معتقدهم الحقيقي وهو الكفر؛ إذ هو الحامل لهم على هذا التغيير.

قال تعالى: {وَإِذَا لَقُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ قَالُواْ آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُواْ إِنَّا مَعَكْمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ }[البقرة١٤].

وقال تعالى: {وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا} [ النساء].

وهذا السبب-أي: عدم الإيمان بالله واليوم الآخر- كذلك جعل بعض اليهود يسلم ظاهراً صباحاً، ويرجع إلى دينه مساء؛ من أجل صد الناس الآخرين عن الإسلام، كما قال تعالى: {وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُواْ بِالَّذِيَ أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُواْ آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ }[آل عمران٧٢].

فـ"هذه مكيدة أرادوها؛ ليلبسوا على الضعفاء من الناس أمر دينهم، وهو أنهم اشتوروا بينهم أن يظهروا الإيمان أول النهار، ويصلوا مع المسلمين صلاة الصبح، فإذا جاء آخر النهار ارتدوا إلى دينهم؛ ليقول الجهلة من الناس: إنما ردهم إلى دينهم اطلاعهم على نقيصة وعيب في دين المسلمين؛ ولهذا قالوا: { لعلهم يرجعون }"(٢).

---

(١ ) تفسير الطبري (٢٣/ ٢٠٦)، التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي (٣/ ١٤١) تفسير ابن كثير (٨/ ٢٩)، فتح القدي (٥/ ٢٥٢).

(٢ ) تفسير ابن كثير (٢/ ٥٩).

**٢- غلبة حب الدنيا:**

إيثار حب الدنيا يحبس عن الإنسان وصولَ الحق إليه، ويصرفه هذا الإيثار إلى الانحراف عنه إن كان موجوداً، ويجعله يبيع دينه وقيمه، ويكتم الحق الذي يعلمه، حتى ولو كان الثمن زهيداً. وهذا شأن اليهود وأمثالهم.

فـ"اليهود مخصوصون بالحرص الشديد على الدنيا قال الله تعالى: {وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَاللّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ }[البقرة٩٦]؛ لقربهم في الحرص بالمشركين المنكرين للمعاد، والحرص معدن الأخلاق الذميمة؛ لأن من كان حريصاً على الدنيا طرح دينه في طلب الدنيا، وأقدم على كل محظور منكر؛ بسبب طلب الدنيا"(١).

وقد جعلهم هذا الحب العميق يغيرون صفة رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم، ويحرفون كتب الله تعالى؛ حرصاً من كبارهم على الرئاسة والمال.

قال الله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّ كَثِيراً مِّنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ }[التوبة٣٤].

وقال:{ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِندِ اللّهِ لِيَشْتَرُواْ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُمْ مِّمَّا يَكْسِبُونَ{٧٩}][البقرة ٧٩].

**٣- الجهل:**

من أعظم نعم الله على الإنسان: أن يرزقه العلم النافع به وبدينه. وما عرف اللهَ حق معرفته، وقدره حق قدره مَن جهله.

قال تعالى: { وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٧) }[الزمر ٦٧].

لأجل هذا كان دين الله مبنياً على العلم؛ حتى يحافظ المسلم على عقيدته وعمله من التبديل غير المحمود، فكم من انحراف عن الحق كان سببه الجهل.

فبنو إسرائيل -عقب إنجاء الله لهم من البحر ومن بطش فرعون-مروا على أقوام يعبدون الأصنام فأرادوا أن تكون لهم آلهة كما لهؤلاء آلهة، قالوا هذا بعد أن أنعم الله عليهم بنعمة الإيمان والتحرر من أسر فرعون، فتعجب موسى عليه السلام من هذا الطلب، ووبخهم عليه، وعزا ذلك إلى جهلهم بعظمة الله وتوحيده.

قال تعالى: {وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْاْ عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُواْ يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ{١٣٨} إِنَّ هَؤُلاء مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ{١٣٩} قَالَ أَغَيْرَ اللّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهاً وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ{١٤٠}][الأعراف ١٣٨-١٤٠].

"وكان وصف موسى إياهم بالجهالة مؤكداً لما دلت عليه الجملة الاسمية من كون الجهالة صفة ثابتة فيهم وراسخة من نفوسهم، ولولا ذلك لكان لهم في بادئ النظر زاجر عن مثل هذا السؤال، فالخبر مستعمل في معنييه: الصريح والكناية،

---

(١ ) اللباب في علوم الكتاب، لابن عادل (٧/ ٤٧٩).

مكنى به عن التعجب من فداحة جهلهم" (١).

ونعت موسى إياهم بالجهل المطلق المؤكد، إنما جاء لبُعد ما صدر عنهم بعدما رأوا من الآيات العظمى والمعجزة الكبرى؛ لأنه جهل أعظم مما رأى منهم وأشنع (٢).

## المسألة الرابعة: وسائل التغيير العقدي المذموم:

لقد كان للتغيير العقدي المذموم وسائل، منها:

### ١- اتخاذ الأصنام:

لقد كان صنعُ الأصنام ونصبها، وإقامة الطقوس عندها دعوةً صريحة للإشراك بالله تعالى، وتجييش الجهلة حولها رغبة منها أو رهبة من بطشها.

وابتدأت هذه الوسيلة الذميمة من قوم نوح عليه السلام إلى من بعدهم من الأمم حتى وصلت إلى العرب الذين بعث فيهم رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم وهي لديهم آلهة معظمة.

وفي عهد موسى عليه السلام أقدم السامري على إضلال قوم موسى، وتغيير معتقدهم حينما صنع لهم عجلاً يعبدونه من دون الله تعالى.

{وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِن بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَداً لَّهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّهُ لاَ يُكَلِّمُهُمْ وَلاَ يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً اتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَالِمِينَ }[الأعراف١٤٨].

قال الطبري:" يخبر جلّ ذكره عنهم أنهم ضلوا بما لا يضل بمثله أهل العقل. وذلك أن الرب جل جلاله الذي له ملك السموات والأرض، ومدبّر ذلك، لا يجوز أن يكون جسداً له خوار، لا يكلم أحداً ولا يرشد إلى خير. وقال هؤلاء الذين قص الله قصصهم لذلك: {هذا إلهنا وإله موسى}، فعكفوا عليه يعبدونه، جهلاً منهم، وذهابًا عن الله وضلالاً"(٣).

### ٢- دخول الإسلام ظاهراً والارتداد عنه سريعاً:

وهذه وسيلة يهودية أرادوا بها تشكيك الناس وصدهم عن الإسلام، فيقول الناس عندئذ: لو كان حقاً لثبتوا عليه؛ لأنهم أهل كتاب ومعرفة.

قال تعالى: {وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُواْ بِالَّذِيَ أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُواْ آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ }[آل عمران٧٢].

"وذلك أنهم تواصوا فيما بينهم أن يؤمن فريق منهم أول النهار، ثم يكفروا آخره؛ لأجل أن تتزلزل عقائد المسلمين؛ فيقولون في أنفسهم: ما دعا هؤلاء إلى الارتداد؛ إلا ظهورُ بطلان ديننا {لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} أي: لعل المؤمنين يرجعون عن إيمانهم"(٤).

---

(١ ) التحرير والتنوير، لابن عاشور (٨/ ٢٦٦).

(٢ ) تفسير السراج المنير(١/ ٤٠٣).

(٣ ) تفسير الطبري (١٣/ ١١٧).

(٤ ) أوضح التفاسير، لمحمد عبد اللطيف (١/ ٦٩).

**المسألة الخامسة: آثار التغيير العقدي المذموم:**

**١- استحقاق الحد في الدنيا إذا لم يتب مستحقه:**

وهذا الأثر في حق من ارتد عن الإسلام، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من بدل دينه فاقتلوه ) (١).

وقد ذهب جمهور العلماء إلى مشروعية استتابة المرتد؛ لأن عمر كتب في أمر المرتد: (هلا حبستموه ثلاثة أيام، وأطعمتموه في كل يوم رغيفاً؛ لعله يتوب فيتوب الله عليه)[٢]. ولم ينكر ذلك أحد من الصحابة،كأنهم فهموا من قوله صلى الله عليه وسلم: (من بدل دينه فاقتلوه)، أي: إن لم يرجع، وقد قال تعالى:{فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم} (٣).

وهذه الآية تفريع على الأفعال المتقدمة في قوله: {فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ} .

والتوبة عن الشرك هي الإيمان، أي: فإن آمنوا إيمانا صادقاً، بأن أقاموا الصلاة الدالة إقامتها على أن صاحبها لم يكن كاذباً في إيمانه، وبأن آتوا الزكاة الدال إيتاؤها على أنهم مؤمنون حقاً؛ لأن بذل المال للمسلمين أمارة صدق النية فيما بذل فيه، فإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة شرط في كف القتال عنهم إذا آمنوا (٤).

**٢- حبوط العمل:**

قال تعالى:{ وَمَن يَكْفُرْ بِالإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ }[المائدة٥]. وقال: {ذَلِكَ هُدَى اللّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُواْ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ }[الأنعام٨٨]. وقال:{إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ }[محمد٣٢].

"والحبوط: فساد شيء كان صالحًا، ومنه سمي الحَبَط –بفتحتين-: مرض يصيب الإبل من جراء أكل الخضر في أول الربيع فتنتفخ أمعاؤها وربما ماتت. وفعل "حبط" يؤذن بأن الحابط كان صالحاً فانقلب إلى فساد. والمراد من الفساد هنا: الضياع والبطلان، وهو أشد الفساد" (٥).

وحبوط العمل فيما إذا مات صاحبه على كفره، قال الشنقيطي: " قوله تعالى: {ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله وهو في الآخرة من الخاسرين} ، ظاهر هذه الآية الكريمة أن المرتد يحبط جميع عمله بردته من غير شرط زائد، ولكنه أشار في موضع آخر إلى أن ذلك فيما إذا مات على الكفر، وهو قوله: {ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر} [٢/٢١٧].ومقتضى الأصول حمل هذا المطلق على هذا المقيد، فيقيد إحباط العمل بالموت على الكفر"(٦).

---

(١ ) رواه البخاري (٣/ ١٠٩٨).

(٢ ) رواه الشافعي، الأم (١/ ٢٩٥)، والبيهقي، السنن الصغرى (٢/ ٤٥٤).

(٣ ) فتح الباري بشرح صحيح البخاري، لابن حجر العسقلاني (١٢/ ٢٦٩).

(٤ ) التحرير والتنوير، لابن عاشور (١٠/ ٢٣).

(٥ ) التحرير والتنوير، لابن عاشور (٥/ ٤٧).

(٦ ) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن(١/ ٣٢٩).

**٣- الضلال عن الحق:**

قال تعالى: {أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْأَلُواْ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِن قَبْلُ وَمَن يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاء السَّبِيلِ }[البقرة١٠٨]. قال أبو السعود:" قوله: (فقد ضل سواء السبيل) أي: عدل وجار من حيث لا يدري عن الطريق المستقيم الموصل إلى معالم الحق والهدى، وتاه في تَيه الهوى، وتردى في مهاوي الردى" [(١)].

وقال ابن كثير:" { فقد ضل سواء السبيل } أي: فقد خرج عن الطريق المستقيم إلى الجهل والضلال وهكذا حال الذين عدلوا عن تصديق الأنبياء واتباعهم والانقياد لهم، إلى مخالفتهم وتكذيبهم والاقتراح عليهم بالأسئلة التي لا يحتاجون إليها، على وجه التعنت والكفر، كما قال تعالى: { ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفرا وأحلوا قومهم دار البوار* جهنم يصلونها وبئس القرار } [إبراهيم: ٢٨، ٢٩]" [(٢)] .

**٤- حصول العذاب:**

وهذا العذاب قد يكون في الآخرة فقط، وقد يكون في الدنيا والآخرة.

أما عذاب الدنيا فيكون بالقتل أو الأسر أو الهزيمة، أو الاستئصال العام، قال تعالى: {قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ }[التوبة١٤]. وقال: {فَكُلّاً أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ }[العنكبوت٤٠].

وأما عذاب الآخرة فيكون بدخول النار، والعياذ بالله تعالى. قال تعالى: { وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ }[البقرة٢١٧ ].

---

(١ ) تفسير أبي السعود (١/ ١٤٥).

(٢ ) تفسير ابن كثير (١/ ٣٨٢).

## الفرع الثاني: التغيير الفقهي المذموم

**وفيه أربع مسائل:**

**المسألة الأولى: تعريف التغيير الفقهي المذموم**

**المسألة الثانية: مظاهر التغيير الفقهي المذموم**

**المسألة الثالثة: أسباب التغيير الفقهي المذموم**

**المسألة الرابعة: آثار التغيير الفقهي المذموم**

### المسألة الأولى: تعريف التغيير الفقهي المذموم:

**التغيير الفقهي المذموم هو:** التغيير المحظور الذي يقوم به بعض المكلفين في بعض الأحكام الفقهية، فيبدلها عما كانت له إلى غيره، زيادة أو نقصاناً أو كتماناً أو تحويلاً، أو نحو ذلك.

**شرح التعريف:**

**فقول: "المحظور"** أي: المحرَّم؛ لأن هناك تغييراً فقهياً غير محرم، كما تقدم، وكما سيأتي قريباً أيضاً.

**وقول:" في بعض الأحكام الفقهية"** هذا قيد يبين أن ذلك التغيير يكون في المسائل الفقهية لا غيرها.

**وقول: " فيبدلها عما كانت له إلى غيره"** هذا القيد يوضح حصول التغيير المذموم الذي صُرِف فيه الحكم الفقهي إلى غيره بفعل هذا المغيّر.

**وقول: " زيادة أو نقصاناً أو كتماناً أو تحويلاً، أو نحو ذلك"**، هذا فيه بيان وجوه هذا التغيير المذموم.

### المسألة الثانية: مظاهر التغيير الفقهي المذموم:

من مظاهر التغيير الفقهي المذموم التي تحدث عنها القرآن الكريم:

**١- تبديل وصية الميت الصحيحة:**

**الوصية هي:** طلب فعل يفعله الموصى إليه بعد غيبة الموصي، أو بعد موته فيما يرجع إلى مصالحه، كقضاء ديونه، والقيام بحوائجه، ومصالح ورثته من بعده، وتنفيذ وصاياه وغير ذلك (١).

والوصية حق شرعي واجب على الإنسان المشرف على الموت إذا كانت عليه حقوق واجبة لغيره كديون، أو أروش، أو نحو ذلك، وفيما عدا الحقوق الواجبة تكون مستحبة.

وعلى الموصي أن يتقي الله في وصيته، فلا يوصي بشيء أو لشيء مما حرم الله تعالى، كالإضرار على بعض الورثة. يقول تعالى: { وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلاَلَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِن كَانُوَاْ أَكْثَرَ مِن ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاء فِي الثُّلُثِ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَآرٍّ وَصِيَّةً مِّنَ اللهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ }[النساء١٢].

---

(١ ) الاختيار لتعليل المختار، للموصلي (٥/ ٦٩)، و مواهب الجليل في شرح مختصر الشيخ خليل، للحطاب (١٨/ ٢٣٥) أسنى المطالب في شرح روض الطالب، لزكريا الأنصاري (٣/ ٢٩)، كشاف القناع عن متن الإقناع، للبهوتي (٤/ ٣٣٥).

أي: غير مضار ورثته بإكثار الوصايا، وهو نهي عن أن يقصد من وصيته الإضرار بالورثة. والإضرار منه ما حدده الشرع، كأن يقر بشيء ليس عليه، أو يوصي بوصية لا مقصد له فيها إلا الإضرار بالورثة، أو يوصي لوارث مطلقاً، أو لغيره بزيادة على الثلث ولم تجزه الورثة. وهذا القيد -أعني قوله: { غير مضار }- راجع إلى الوصية والدَّين المذكورين، فهو قيد لهما، فما صدر من الإقرارات بالديون أو الوصايا المنهي عنها له، أو التي لا مقصد لصاحبها إلا المضارة لورثته فهو باطل مردود لا ينفذ منه شيء لا الثلث ولا دونه(١).

وفي مقابل ذلك يجب على الوصي أن يؤدي الوصية المشروعة كما هي عليه بدون تغيير؛ لأنه أمين عليها. قال تعالى:{وَآتُواْ الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ وَلاَ تَتَبَدَّلُواْ الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوباً كَبِيراً }[النساء٢].

قال ابن عادل الحنبلي" وفي معنى هذا التبدل وجوه: الأول: قال الفراء والزجاج: لا تستبدلوا الحرام ، وهو مال اليتامى بالحلال وهو مالكم الذي لأبيح لكم. الثاني: قال سعيد بن المسيب والنخعي والزهري والأسدي: وكان ولي اليتيم يأخذ الجيد من مال اليتيم ويجعل مكانها المهزولة، ويأخذ الدرهم الجيد، ويجعل مكانه الزيف، يقول: درهم بدرهم، فنهوا عن ذلك. وطعن الزمخشري في هذا الوجه فقال: ليس هذا تبدلاً، إنما هو تبديل. الثالث: أن يكون صديقه فيأخذ منه نعجة عجفاء مكان سمينة من مال الصبي. الرابع: معناه: لا تأكلوا مال اليتيم سلفًا مع التزام بدله بعد ذلك" (٢).

وقال الشوكاني:" قوله { ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب } نهي لهم عن أن يصنعوا صنع الجاهلية في أموال اليتامى؛ فإنهم كانوا يأخذون الطيب من أموال اليتامى ويعوضونه بالرديء من أموالهم ولا يرون بذلك بأسًا، وقيل المعنى: لا تأكلوا أموال اليتامى وهي محرمة خبيثة وتدعوا الطيب من أموالكم، وقيل: المراد لا تتعجلوا أكل الخبيث من أموالهم وتدعوا انتظار الرزق الحلال من عند الله، والأول أولى؛ فإن تبدل الشيء بالشيء في اللغة أخذه مكانه وكذلك استبداله، ومنه قوله تعالى:{ومن يتبدل الكفر بالإيمان فقد ضل سواء السبيل }، وقوله: { أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير }، وأما التبديل فقد يستعمل كذلك كما في قوله: { وبدلناهم بجنتيهم جنتين } وأخرى بالعكس كما في قولك: بدلت الحلقة بالخاتم: إذا أذبتها وجعلتها خاتمًا، نص عليه الأزهري (٣).

فإن غير الوصي وصية الميت فعلى الوصي إثم ذلك، وليس على الميت شيء؛ لأن قد حمل أمانته وصيه.

قال تعالى: {كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْراً الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقّاً عَلَى الْمُتَّقِينَ{١٨٠} فَمَن بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ{١٨١} فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفاً أَوْ إِثْماً فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ{١٨٢} [البقرة ١٨٠-١٨٢].

فمن بدل الوصية وحرفها، فغير حكمها وزاد فيها أو نقص -ويدخل في ذلك الكتمان لها بطريق الأولى -{ فإنما إثمه على الذين يبدلونه } قال ابن عباس وغير واحد: وقد وقع أجر الميت على الله، وتعلق الإثم بالذين بدلوا ذلك { إن الله سميع عليم } أي: قد اطلع على ما أوصى به الميت، وهو عليم بذلك، وبما بدله الموصى إليهم" (٤).

---

(١ ) التحرير والتنوير (٤/ ٥٣)، فتح القدير (١/ ٦٥٣).

(٢ ) اللباب في علوم الكتاب (٦/ ١٥٣).

(٣ ) فتح القدير (١/ ٦٣٠).

(٤ ) تفسير ابن كثير(١/ ٤٩٥).

والمبدل في هذه الآية فيه قولان: أحدهما –وهو المشهور– أنه هو الوصي أو الشاهد، أو سائر الناس. أما الوصي فبأن يغير الوصي الوصية: إما في الكتابة، وإما في قسمة الحقوق. وأما الشاهد فبأن يغير شهادة، أو يكتمها. وأما غير الوصي والشاهد فبأن يمنعوا من وصل ذلك المال إلى مستحقه، فهؤلاء كلهم داخلون تحت قوله تعالى:{ فمن بدله}. والقول الثاني: أن المنهى عن التغيير هو الموصي، نهي عن تغيير الوصية عن المواضع التي بين الله تعالى بالوصية إليها؛ وذلك لأنهم كانوا في الجاهلية يوصون للأجانب، ويتركون الأقارب في الجوع والضر، فالله تعالى أمرهم بالوصية للأقربين(١).

ويجوز للوصي ونحوه أن يغير وصية الموصي إلى الحق إذا كان فيها حيف وجور قصداً من الموصي أو من غير قصد، وهذا ليس من التبديل المنهي عنه في شيء؛ لقوله تعالى: {فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفاً أَوْ إِثْماً فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ }[البقرة١٨٢].

والجنف: الخطأ. وهذا يشمل أنواع الخطأ كلها، بأن زاد وارثاً بواسطة أو وسيلة، كما إذا أوصى ببيعه الشيء الفلاني محاباة، أو أوصى لابن ابنته ليزيدها، أو نحو ذلك من الوسائل، إما مخطئاً غير عامد، بل بطبعه وقوة شفقته من غير تبصر، أو متعمداً آثماً في ذلك، فللوصي –والحالة هذه –أن يصلح القضية، ويعدل في الوصية على الوجه الشرعي. ويعدل عن الذي أوصى به الميت إلى ما هو أقرب الأشياء إليه وأشبه الأمور به، جمعاً بين مقصود الموصي والطريق الشرعي. وهذا إذن في تبديل الوصية التي فيها جور وحيف بطريقة الإصلاح بين الموصى لهم، وبين من ناله الحيف من تلك الوصية، بأن كان جديراً بالإيصاء إليه فتركه الموصي، أو كان جديراً بمقدار فأجحف به الموصي. وهذا الإصلاح والتوفيق ليس من التبديل في شيء؛ ولهذا عطف هذا على النهي لذلك، ليعلم أن هذا ليس من ذلك بسبيل، والله أعلم(٢).

وكذلك يجوز تغيير الوصية إذا كانت في شيء محرم شرعاً، فمما "لا خلاف فيه أنه إذا أوصى بما لا يجوز، مثل أن يوصي بخمر أو خنزير أو شيء من المعاصي أنه يجوز تبديله ولا يجوز إمضاؤه، كما لا يجوز إمضاء ما زاد على الثلث"(٣).

**٢– تبديل الشهادة:**

الشهادة في الشريعة: الإخبار بحق للغير عن عيان(٤). وهي سبب من أسباب إقامة الحق وتبيينه، وحسمِ مادة الظلم والنزاع بين الناس؛ لهذا أمر الله تعالى بالقيام بها على ما هي عليه من غير ميل ولا عوج، رغبة أو رهبة. قال تعالى: { وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً }[الطلاق٢].

ومعنى إقامة الشهادة: إيقاعها مستقيمة لا عوج فيها، فالإقامة مستعارة لإيقاع الشهادة على مستوفيها ما يجب فيها شرعاً، مما دلت عليه أدلة الشريعة، وقوله: {لله} ، أي: لأجل الله وامتثال أمره، لا لأجل المشهود له، ولا لأجل المشهود عليه، ولا لأجل منفعة الشاهد والإبقاء على راحته(٥).

---

(١ ) تفسير الرازي: مفاتيح الغيب (٥/ ٥٥).

(٢ ) تفسير ابن كثير (١/ ٤٩٦)، التحرير والتنوير، لابن عاشور (٢/ ١٥١).

(٣ ) تفسير القرطبي (٢/ ٢٦٩).

(٤ ) التعريفات، للجرجاني (ص: ١٧٠) بتصرف.

(٥ ) التحرير والتنوير، لابن عاشور (٢٨/ ٢٧٩)بتصرف.

وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاء لِلّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيّاً أَوْ فَقِيراً فَاللّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلاَ تَتَّبِعُواْ الْهَوَى أَن تَعْدِلُواْ وَإِن تَلْوُواْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ اللّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً }[النساء١٣٥].

"أي: ليكن أداؤها ابتغاء وجه الله، فحينئذ تكون صحيحة عادلة حقًا، خالية من التحريف والتبديل والكتمان؛ ولهذا قال: { ولو على أنفسكم } أي: اشهد الحق، ولو عاد ضررها عليك، وإذا سئلت عن الأمر فقل الحق فيه، وإن كان مضرة عليك، فإن الله سيجعل لمن أطاعه فرجًا ومخرجًا من كل أمر يضيق عليه" (١).

فالواجب تأدية الشهادة وعدم تبديلها بكتمان أو تحريف، وأن لا يمنع منها خوفٌ أو عداوة أو طمع.

قال تعالى: { وَلاَ تَكْتُمُواْ الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ }[البقرة٢٨٣].

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:(لا يمنعن رجلاً هيبةُ الناس أن يقول بحق إذا علمه أو شهده أو سمعه)(٢).

## المسألة الثالثة: أسباب التغيير الفقهي المذموم:

هناك أسباب تدعو أناساً إلى تغيير الوصية أو الشهادة، منها:

### ١- الميل إلى طرف لمحبة أو لقرابة أو نحو ذلك:

فقد يحصل التبديل في الوصية: إما من الموصي وإما من الوصي على خلاف الحق؛ بإعطاء من لا يستحق أو زيادته، أو حرمان من يستحق أو تنقيصه؛ من أجل ميل قلبي إليه أكثر من غيره، بحيث يضر ذلك أصحاب الحقوق، أو ينقصهم حقهم.

وكذلك في الشهادة، فقد تحمل القرابة الشاهدَ على تغيير الشهادة، حتى يعصي الله تعالى براً بالقرابة، أو تدفعه الشفقة كذلك إلى مثل هذا الفعل المحظور.

قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاء لِلّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيّاً أَوْ فَقِيراً فَاللّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلاَ تَتَّبِعُواْ الْهَوَى أَن تَعْدِلُواْ وَإِن تَلْوُواْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ اللّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً }[النساء١٣٥].

فقوله: { أو الوالدين والأقربين } أي: وإن كانت الشهادة على والديك وقرابتك، فلا تراعهم فيها، بل اشهد بالحق، وإن عاد ضررها عليهم؛ فإن الحق حاكم على كل أحد، وهو مقدم على كل أحد. وقوله: { إن يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما } أي: لا ترعاه لغناه، ولا تشفق عليه لفقره، الله يتولاهما، بل هو أولى بهما منك، وأعلم بما فيه صلاحهما." (٣).

### ٢- طلب المصلحة الدنيوية، أو خوف الضرر من عدم التبديل في الوصية والشهادة:

فالوصي أو الشاهد قد يكون منهما تغيير في الوصية والشهادة؛ طمعاً في عرض دنيوي يأخذانه بهذا التغيير، فلو لم يبدلا لن يحصلا على ذلك.

وأيضاً قد يرهَّبان إذا قالا الحق في الوصية والشهادة. فحرصاً على المصلحة والسلامة عندهما يقومان بالتبديل الذي لا يرضاه الله تعالى، ولا يقره العدل في أي قانون.

---

(١ ) تفسير ابن كثير (٢/ ٤٣٣).

(٢) رواه أحمد (٣/ ١٩)، والترمذي (٤/ ٤٨٣)، وابن ماجه (٢/ ١٣٢٨)، وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (١/ ١٦٧).

(٣ ) تفسير ابن كثير (٢/ ٤٣٣).

وهذه المقاصد لا تبيح لهما هذا الفعل الأثيم؛ فإن ما عند الله من الحلال خير لهما من تناول هذا الحرام، وقول الحق كذلك لا يقرِّب أجلاً، ولا يوصل ضرراً لم يرده الله تعالى.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ألا لا يمنعن أحدكم رهبةُ الناس أن يقول بحق إذا رآه أو شهده؛ فإنه لا يقرب من أجل ولا يباعد من رزق أن يقول بحق أو يذكر بعظيم)(١).

قال الألباني: " وفي الحديث: النهي المؤكد عن كتمان الحق؛ خوفًا من الناس، أو طمعًا في المعاش. فكل من كتمه مخافة إيذائهم إياه بنوع من أنواع الإيذاء كالضرب والشتم، وقطع الرزق، أو مخافة عدم احترامهم إياه، ونحو ذلك، فهو داخل في النهي، ومخالف للنبي صلى الله عليه وسلم، وإذا كان هذا حال من يكتم الحق وهو يعلمه، فكيف يكون حال من لا يكتفى بذلك، بل يشهد بالباطل على المسلمين الأبرياء، ويتهمهم في دينهم وعقيدتهم مسايرة منه للرعاع، أو مخافة أن يتهموه هو أيضًا

بالباطل إذا لم يسايرهم على ضلالهم واتهامهم"(٢).

## المسألة الرابعة: آثار التغيير الفقهي المذموم:

المعصية لا تدع صاحبها دون أضرار تجلبها له؛ بسبب إقدامه عليها، وتغيير الوصية والشهادة من المعاصي الكبيرة التي تجر على مرتكبها الآثار الوبيلة، فمن ذلك:

### ١- حصول الإثم، الذي قد يورث العقوبة:

قال تعالى: {فَمَن بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ }[البقرة١٨١].

فقوله: "{إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} وعيد للمبدل؛ لأن الله لا يخفى عليه شيء، وإن تحيل الناس لإبطال الحقوق بوجوه الحيل، وجاروا بأنواع الجور فالله سميع وصية الموصي، ويعلم فعل المبدل، وإذا كان سميعًا عليمًا وهو قادر فلا حائل بينه وبين مجازاة المبدل"(٣).

وقال: { وَلاَ تَكْتُمُواْ الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ }[البقرة٢٨٣].

"يعني: ومن يكتم شهادته{فإنه آثم قلبه}، يقول: فاجر قلبه، مكتسب بكتمانه إياها معصية الله" (٤).

"قيل: ما أوعد الله على شيء كإيعاده على كتمان الشهادة؛ فإنه تعالى قال: {فإنه آثم قلبه}، وأراد به مسخ القلب، نعوذ بالله من ذلك" (٥).

وفي هذه الآية الكريمة أضاف الإثم إلى القلب" لأن الأفعال من الدواعي والصوارف إنما تحدث في القلب، فلما كان الأمر

---

(١) رواه أحمد (٣/ ٥٠)، والطبراني، المعجم الأوسط (٣/ ١٦٢)، وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (١/ ١٦٧).

(٢) سلسلة الأحاديث الصحيحة (١/ ١٦٧).

(٣ ) التحرير والتنوير، لابن عاشور (٢/ ١٥١).

(٤ ) تفسير الطبري (٦/ ٩٩).

(٥ ) تفسير الخازن (١/ ٣٠٩).

كذلك أضيف الإثم إلى القلب"(١). وقال تعالى: { وَلاَ نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللهِ إِنَّا إِذاً لَّمِنَ الآثِمِينَ }[المائدة١٠٦].

قال ابن كثير في قوله تعالى: { إِذاً لَّمِنَ الآثِمِينَ}:" أي: إن فعلنا شيئاً من ذلك: من تحريف الشهادة، أو تبديلها، أو تغييرها أو كتمها بالكلية(٢).

**٢- ظلم الناس، وتضييع الحقوق، وإيجاد الشقاق:**

وهذا أثر آخر يتنج عن معصية التبديل في الوصية والشهادة، فمنعُ ذي الحق عن حقه وافياً، وإعطاؤه لغيره ظلم، وهذا الظلم يؤدي إلى ضياع الحقوق التي أمر الله بأدائها إلى أهلها، ولعل هذا التغيير غير الجائز يعمل على زرع النزاع والشحناء بين أطراف هذا الحق، حتى بين الأقارب والأحبة؛ لهذا نهى الله تعالى عن التغيير في الوصية والشهادة، كما في الآيات السابقة.

## الفرع الثالث: التغيير النفسي المذموم:

**التغيير النفسي المذموم هو**: عبارة عن تحويل داخل النفس المكلفة من الخير إلى الشر.

وهذا يشمل تحويل الإيمان إلى الكفر، والطاعة إلى المعصية، وشكر النعمة إلى جحودها.

ومن الأمثلة التي ذكرها القرآن الكريم على هذا النوع من التغيير المذموم: قصة العالم الذي آتاه الله آياته فانسلخ منها، وصار إلى الحور بعد الكور، والمعصية بعد الطاعة.

قال تعالى: {وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِيَ آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ{١٧٥} وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ{١٧٦} سَاء مَثَلاً الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُواْ يَظْلِمُونَ{١٧٧} مَن يَهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَن يُضْلِلْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ{١٧٨}[ الأعراف ١٧٥-١٧٨].

وقد اختلف العلماء في تحديد اسم هذا الرجل وبلده على أقوال عدة ذكرها المفسرون(٣)، والذي يهم هنا هو الحديث عن هذا التغيير النفسي الذي حصل من هذا الرجل.

ومن خلال هذه القصة ستتجلى مظاهر هذا التغير وأسبابه وآثاره.

**أولاً- المظاهر:**

لقد أنعم الله تعالى على هذا الإنسان بنعمة الهداية، وإيتائه آيات من آيات الله (٤)، فيها علمٌ وبصيرةٌ تعينه على الإقبال إلى الحق، والانكفاف عن الباطل. لكن نفسه قامت فيها أسباب نقلتها إلى الانسلاخ عن النعمة فظهر منه:

---

(١ ) المصدر السابق.

(٢ ) تفسير ابن كثير (٣/ ٢١٨).

(٣ ) تفسير الطبري (١٣/ ١٥٢-٢٥٧)، تفسير القرطبي (٧/ ٣١٩)، زاد المسير في علم التفسير، لابن الجوزي (٣/ ٢٨٧)، التحرير والتنوير، لابن عاشور (٨/ ٣٥٠).

(٤ ) اختلف المفسرون في هذه الآيات إلى أقوال، وليس على ذلك دليل يمكن الاعتماد عليه إلا الأخبار الإسرائيلية، تنظر هذه الأقوال في: زاد المسير في علم التفسير، لابن الجوزي (٣/ ٢٨٨)، النكت والعيون، للماوردي (٢/ ٢٧٩).

**الكفر والجحود:**

قال تعالى: {وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ{١٧٥}

فقوله: { فَانسَلَخَ مِنْهَا }أي: انفصل عنها انفصالاً معنوياً، بأن كفر بها، ونبذها وراء ظهره، وأعرض عن العمل بما تقتضيه، وخرج منها كما تنسلخ الحية من جلدها، ويقال: تهاون بها، ولم يعرف حقها، ولا حرمتها، ونزع منه العلم الذي كان يعلمه (١).

**ثانياً–الأسباب:**

ثم بينت الآيات الكريمة الدوافع التي أودت بهذا الرجل إلى هذا التغيير النفسي المقيت، فقال تعالى: {وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ}، فذكرت الآيات سببين:

**الأول: الركون إلى الدنيا، والثاني: اتباع الهوى:**

قال تعالى: {وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ}

فهذه الآيات التي آتاه الله إياها كانت سببًا للرفعة والتشريف، لكن هذا المنحرف أتى بما يناقض ذلك، وهو الركون إلى الدنيا، واتباع الهوى.

فمعنى قوله تعالى: {وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ} أي: ولو أردنا أن نشرفه، ونرفع قدره بما آتيناه من الآيات لفعلنا، والرفعة مستعارة لكمال النفس وزكائها؛ لأن الصفات الحميدة تجعل صاحبها مرتفعاً على من دونه، أي: ولو شئنا لاكتسب بعمله بالآيات فضلاً وزكاء وتميزاً بالفضل، فمعنى{ لرفعناه}: ليسرنا له العمل بها الذي يشرف به، ولكنه {أخلد إلى الأرض}أي: اطمأن إليها ولزمها، وترامى إلى شهوات الدنيا وما فيها من الملاذ ورغب فيها، وركن إليها، وانقاد لما دعاه إليه الهوى، واتبع ما هو ناشئ عن هواه في إيثار الدنيا، واسترضاء قومه، أو صيانة رئاسته وجاهه. وقد جاء الاستدراك هنا تنبيهاً على السبب الذي لأجله لم يرفع، ولم يشرف كما فعل بغيره ممن أوتي الهدى فآثره وأتبعه. ويحتمل أن يراد بقوله: { إلى الأرض } العبارة عن الأسفل والأخس، كما يقال: فلان في الحضيض، ويتأيد ذلك من جهة المعنى المعقول، وذلك أن الأرض وما ارتكز فيها هي الدنيا وكل ما عليها؛ فإن من أخلد إليها فقد حرم حظ الآخرة الباقية، فالإخلاد هنا إذن: ركون إلى السفل، أي: تلبس بالنقائص والمفاسد، واتباع الهوى: ترجيح ما يحسن لدى النفس من النقائص المحبوبة، على ما يدعو إليه الحق والرشد (٢).

وقد أفاد هذا النص الكريم أن تلك الآيات شأنها أن تكون سبباً للهداية والتزكية، فلو شاء الله له التوفيق وعصمه من كيد

---

(١ ) تفسير الكشاف، للزمخشري (٢/ ١٦٧)، تفسير البيضاوي(٣/ ٧٢)، تفسير القرطبي (٧/ ٣٢١)، بحر العلوم، للسمرقندي (١/ ٥٨١)، التحرير والتنوير، لابن عاشور (٨/ ٣٥٢).

(٢ ) تفسير البحر المحيط، لأبي حيان (٤/ ٤٢٢)، الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، للواحدي (ص: ٤٢١)، اللباب في علوم الكتاب، لابن عادل (٩/ ٣٨٨)، البحر المديد، لابن عجيبة (٢/ ٥٧٤)، التبيان في تفسير غريب القرآن، لابن الهائم (ص: ٢١٢)، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لابن عطية (٢/ ٥٤٩)، التحرير والتنوير، لابن عاشور (٨/ ٣٥٣).

الشيطان وفتنته فلم ينسلخ عنها، وهذه عبرة للموفقين؛ ليعلموا فضل الله عليهم في توفيقهم(١).

**ثالثاً– الآثار:**

تحدثت الآيات الكريمة عن الآثار التي جناها هذا الجاحد، وهي:

**١– ملازمة الشيطان له وانقياده لأمره:**

في قوله تعالى:{ فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ}، بمعنى: لحقة، وأدركه، واستحوذ عليه، وغلبه على أمره، وأطاعه، فمهما أمره امتثل، فصار قريناً له (٢) .

**٢– الوصول إلى الهلاك والضلال:**

في قوله تعالى:{ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ}، أي: صار من الهالكين الضالين الراسخين في الغواية، بعد أن كان من المهتدين (٣).

**٣– عدم الانتفاع بالآيات والمواعظ:**

في قوله تعالى:{ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُون}.

واللهث: تنفس بسرعة، وتحرك أعضاء الفم معه، وامتداد اللسان. وأكثر ما يعتري ذلك مع الحَر والتعب، وهو في الفرس ضبح، وخلقة الكلب أنه يلهث على كل حال.

ومن المعلوم أن كل شيء يلهث من إعياء أو عطش ما خلا الكلب، فإنه يلهث في حال الراحة والصحة والمرض، فضرب الله تعالى به مثلاً، فكما أن الكلب إن طردته أو تركته يلهث، فكذلك هذا إن وعظته فهو ضال، وإن لم تعظه فهو ضال، فضلالته على كل حال، وهذا وجه تشبيه هذا الضال بالكلب (٤).

ومن هذه القصة البليغة يتجلى لنا درس بليغ وهو: أن من أوتي الهدى فانسلخ منه إلى الضلال والهوى والعمى، ومال إلى الدنيا، حتى تلاعب به الشيطانكان منتهاه إلى البوار والردى، وخاب في الآخرة والأولى، فذكر الله قصته؛ ليحذر الناس عن مثل حالته (٥).

---

(١ ) التحرير والتنوير، لابن عاشور (٨/ ٣٥٢) بتصرف يسير.

(٢ ) البحر المديد، لابن عجيبة (٢/ ٥٧٣)، التحرير والتنوير، لابن عاشور (٨/ ٣٥٢)، تفسير أبي السعود (٣/ ٢٩٢)، تفسير ابن كثير (٣/ ٥٠٩).

(٣ ) النكت والعيون، للماوردي (٢/ ٢٨٠)، تفسير أبي السعود (٣/ ٢٩٢)، تفسير ابن كثير (٣/ ٥٠٩).

(٤ ) التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي (١/ ٤٢٨)، بحر العلوم، للسمرقندي (١/ ٥٨٢)، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لابن عطية (٢/ ٥٤٩).

(٥ ) تفسير الرازي: مفاتيح الغيب (١٥/ ٤٦).

## الفرع الرابع: التغيير الفطري المذموم

**وفيه مسألتان:**

**المسألة الأولى: تعريف التغيير الفطري**

**المسألة الثانية: حديث القرآن عن التغيير الفطري المذموم**

### المسألة الأولى: تعريف التغيير الفطري

**التغيير الفطري لغة:**

الفطري نسبة إلى الفطرة، والفطرة: ما فطر الله عليه الخلق من المعرفة به. والفطر: الابتداء والاختراع، وفي التنزيل العزيز: { الحمد لله فاطِرِ السمواتِ والأَرضِ}، قال ابن عباس رضي الله عنهما: " ما كنت أَدري ما فاطِرُ السموات والأَرض حتى أَتاني أَعرابيّان يختصمان في بئر فقال أَحدهما: أَنا فَطَرْتُها أَي: أَنا ابتدأْت حَفْرها(١).

**التغيير الفطري اصطلاحاً:**

من خلال التعريف اللغوي السابق لمعنى الفطرة يمكن أن يقال: إن **التغيير الفطري المذموم هو: تبديل ما خلق الله في الإنسان من الخير الحسي أو المعنوي إلى غيره.**

### المسألة الثانية: حديث القرآن الكريم عن التغيير الفطري المذموم:

لقد خلق الله تعالى الناس في أحسن تقويم، وجعلهم "قابلين لأحكام هذا الدين، وجعل تعاليمه مناسبة لخلقتهم غير مجافية لها، غير نائين عنه، ولا منكرين له، مثل: إثبات الوحدانية لله؛ لأن التوحيد هو الذي يساوق العقل والنظر الصحيح، حتى لو ترك الإنسان وتفكيره ولم يلقن اعتقاداً ضالاً لاهتدى إلى التوحيد بفطرته" (٢).

لكن الإنسان باتباع هواه، خرج عن هذه الفطرة، فبدلها بالاعتقادات المنحرفة، والأعمال المعوجة، طاعة للشيطان، الذي قد أقسم على أنه سيأمر عباد الله بتغيير خلق الله، قال تعالى:{ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيباً مَّفْرُوضاً{١١٨} وَلأُضِلَّنَّهُمْ وَلأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الأَنْعَامِ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللهِ وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيّاً مِّن دُونِ اللهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَاناً مُّبِيناً{١١٩}[النساء ١١٨-١١٩].

فقوله:{ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللهِ}، أي: "دين الله؛ وذلك لدلالة الآية الأخرى على أن ذلك معناه، وهي قوله:{ فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم } ، [سورة الروم: ٣٠]. وإذا كان ذلك معناه، دخل في ذلك فعلُ كل ما نهى الله عنه: من خصاء ما لا يجوز خصاؤه، ووشم ما نهى عن وشمه ووشره، وغير ذلك من المعاصي، ودخل فيه ترك كل ما أمر الله به؛ لأن الشيطان لا شك أنه يدعو إلى جميع معاصي الله، وينهى عن جميع طاعته. فذلك معنى أمره

---

(١ ) مفردات ألفاظ القرآن، للراغب الأصفهاني (٢/ ١٩٨)، تاج العروس من جواهر القاموس، للزبيدي (١٣/ ٣٢٩)، المخصص، لابن سيده (١/ ٢٣٢).

(٢ ) التحرير والتنوير، لابن عاشور (٢١/ ٤٨).

نصيبه المفروض من عباد الله، بتغيير ما خلق الله من دينه"(١).

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول صلى الله عليه وسلم: ( لعن الله الواشمات والمستوشمات، والمتنمصات، والمتفلجات للحسن، المغيرات خلق الله تعالى )(٢).

وهذه الأفعال إنما ورد الوعيد الشديد فيها؛ لما فيها من الغش والخداع، ولو رخص في شيء منها لكان وسيلة إلى استجازة غيرها من أنواع الغش، ولما فيها من تغيير الخلقة(٣).

ويدخل في تغيير خلق الله تعالى-مما تحدث عنه القرآن الكريم-: ما فعله قوم لوط من الفاحشة المنكرة؛ لأنهم قلبوا الفطرة في الشهوة، فانحرفوا بها عن الإناث إلى الذكور، قال تعالى:{ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ{١٦٥} وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ{١٦٦}. والسبب الذي أوقعهم في هذه الفاحشة جهلُهم وغلبة الهوى عليهم، كما قال تعالى: {أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاء بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ }[النمل٥٥]. أي: لا تعرفون شيئاً لا طبعاً ولا شرعاً، فتفعلون فعل من يجهل قبحها، أو يكون سفيهاً لا يميز بين الحسن والقبيح، أو تجهلون العاقبة، فوصفهم بالجهالة وهي اسم جامع لأحوال أفنِ الرأي وقساوة القلب(٤).

---

(١ ) تفسير الطبري (٩/ ٢٢٢).

(٢ ) رواه البخاري (٤/ ١٨٥٣)، ومسلم (٣/ ١٦٧٨). قال النووي : أما ( الواشمة ) فهي فاعلة الوشم ، وهو: أن تغرز إبرة أو مسلة أو نحوهما في ظهر الكف أو المعصم أو الشفة أو غير ذلك من بدن المرأة حتى يسيل الدم ، ثم تحشو ذلك الموضع بالكحل أو النورة ، فيخضر،.. وفاعلة هذا واشمة ، وقد وشمت تشم وشماً، والمفعول بها موشومة . فإن طلبت فعل ذلك بها فهي مستوشمة ، وهو حرام على الفاعلة والمفعول بها باختيارها، وأما ( النامصة ) فهي التي تزيل الشعر من الوجه، والمتنمصة التي تطلب فعل ذلك بها ، وهذا الفعل حرام إلا إذا نبتت للمرأة لحية أو شوارب ، فلا تحرم إزالتها ، بل يستحب عندنا . وقال ابن جرير : لا يجوز حلق لحيتها ولا عنفقتها ولا شاربها ، ولا تغيير شيء من خلقتها بزيادة ولا نقص . ومذهبنا ما قدمناه من استحباب إزالة اللحية والشارب والعنفقة ، وأن النهي إنما هو في الحواجب وما في أطراف الوجه .

وأما ( المتفلجات ) المتفلجة هي: من تبرد ما بين أسنانها الثنايا والرباعيات ، وهو من الفلج بفتح الفاء واللام ، وهي فرجة بين الثنايا والرباعيات ، وتفعل ذلك العجوز ومن قاربتها في السن؛ إظهاراً للصغر وحسن الأسنان؛ لأن هذه الفرجة اللطيفة بين الأسنان تكون للبنات الصغار، فإذا عجزت المرأة كبرت سنها وتوحشت فتبردها بالمبرد لتصير لطيفة حسنة المنظر ، وتوهم كونها صغيرة ، ويقال له أيضا: الوشر ، ومنه لعن الواشرة والمستوشرة ، وهذا الفعل حرام على الفاعلة والمفعول بها لهذه الأحاديث، ولأنه تغيير لخلق الله تعالى، و تزوير وتدليس. شرح النووي على مسلم (٧/ ٢٤١) بتصرف.

(٣ ) فتح الباري (١٠/ ٣٨٠).

(٤ ) تفسير ابن كثير (٦/ ٢٠٠)، تفسير الرازي : مفاتيح الغيب (٢٤/ ١٧٥)، تفسير البيضاوي (٤/ ٢٧٢)، التحرير والتنوير، لابن عاشور (١٩/ ٢٨٠).

## الفصل الثاني: التغيير في مظاهر الحياة الدنيا وأهلها

**وفيه ثلاثة مباحث:**

**المبحث الأول: أحوال الأرض خصباً وجدباً، وفيه مطلبان**

**المبحث الثاني: أوقات الليل والنهار، وفيه مطلبان**

**المبحث الثالث: ما يعتري الإنسان من الضعف والقوة، وفيه مطلبان**

## المبحث الأول: أحوال الأرض خصباً وجدباً

**وفيه مطلبان:**

**المطلب الأول: أسباب تغير الأرض خصباً وجدباً**

**المطلب الثاني: آثار تغير الأرض خصباً وجدباً**

### المطلب الأول: أسباب تغير الأرض خصباً وجدباً

خلق الله تعالى هذه الأرض، وجعل فيها للإنسان مستقراً ومتاعاً إلى حين، وهيأ له فيها أسباب البقاء: فسماء تمطر، وأرض تنبت؛ ليأكل الإنسان ويشرب ويلبس فيعيش عمره الموقوت. وهذا نعمة من الرزاق الكريم تستوجب طاعته شكراً لفضله ورزقه.

لهذا فإن طاعة الله تعالى، وإقامة دينه سبب لبقاء خصب الأرض، ونزول الغيث النافع، وسبب لعدم تغير الأرض بالجدب وشدة الحاجة.

قال تعالى: {وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ }[الأعراف٩٦].

فقوله:{ بركات من السماء} يعني: المطر، {والأرض} يعني: النبات، والمعنى: تابعنا عليهم بالمطر والنبات والخصب، ورفعنا القحط، {ولكن كذبوا فأخذناهم}أي: فجعلنا لهم العقوبات،{ بما كانوا يكسبون} من الكفر والمعصية والأعمال الخبيثة(١).

---

(١ ) الكشف والبيان، للثعلبي (٤/ ٢٦٥).

وقال تعالى: { فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً{١٠} يُرْسِلِ السَّمَاء عَلَيْكُم مِّدْرَاراً{١١} وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَاراً{١٢}][نوح ١٠-١٢].

فـ"في الآية دليل على أن الاستغفار والتوبة سبب لنزول الأمطار" (١).

وقال تعالى: {وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيهِم مِّن رَّبِّهِمْ لأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاء مَا يَعْمَلُونَ }[المائدة٦٦].

فقد" ذكر تعالى في هذه الآية الكريمة أن أهل الكتاب لو أطاعوا الله، وأقاموا كتابهم باتباعه، والعمل بما فيه، ليسر الله لهم الأرزاق وأرسل عليهم المطر، وأخرج لهم ثمرات الأرض"(٢).

أما إذا كثرت المعاصي من الخلق، وجحدوا نعم الله عليهم فإن ذلك سبب لتغيير نعمة الخصب وسعة الرزق عليهم، ليحل بينهم-بعد ذلك- الجدب وضيق الرزق، والجزاء من جنس العمل.

قال تعالى: {مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً وَكَفَى بِاللهِ شَهِيداً }[النساء٧٩].

"أي: ما أصابكم -يا معشر الناس- من خصب، واتساع رزق فمن تفضل الله عليكم، وما أصابكم من جدب، وضيق رزق فمن أنفسكم، أي: من أجل ذنوبكم وقع ذلك بكم" (٣).

ومن المعاصي التي تحدث تغييراً في الأرض بالجدب وذهاب النعمة: الخيانة في البيع والشراء، ومنع صاحب المال زكاة ماله، والحكم بغير ما أنزل الله تعالى.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (خمس بخمس: ما نقص قوم العهد إلا سلط عليهم عدوهم، وما حكموا بغير ما أنزل الله إلا فشا فيهم الفقر، ولا ظهرت فيهم الفاحشة إلا فشا فيهم الموت، ولا طففوا المكيال إلا منعوا النبات، وأخذوا بالسنين، ولا منعوا الزكاة إلا حبس عنهم القطر)(٤).

## المطلب الثاني: آثار تغير الأرض خصباً وجدباً

**وفيه فرعان:**

### الفرع الأول: الآثار على الأرض:

بقاء الأرض بلا غيث يجعلها في شحوب يبعث الكآبة في نفس الناظر إليها، وهو يراها على ذلك الصمت الحزين، فإذا جاءها التغيير بالمطر أخصبت وتحركت وأشرقت فآتت أكلها بإذن ربها. وهذا آية بصرية من آيات الله الدالة على قدرته على إحياء الموتى. قال تعالى: {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاء اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي

---

(١ ) التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي (٢/ ١).

(٢ ) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، للشنقيطي (١/ ٤١٦).

(٣ ) تفسير القرطبي (٥/ ٢٨٥).

(٤) رواه الطبراني، المعجم الكبير (٤٥/١١)، وابن ماجه(١٣٣٢/٢)، والبيهقي، شعب الإيمان (٣٥١/٧)، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٧٦٥)، وصحيح الجامع (٣٢٤٠).

الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ }[فصلت٣٩].

ومعنى الآية: من حجج الله وأدلته على قدرته على نشر الموتى من بعد بلاها، وإعادتها لهيئتها كما كانت من بعد فنائها: أنك يا رسول الله، ترى الأرض دارسة غبراء، لا نبات بها ولا زرع. فإذا أنزلنا من السماء غيثاً على هذه الأرض الخاشعة تحركت بالنبات وانتفخت. إن الذي أحيا هذه الأرض الدارسة فأخرج منها النبات، وجعلها تهتز بالزرع من بعد يبسها ودثورها بالمطر الذي أنزل عليها لقادر أن يحيي أموات بني آدم من بعد مماتهم بالماء الذي ينزل من السماء لإحيائهم (١).

وفي سورة الحج قال:{ وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاء اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ }[الحج٥].

فقوله: {هامدة} أي: يابسة قاحلة لا نبات فيها، أو دارسة الآثار من النبات والزرع. {فإذا أنزلنا عليها الماء} أي: سواء كان من المطر، أو الأنهار أو العيون أو السواني: {اهتزت}: أي: تحركت بالنبات. ولما كان النبات نابتًا فيها متصلاً بها، كان اهتزازه كأنه اهتزازها فأطلق عليها بهذا الاعتبار، أنها اهتزت بالنبات. وهذا أسلوب عربي معروف. واهتزازها تخلخلها واضطراب بعض أجسامها لأجل خروج النبات، وقوله: {وربت} أي زادت وارتفعت: وقال بعض أهل العلم: وربت: انتفخت، لأجل خروج النبات، وقوله: {وأنبتت} أي: أنبت الله فيها {من كل زوج} أي: صنف من أصناف النبات، والزرع، والثمار: {بهيج} أي: حسن، والبهجة: الحسن. ومنه قوله تعالى: {فأنبتنا به حدائق ذات بهجة}(٢).

## الفرع الثاني: الآثار على الإنسان:

إن حصول التغيير في الأرض خصباً أو جدباً يؤثر على الإنسان؛ لأنه هو المستفيد من ذلك، أو المتضرر به، فقوام عيشه على ما يخرج من الأرض. قال تعالى:{ فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ{٢٤} أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاء صَبّاً{٢٥} ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقّاً{٢٦} فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبّاً{٢٧} وَعِنَباً وَقَضْباً{٢٨} وَزَيْتُوناً وَنَخْلاً{٢٩} وَحَدَائِقَ غُلْباً{٣٠} وَفَاكِهَةً وَأَبّاً{٣١} مَّتَاعاً لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ{٣٢}[ عبس ٢٤-٣٢].

غير أن الناس إزاء هذا التغيير فريقان:

الأول: أهل الإيمان، وحالهم أنهم يشكرون الله تعالى عند الخصب، فإذا أجدبوا دعاهم ذلك إلى مراجعة أنفسهم، فتضرعوا وأنابوا، وعرفوا أن مصيبتهم كانت بذنوبهم، قال تعالى: {وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ }[الشورى٣٠]. ولهذا شرع في الإسلام صلاة الاستسقاء عند القحط(٣).

الثاني: أهل الكفر، ومن نحا نحوهم، وحالهم الجحود عند خصبهم، ونسبة ذلك إلى غير الله، والقنوط عند قحطهم، والتطير بالصالحين في تلك الحال.

قال تعالى: {وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ }[الروم٣٦].

فقوله: {وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ }، أي: الخصب وكثرة المطر، { فَرِحُوا بِهَا} يعني: فرح البطر، وهذه حال من تكون عبادته للدنيا، فإذا أعطاه الله رضي، وإذا منعه سخط وقنط، ولا ينبغي أن يكون كذلك، بل ينبغي أن يعبد الله في الشدة والرخاء .وقوله:

---

(١ ) تفسير الطبري (٢١/ ٤٧٥-٤٧٦).

(٢ ) أضواء البيان (٤/ ٢٧٨).

(٣ ) رواه البخاري (١/ ٣٤١)، ومسلم (٢/ ٦١٢).

{ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ} أي: الجدب وقلة المطر، وقيل: الخوف والبلاء ) { بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ } من السيئات { إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ } أي: ييأسون من رحمة الله، وهذا خلاف وصف المؤمنين؛ فإنهم يشكرونه عند النعمة، ويرجونه عند الشدة(١).

وقد ورد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى صلاة الصبح بالحديبية على إثر سماء كانت من الليلة فلما انصرف أقبل على الناس فقال: ( هل تدرون ماذا قال ربكم؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب، وأما من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب)(٢).

وقال الله تعالى عن فرعون وقومه مع موسى: {وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَونَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّن الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ{ ١٣٠} فَإِذَا جَاءتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَـذِهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَى وَمَن مَّعَهُ أَلا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ{ ١٣١}[الأعراف ١٣٠-١٣١].

وقال عن كفار قريش مع محمد صلى الله عليه وسلم: { وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَـذِهِ مِنْ عِندِ اللهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَـذِهِ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلًّ مِّنْ عِندِ اللهِ فَمَا لِهَؤُلاء الْقَوْمِ لاَ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً }[النساء٧٨].

" والحسنة في الآيتين: النعمة كالرزق والخصب والعافية، والسيئة: المصيبة بالجدب والقحط، ونقص الأموال، والأنفس، والثمرات" (٣).

---

(١ ) اللباب في علوم الكتاب، لابن عادل (١٥/ ٤١٤).

(٢ ) رواه البخاري (١/ ٣٥١)، ومسلم (١/ ٨٣).

(٣ ) أضواء البيان (٦/ ١١٧).

## المبحث الثاني: أوقات الليل والنهار

**وفيه مطلبان:**

**المطلب الأول: دلالة اختلاف الليل والنهار على قدرة الله تعالى وعلى استحقاقه للعبادة وحده**

**المطلب الثاني: آثار اختلاف الليل والنهار في حياة الإنسان**

### المطلب الأول: دلالة اختلاف الليل والنهار على قدرة الله تعالى واستحقاقه العبادة وحده:

لله تعالى في خلقه آيات كثيرة تدل عليه، ومن ذلك: آية الليل والنهار وما يجري عليهما من تغيير: تعاقباً وطولاً وقصراً. فحصول هذا التغيير العجيب في الليل والنهار- على هذا النظام البديع الذي لم يطرأ عليه اختلال منذ أن خلق الله هذه الآية العظيمة- برهانٌ ساطع، ودليل قاطع للعقول السليمة على عظم قدرة الله جل جلاله، وعلى كونه الإله الحق الذي لا تجوز العبادة إلا له.

تتعاقب الأمم والدهور، وقدرة القدير تعالى مازالت ظاهرة في آية اختلاف الليل والنهار، تدعو ذوي الألباب إلى التفكر فيها، لعلها تهدي العقول الحائرة، وتفتح القلوب المقفلة لولوج نور الحق إليها، وتزيد الذين آمنوا إيماناً، وتستحث بِطاءَ العباد على الإسراع إلى طاعة القادر عز وجل.

وأما الآبقون عن سيدهم الكريم فعليهم أن يؤبوا؛ إذ ليسوا بمعجزين ولا فائتين القادرَ على كل شيء، ولو تدبروا بصدق في قدرة ربهم في نظام الليل والنهار لفروا إليه.

قال تعالى: {وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ }[فصلت٣٧].

"وهذا استدلال بهذا الصنع العظيم على أنه تعالى منفرد بفعله، فهو دليل إلهيته دون غيره؛ لأن من يفعل ما لا يفعله غيره هو الإله الحق، وإذا كان كذلك لم يجز أن يتعدد؛ لكون من لا يفعل مثل فعله ناقص القدرة، والنقص ينافي الإلهية كما قال {أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لا يَخْلُقُ} [النحل: ١٧]"(١).

وقال تعالى: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُوْلِي الألْبَابِ }[آل عمران١٩٠]. والآية آية اعتبار وتنبيه، ولفظة الاختلاف تعم تعاقب الليل والنهار وكونهما خلفة، وما يتعاورانه من الزيادة والنقص وغير ذلك من لواحق سير الشمس، وبحسب أقطار الأرض. فهذا الاختلاف في حال الليل والنهار وحال أهلهما فيهما فيه دلالة وحجج على أن الذي له العبادة خالصاً بغير شريك، هو الذي خلق الليل والنهار(٢).

### المطلب الثاني: آثار اختلاف الليل والنهار في حياة الإنسان:

ليس فيما جعل الله من تغيير دقيق في الليل والنهار شيءٌ من العبث، بل كان ما كان لحكم بالغة، وآثار حسنة تعود على

---

(١ ) التحرير والتنوير، لابن عاشور (٢٥/ ٦٥).

(٢ ) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لابن عطية (٣/ ١٢٠)، تفسير الطبري (١٥/ ١٤٤).

الحياة والأحياء بالنفع والفائدة.

فمن ذلك:

**١- أن التفكر في هذه الآية وسيلة من وسائل معرفة الله تعالى:**

قال تعالى: {وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ }[المؤمنون٨٠].

أي: تدبير الليل والنهار في الزيادة والنقصان، وجعلهما مختلفين يتعاقبان، ويختلفان في السواد والبياض، { أَفَلَا تَعْقِلُونَ}، أي: ما ترون من صنعه فتعتبروا أن الذي فعل هذه الأفعال ابتداء من غير أصل، لا يمتنع عليه إحياء الأموات بعد فنائهم، وإنشاء ما شاء إعدامه بعد إنشائه(١).

وقال تعالى: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُوْلِي الألْبَابِ }[آل عمران١٩٠].

فخلق السماوات والأرض وجريان اختلاف الليل والنهار على هذه الدقة والإحكام علامات كونية قدرية، يعرف بها أصحاب العقول السليمة أن خالقها هو الرب المعبود وحده جل وعلا(٢).

إن الإنسان حينما يخلد إلى التأمل في هذه الآية العظيمة يجد فيها دعوة ملحة إلى تقوى الله والإنابة إليه، وهجر الخطايا التي تحول بينه وبين رضوان الله. بل إن التقوى تدعو صاحبها إلى النظر في هذه الآية؛ ليزداد خيراً إلى خيره. قال تعالى: {إِنَّ فِي اخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ }[يونس٦].

**٢- معرفة حساب الأيام والشهور والفصول والأعوام:**

وهذه الثمرة تترتب عليها مصالح الدنيا والدين، فمعاش الناس لا ينتظم إلا بمعرفة حساب الزمن بدءاً وانتهاء، وكذلك هناك أمور دينية في العبادات والمعاملات تبنى على معرفة اختلاف الليل والنهار، مثل: وقت صلاة الجمعة، ودخول رمضان وخروجه، وأشهر الحج، والعِدد، والإيلاء، والطلاق المعلق بأيام أو أشهر، وحلول الديون والإجارات وغير هذا، ولولا ذلك ، لما علم أحد حساب الأوقات ولتعطلت بعض الأمور في هذه الحياة.

قال تعالى: {وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِن نِّسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ وَأُوْلَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْراً }[الطلاق٤].

وقال: {وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْراً فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ }[البقرة٢٣٤ ](٣)

وفي هذا الأثر الثاني يقول الله تعالى: {وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُواْ فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً }[الإسراء١٢]

**٣- إمكان تدارك ما فات من الخير في ليل أو نهار:**

فالإنسان قد تدهمه أشياء طارئه في وقت من الأوقات فتشغله عن وردٍ أو عمل، فيأتي وقت عقبه ليستدرك ما فاته.

---

(١ ) تفسير الخازن (٥/ ٤٢)، تفسير الطبري (١٩/ ٦٢).

(٢ ) أضواء البيان (٣/ ٢٢٣).

(٣ ) أضواء البيان (٣/ ٥٦)، تفسير الخازن (٤/ ١٥٢).

قال تعالى: {وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُوراً }[الفرقان٦٢].

قال ابن عباس: "جعل كل واحد منهما يخلف صاحبه فيما يحتاج أن يعمل فيه، فمن فرط في عمل في أحدهما قضاه في الآخر" . وتفيد الآية معنى: ليتدارك الناسي ما فاته في الليل بسبب غلبة النوم أو التعب، فيقضيه في النهار، أو ما شغله عنه شواغل العمل في النهار فيقضيه بالليل عند التفرغ، فلا يرزؤه ذلك ثواب أعماله، وهذا الاختلاف جعل نعمة كذلك لمن أراد أن يتقرب إلى الله شكراً له بصلاة، أو صيام فيكون الليل أسعد ببعض ذلك، والنهار أسعد ببعض. جاء رجل إلى عمر بن الخطاب فقال: " فاتتني الصلاة الليلة؟ فقال: أدرك ما فاتتك من ليلتك في نهارك؛ فإن الله عز وجل جعل الليل والنهار خلفة"(١) .

وقد كان رسول الله صلى الله عليه و سلم ( إذا فاتته الصلاة من الليل من وجع أو غيره صلى من النهار ثنتي عشرة ركعة) (٢).

**٤- حصول تمام النعمة على الخلق بإيجاد زمن للعمل، وزمن للراحة حتى تستمر الحياة والإنتاج:**

فالليل مظلم مناسب للهدوء والراحة، والنهار مضيئ مناسب للحركة والاشتغال بالمعاش في الدنيا. فيسعى الناس في معاشهم في النهار، ويستريحون من تعب العمل بالليل. ولو كان الزمن كله ليلاً لصعب عليهم العمل في معاشهم، ولو كانكله نهاراً لأهلكهم التعب من دوام العمل. فكما أن الليل والنهار آيتان من آياته، فهما أيضاً نعمتان من نعمه جل وعلا. قال تعالى: {قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاء أَفَلَا تَسْمَعُونَ }القصص٧١ {قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ }القصص٧٢ {وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ }القصص٧٣ (٣). "فأخبر جل وعلا أنه لو جعل النهار دائماً مستمراً إلى يوم القيامة، لأضر ذلك بهم، ولتعبت الأبدان وكلّت من كثرة الحركات والأشغال؛ ولهذا قال: { من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه }أي: تستريحون من حركاتكم وأشغالكم. { ومن رحمته } أي: بكم { جعل لكم الليل والنهار } أي: خلق هذا وهذا { لتسكنوا فيه } أي: في الليل، { ولتبتغوا من فضله } أي: في النهار بالأسفار والترحال، والحركات والأشغال، وقوله: { ولعلكم تشكرون } أي: تشكرون الله بأنواع العبادات في الليل والنهار، ومن فاته شيء بالليل استدركه بالنهار، أو بالنهار استدركه بالليل، كما قال تعالى: { وهو الذي جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا } [ الفرقان: ٦٢ ]"(٤).

---

(١ ) اللباب في علوم الكتاب، لابن عادل (١٤/ ٥٦١-٥٦٢)، التحرير والتنوير، لابن عاشور (١٩/ ٨٦).

(٢ ) رواه مسلم (١/ ٥١٢).

(٣ ) أضواء البيان (٣/ ٥٦).

(٤ ) تفسير ابن كثير (٦/ ٢٥٢) بتصرف.

## المبحث الثالث: ما يعتري الإنسانَ من الضعف والقوة

**وفيه مطلبان:**

**المطلب الأول: اختلاف أحوال الإنسان ضعفاً وقوة**

**المطلب الثاني: حِكَم تغيير أحوال الإنسان ضعفاً وقوة**

### المطلب الأول: اختلاف أحوال الإنسان ضعفاً وقوة

الإنسان مخلوق ضعيف، وتبدأ هذه الصفة معه من أصل تكوينه، فقد خلقه الله من نطفتي أبيه وأمه، قال تعالى: { أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ}، وقال: {إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً }[الإنسان٢].

فقوله: { مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ} "أي: أخلاط من ماء الرجل وماء المرأة"(١).

ثم تمر به عملية التغيير خلقاً بعد خلق، فيصير بعد النطفة علقة، فمضغة، ثم يتكون خلقه بالعظام واللحم، ثم خرج من بطن أمه بعد ما خلق فكان من بدو خلقه الآخر أن استهل، ثم كان من خلقه أن دُلّ على ثدي أمه، ثم كان من خلقه أن علم كيف يبسط رجليه، إلى أن قعد، إلى أن حبا، إلى أن قام على رجليه، إلى أن مشى، إلى أن فطم، فعلم كيف يشرب ويأكل من الطعام، إلى أن بلغ الحلم، إلى أن بلغ أن يتقلب في البلاد (٢).

قال تعالى: {ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَاماً فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْماً ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ }[المؤمنون١٤].

وبعد هذه المراحل العمرية يصل الإنسان إلى سن الشباب والرجولة، وهما مرحلتا استحكام القوة والقدرة فيسعى في الأرض ليكتسب فيها، ويعمل لدنياه وأخراه خيراً أو شراً.

غير أن أكثر الناس إذا وصل إلى القوة والتمكن نسي ضعفه وعجزه وبدايته، فصار يشرك بالله، ويتكبر عليه، وينكر مصيره إليه، ويسطو بقوته بين الخلق.

لذلك يذّكر الله تعالى هؤلاء الغافلين بداءتهم، فيقول تعالى: {خَلَقَ الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ }[النحل٤].

وقال: {وَيَقُولُ الْإِنسَانُ أَئِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيّاً }مريم٦٦ {أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئاً }[مريم٦٧].

والعاقل إذا تذكر بداءته خضع لربه واستكان، وعمل بما يرضي من أنشأه وأقدره وقواه.

فإذا مد الله عمر الإنسان جاءه التغيير، فرجع إليه الضعف الأول حين كان جنيناً ثم طفلاً رضيعاً، عاجزاً لا حول له ولا قوة، فصار بعد القوة ضعيفاً، وبعد القدرة عاجزاً، وبعد الكمال البدني والنفسي والعقلي والعلمي ناقصاً، فنزل به الشيب،

---

(١ ) أضواء البيان (٢/ ٣٣٠).

(٢ ) الكشف والبيان، للثعلبي (٧/ ٤٢).

والشيخوخة، والهرم، وصعوبة الحركة والكلام، وكثرة النسيان، وعسر الفهم.

قال تعالى:{وَاللّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لاَ يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئاً إِنَّ اللّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ }[النحل٧٠].

وقال:{اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفاً وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ }[الروم٥٤]. وقال: {وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ }[يس٦٨].

أي: " نقلبه فيه فنخلقه على عكس ما خلقناه من قبل، وذلك أنا خلقناه على ضعف في جسده، وخلو من عقل وعلم، ثم جعلناه يتزايد، وينتقل من حال إلى حال، ويرتقي من درجة إلى درجة، إلى أن يبلغ أشده ويستكمل قوته، ويعقل ويعلم ما له وما عليه، فإذا انتهى نكسناه في الخلق فجعلناه يتناقص، حتى يرجع في حال شبيهة بحال الصبي في ضعف جسده، وقلة عقله، وخلوه من العلم، كما ينكس السهم فيجعل أعلاه أسفله" (١).

## المطلب الثاني: حِكَم تغيير أحوال الإنسان ضعفاً وقوة

حينما يتأمل الإنسان ورود هذا التغير على عمره يلمس من خلاله لله تعالى في ذلك أسراراً وحِكماً؛ فمعرفة هذه الحِكم والأسرار تنقل الإنسان عن النظر المجرد في هذا المظهر الإنساني إلى الغوص في غاياته الحميدة، التي تجعله يؤوب إلى رشده فيصرف مرحلة قوته فيما ينفعه في حياته الدنيوية والأخروية.

فمن تلك الحكم:

**١- التنبيه على قدرة الله التامة على بعث الموتى وإعادتهم:**

لقد ضرب الله أمثلة عديدة، وذكر براهين كثيرة في القرآن الكريم على قدرته عز وجل على إحيائه الموتى، ومثول المكلفين بين يديه للحساب؛ ليكون ذلك حجة عقلية تهدي المنكرين والجاحدين لهذه الحقيقة.

وقد كان من تلك البراهين القاطعة: ذكر التغيير الذي يجري على الإنسان في هذه الحياة، حيث يبدأ بالضعف ثم القوة، ثم يعود إلى الضعف مرة أخرى.

وهذا مظهر من مظاهر قدرة الله تعالى على تغيير أحوال الإنسان، وليس من مظاهر الطبيعة في شيء، ويدل على هذه الحقيقة ما ذكره الله في كتابه.

قال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاء إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّى وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاء اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ }[الحج٥].

وهذا الذي ذكره جل وعلا في هذه الآية الكريمة من الاستدلال على كمال قدرته، على بعث الناس بعد الموت، وعلى كل شيء ينقله الإنسان من طور إلى طور، من تراب، ثم من نطفة، ثم من علقة إلى آخر الأطوار المذكورة، ذكره جل وعلا في

(١) تفسير الكشاف(٤/ ٢٨).

مواضع من كتابه، مبيناً أنه من البراهين القطعية على قدرته، على البعث وغيره(١).

وهناك مظهر آخر من مظاهر قدرة الله في هذا التغيير وهو: قدرته تعالى على مسخ الكفار في الدنيا إلى غير خلقهم، كما قدر على تنكيس الإنسان إذا هرم(٢).

قال تعالى: {وَلَوْ نَشَاء لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيّاً وَلَا يَرْجِعُونَ }يس٦٧ {وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ }[يس٦٨].

**٢- تذكير الإنسان بحقيقة نفسه، وتبدّل أحواله:**

إذا تفكر الإنسان في بدئه ونهايته، وعدم استقرار أحواله عرف حقيقة نفسه، وحاجته إلى ربه، فتواضع، وسلك سبل النجاة والرضا في حالي قوته وضعفه.

لكن لما تغافل عن هذه الحقيقة جهل نفسه، وحاد عن أداء حق ربه، وحاول أن يستغني بنفسه، وينكر رجوعه إلى بارئه إنْ قولاً وإنْ فعلاً.

قال تعالى: {أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ{٧٧} وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ{٧٨} قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ{٧٩}[يس ٧٧-٧٩].

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: جاء العاص بن وائل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعظم حائل ففته فقال: يا محمد، أيبعث الله هذا بعدما أرم ؟! قال: (نعم، يبعث الله هذا، ثم يميتك، ثم يحييك، ثم يدخلك نار جهنم)، قال فنزلت الآيات:{ أولم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين }(٣).

**٣- الإشارة إلى زوال الدنيا وفناءِ كل ما عليها:**

خلقت الدنيا وما عليها لمدة زمنية محدودة، ثم يعقبها الفناء والنقلة إلى دار البقاء، قال تعالى: {كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ } {وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ }الرحمن٢٦-٢٧].

وكل ما على الأرض يشير إلى التحول وعدم الديمومة، وأن هناك مآلاً تصير إليه مظاهر هذه الحياة الفانية. فمن تلك البراهين: هذه التغيرات التي يمر بها الإنسان، حيث يبدأ من لا شيء إلى شيء ضعيف ثم يقوى ثم يعود إلى ضعفه ووهنه.

قال تعالى: {ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَاماً فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْماً ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ }المؤمنون١٤ {ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ }المؤمنون١٥ {ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ }[المؤمنون١٦].

"أي: بعد ذلك التكوين العجيب والنماء المحكم أنتم صائرون إلى الموت الذي هو تعطيل أثر ذلك الإنشاء، ثم مصيره إلى الفساد والاضمحلال"(٤).

وهذا يذكّر الإنسانَ بأن حياته في الدنيا إلى فناء، وأنه صائر إلى دار بقاء، فعليه أن يعرض عن الفاني، وينشغل بالباقي.

---

(١ ) أضواء البيان (٤/ ٢٧٠).

(٢ ) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزى (٢/ ٤١٤).

(٣ ) رواه الحاكم (٢/ ٤٦٦)، وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

(٤ ) التحرير والتنوير، لابن عاشور (١٨/ ٢٢).

**٤- حث الإنسان على الاستعداد ليوم المعاد:**

حينما يتأمل الإنسان هذا التبدل المتسارع الذي يسعى إليه سعياً حثيثاً، ويرى قواه تتجه نحو الانحدار يوماً بعد يوم يدعوه ذلك إلى إعداد العمل الصالح الذي يسعده جسداً وروحاً في الآخرة.

فهو يرى ذلك نذيراً يجب سماع موعظته، والاستجابة لدعوته، قبل التوبيخ على عدم إجابته يوم القيامة، قال تعالى: {وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ }[فاطر٣٧].

"أي: أو ما عشتم في الدنيا أعماراً لو كنتم ممن ينتفع بالحق لانتفعتم به في مدة عمركم؟"(١).

والنذير في الآية: الشيب، على أحد تفسيرات الآية(٢)، وهو نوع من التغيير الذي يفد على الإنسان مؤذناً له بالوداع.

أما الغافل الذي تتواتر عليه السنون، وتتابع عليه مراحل التغيير العمرية فإنه غاطّ في نومه لا يستيقظ إلا عندما يداهمه ملك الموت على غير استعداد، فيطلب عند ذلك الرجعة؛ لتهيئة زاد النجاة، ولكن هيهات هيهات.

قال تعالى: حَتَّى إِذَا جَاء أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ{٩٩} لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ{١٠٠}[المؤمنون ٩٩-١٠٠].

---

(١ ) تفسير ابن كثير (٦/ ٥٥٣).

(٢ ) زاد المسير في علم التفسير، لابن الجوزي (٦/ ٤٩٤)، تفسير البيضاوي (٤/ ٤٢٢)، تفسير الخازن (٥/ ٣٠٥).

## الفصل الثالث: التغيير قبيل القيامة وبعدها

**وفيه مبحثان:**

### المبحث الأول: التغيير في السماوات والأرض قبيل القيامة وبعدها

**وفيه مطلبان:**

**المطلب الأول: التغيير في مظاهر الأرض**

**المطلب الثاني: التغيير في مظاهر السماء**

**المبحث الثاني: التغيير في أحوال الناس يوم القيامة، وفيه أربعة مطالب:**

**المطلب الأول: التغيير في أحوال الناس عند حدوث القيامة**

**المطلب الثاني: التغيير في أحوال الناس في عرصات القيامة**

**المطلب الثالث: التغيير في أحوال الناس في الجنة**

**المطلب الرابع: التغيير في أحوال الناس في النار**

## المبحث الأول: التغيير في السماوات والأرض قبيل القيامة وبعدها

هذه الحياة الدنيا لها ميقات معلوم تنتهي إليه، وتزول كل مظاهرها إلى الفناء، لتبدأ عقبها حياة جديدة تتسم بالأبدية، وتغيرِّ مظاهر الحياة الأولى.

وما زالت هذه الحياة القصيرة تسير سيراً حثيثاً بمن فيها إلى بلوغ الأجل المحتوم العام الذي تتبدل فيه مظاهر الكون في السماوات والأرض بأحداث عظام تدل على قدرة الله وقوته، وعلمه وحكمته، وكون كل شيء تحت تصرفه، لا يخرج شيء عن ذلك قِيْد أنملة.

وقد قسمت هذا الفصل إلى مطلبين:

**المطلب الأول: التغيير في مظاهر الأرض**

**المطلب الثاني: التغيير في مظاهر السماء**

## المطلب الأول: التغيير في مظاهر الأرض

**وفيه فرعان:**

**الفرع الأول: النفخ في الصور**

**الفرع الثاني: تبّدل الأرض**

## الفرع الأول: النفخ في الصور

**وفيه مسألتان:**

**المسألة الأولى: حدوث النفخ**

**المسألة الثانية: عدد النفخات**

### المسألة الأولى: حدوث النفخ(١)

هذه الحياة التي يعيشها الناس في الأرض في حركة متواصلة، لا تعرف السكون: ذهاب ومجيء، بناء وعمران، تكاثر وازدياد؛ سيأتي عليها يوم تتوقف فيه، وتخلد إلى السكون والوقوف حينما يأذن الله بانتهاء الحياة الدنيا، وابتداء الحياة الأخرى، فيكتب الفناء على أهل الأرض والسماء، فلا يبقى إلا الله جل جلاله، قال تعالى: ،(كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ) [القصص: ٨٨ ].

ويأتي ذلك اليوم بنفخة إسرافيل الأولى في الصور فينتهي كل شيء أراد الله أن ينتهي.

قال ابن كثير: " أول شيء يطرق أهلَ الدنيا بعد وقوع أشراط الساعة: نفخةُ الفزع ، وذلك أن الله سبحانه وتعالى يأمر إسرافيل فينفخ في الصور نفخة الفزع، فينظر لها فلا يبقى أحد من أهل الأرض إلا أصغى لِيتاً ورفع ليتاً،أي: رفع صفحة عنقه وأمال الأخرى يستمع هذا الأمر العظيم، الذي قد هال الناسَ وأزعجهم عما كانوا فيه من أمر الدنيا، وشغلهم بها، وفي وقوع هذا الأمر العظيم قال الله تعالى: (( وَيَوْمَ يُنْفخُ فِي الصُورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّموَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْض إِلاَّ مَنْ شَاءَ اللهُ وَكُلٌّ أتُوه دَاخِرِينَ))"(٢).

وقد حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك الزمن الذي ستعقبه النفخة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ( يخرج الدجال في أمتي فيمكث أربعين- لا أدري أربعين يومًا أو أربعين شهراً أو أربعين عامًا – فيبعث الله عيسى ابن مريم كأنه عروة بن مسعود، فيطلبه فيهلكه، ثم يمكث الناس سبع سنين ليس بين اثنين عداوة، ثم يرسل الله ريحًا باردة من قبل الشأم فلا يبقى على وجه الأرض أحد في قلبه مثقال ذرة من خير أو إيمان إلا قبضته، حتى لو أن أحدكم دخل في كبد

---

(١ ) هذا المظهر يحدث لأهل السماوات ولأهل الأرض إلا من شاء الله، كما دلت عليه الآيات، لكن جعلته في هذا الفرع دون الفرع الثاني؛ لكون أثره في الأرض أظهر وأكثر.

(٢ ) النهاية في الفتن والملاحم، لابن كثير (١/ ١٣٣).

جبل لدخلته عليه حتى تقبضه قال: سمعتها من رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: فيبقى شرار الناس في خفة الطير وأحلام السباع لا يعرفون معروفًا ولا ينكرون منكراً فيتمثل لهم الشيطان فيقول: ألا تستجيبون؟ فيقولون: فما تأمرنا؟ فيأمرهم بعبادة الأوثان وهم في ذلك دارٌّ رزقهم حسنٌ عيشهم، ثم ينفخ في الصور فلا يسمعه أحد إلا أصغى ليتًا ورفع ليتًا، قال: وأول من يسمعه رجل يلوط حوض إبله، قال: فيصعق ويصعق الناس ثم يرسل الله- أو قال: ينزل الله – مطراً كأنه الطل أو الظل، فتنبت منه أجساد الناس ثم ينفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون ثم يقال: يا أيها الناس، هلمّ إلى ربكم وقفوهم إنهم مسئولون)[1].

قال ابن كثير في قوله تعالى: {ما ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون} أي: ما ينتظرون إلا صيحة واحدة، وهذه –والله أعلم–نفخة الفزع، ينفخ في الصور نفخة الفزع، والناس في أسواقهم ومعايشهم يختصمون ويتشاجرون على عادتهم، فبينما هم كذلك إذ أمر الله تعالى إسرافيلَ فنفخ في الصور نفخة يطولها ويمدها، فلا يبقى أحد على وجه الأرض إلا أصغى ليتًا ورفع ليتًا –وهي صفحة العنق–يتسمع الصوت من قبل السماء. ثم يساق الموجودون من الناس إلى محشر القيامة بالنار، تحيط بهم من جوانبهم؛ ولهذا قال: { فلا يستطيعون توصية } أي: على ما يملكونه، الأمر أهم من ذلك، { ولا إلى أهلهم يرجعون }"[2] .

ثم بعد ذلك بمدة، يأمره تعالى فينفخ في الصور، فيصعق من في السموات ومن في الأرض، إلا من شاء الله، ثم يأمره، فينفخ فيه أخرى، فيقوم الناس لرب العالمين.

وقال تعالى: { وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمواتِ وَمَنْ فِي الأَرْض إِلاَّ مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثمَّ نَفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَام يَنْظُرُونَ وأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيء بِالنَّبِيّينَ والشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقّ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ وَوُفيَتْ كُلّ نَفْس مَا عَمِلتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ }.

وهذا التغيير بالنفخ في الصور طليعة لكل مظاهر التغيير –الآتية– في السماوات والأرض.

**المسألة الثانية: عدد النفخات:**

اختلف العلماء في عدد النفخات في الصوْر إلى قولين:

**القول الأول:** أنهما نفختان: نفخة الصعق، وهي لفناء من كان حيًّا على الأرض، ونفخة البعث وهي لنشر كل مَيْتٍ.

ويدل لهذا قوله تعالى: (وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ) .

وقال تعالى: (مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ . فَلا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ . وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ) .

فقوله تعالى: (مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ)، هذه النفخة الأولى .

وقوله تعالى: (وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ) هذه هي النفخة الثانية.

---

(١ ) رواه مسلم (٤/ ٢٢٥٨).

(٢ ) تفسير ابن كثير (٦/ ٥٨١).

ودليل ذلك من السنة حديث أبي هريرة أن النبي – صلى الله عليه وسلم – قال:( ما بين النفختين أربعون)، قالوا: يا أبا هريرة، أربعون يوماً ؟ قال: أبيت. قالوا: أربعون شهراً ؟ قال: أبيت. قالوا: أربعون سنة؟ قال: أبيت)[1]. وهذا تصريح بأنهما نفختان.

وأصحاب هذا القول كأنهم جعلوا الفزع والصعق في نفخة واحدة، وأن نفخة الفزع إنما تكون راجعة إلى نفخة الصعق؛ لأن الأمرين لازمان لهما، أي: فزعوا فزعاً ماتوا منه، أو تكون راجعة إلى نفخة البعث، أي: يحيون فزعين يقولون:{من بعثنا من مرقدنا}، ويعاينون من الأمور ما يهولهم ويفزعهم.

وقد رجح هذا القول: القرطبي المفسر، وابن حجر العسقلاني.

**القول الثاني**: أنها ثلاث نفخات، الأولى: نفخة الفزع، والثانية: نفخة الصعق، والثالثة: نفخة القيام لرب العالمين.

واحتج أصحاب هذا القول بقوله تعالى: (وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ)، وهذه نفخة الفزع، وهي التي يتغير بها هذا العالم ويفسد نظامه، وإنما يحصل الفزع بشدة ما يقع من هول تلك النفخة، وهذا النفخة هي المشار إليها في قوله تعالى: { وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ }، أي: من رجوع ومردٍّ.

وبقوله تعالى: (وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ ... )، وهذه نفخة الصعق، وهي التي بها هلاك كل شيء. وقالوا: إن الفزع مغاير للصعق.

وبقوله تعالى: (فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ)، وهذه نفخة البعث والنشور، ورجح هذا القول: ابن عطية الأندلسي.

ويبدو أن القول الأول هو الراجح، والله أعلم (٢) .

## الفرع الثاني: تبّدل الأرض

**وفي هذا الفرع مسألتان:**

**المسألة الأولى: المراد بتبدل الأرض**

**المسألة الثانية: مِن مظاهر تبدل الأرض**

### المسألة الأولى: المراد بتبدل الأرض:

ذكر الله تعالى أن الأرض والسماوات يطرأ عليهما التغيير، وقد جاء ذلك مجملاً في قوله تعالى: {يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ }[إبراهيم٤٨].

وقد اختلف العلماء في المراد بهذا التبدل الذي يكون على الأرض على أقوال:

**القول الأول**: أن تبدّل الأرض التي عليها الناس اليوم في دار الدنيا غير هذه الأرض، فتصير أرضاً بيضاء كالفضة، نقية لم

---

(١ ) رواه البخاري (٤/ ١٨١٣)، ومسلم (٤/ ٢٢٧٠).

(٢ ) مجموع الفتاوى، لابن تيمية (١٦/ ٣٥)، تفسير الطبري (١١/ ٤٦٢)، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لابن عطية (٤/ ٣٢٣)، تفسير البحر المحيط، لأبي حيان (٧/ ٤٢٣)،تفسير القرطبي (١٣/ ٢٤٠)، فتح الباري (٦/ ٤٤٦)، بحر العلوم، للسمرقندي (٢/ ٥٩٤)، تفسير الثعالبي (٣/ ١٦٨).

يَسِل فيها دم، ولم يُعْمَل فيها خطيئة، يسمعهم الداعي، وينفُذهُم البصر، حُفاة عُراة قياماً.

**القول الثاني**: أن تبدّل هذه الأرض ناراً.

**القول الثالث**: أن يبدّلها الله خبزة بيضاء يأكل المؤمن من تحت قدميه.

لقول النبي صلى الله عليه و سلم: ( تكون الأرض يوم القيامة خبزة واحدة يتكفؤها الجبار بيده كما يكفأ أحدكم خبزته في السفر نزلاً لأهل الجنة )(١).

وهذه الأقوال الثلاثة ترجع إلى قولين:

**الأول**: أن يكون التغيير لذاتها وصفاتها معًا.

ويدل لهذا القول حديث سهل بن سعد قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: ( يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كقرصة نقي)(٢) قال سهل أو غيره: ليس فيها معلم لأحد(٣).

قال ابن حجر: "والحكمة في الصفة المذكورة: أن ذلك اليوم يوم عدل وظهور حق، فاقتضت الحكمة أن يكون المحل الذي يقع فيه ذلك طاهراً عن عمل المعصية والظلم؛ وليكون تجلّيه سبحانه على عباده المؤمنين على أرض تليق بعظمته، ولأن الحكم فيه إنما يكون لله وحده، فناسب أن يكون المحل خالصًا له وحده. وفيه إشارة إلى أن أرض الدنيا اضمحلت وأعدمت، وأن أرض الموقف تجدّدت"(٤).

**الثاني**: أن يكون التغيير لصفاتها وهيئتها فقط مع بقاء ذاتها، وهو أن تدك جبالها وتسوّى وِهادُها وأوديتها ، وتذهب أشجارها وجميع ما عليها من عمارة وغيرها، لا يبقى على وجهها شيء إلا ذهب، ويرتفع منخفضها، وينخفض مرتفعها وتمدّ مد الأديم.

قال ابن حجر: "وأما من ذهب إلى أن التغيير إنما يقع في صفات الأرض دون ذاتها فمستنده: ما أخرجه الحاكم عن عبد الله بن عمرو قال: (إذا كان يوم القيامة مدت الأرض مدّ الأديم وحشر الخلائق). ومن حديث جابر رفعه: ( تمد الأرض مد الأديم، ثم لا يكون لابن آدم منها إلا موضع قدميه)، ورجاله ثقات، إلا أنه اختلف على الزهري في صحابيه. ووقع في تفسير الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس في قوله تعالى: {يوم تبدل الأرض غير الأرض} قال: يزاد فيها وينقص منها،

---

(١ ) رواه البخاري (٥/ ٢٣٨٩)، ومسلم (٤/ ٢١٥١).

(٢ ) قال ابن حجر: قوله: "أرض عفراء" قال الخطابي: العفر بياض ليس بالناصع وقال عياض: العفر بياض يضرب إلى حمرة قليلاً ومنه سمي عفر الأرض وهو وجهها. وقال ابن فارس: معنى عفراء: خالصة البياض. وقال الداودي: شديدة البياض. كذا قال، والأول هو المعتمد. قوله: "كقرصة النقي" بفتح النون كسر القاف أي: الدقيق النقي من الغش والنخال قاله الخطابي. قوله: "قال سهل أو غيره: ليس فيها معلم لأحد" هو موصول بالسند المذكور وسهل هو راوي الخبر وأو للشك والغير المبهم لم أقف على تسميته. ووقع هذا الكلام الأخير لمسلم من طريق خالد بن مخلد عن محمد بن جعفر مدرجًا بالحديث ولفظه: "ليس فيها علم لأحد" ومثله لسعيد بن منصور عن ابن أبي حازم عن أبيه والعلم والمعلم بمعنى واحد قال الخطابي: يريد أنها مستوية. والمعلم –بفتح الميم واللام بينهما مهملة ساكنة– هو الشيء الذي يستدل به على الطريق. وقال عياض: المراد أنها ليس فيها علامة سكنى ولا بناء ولا أثر ولا شيء من العلامات التي يهتدي بها في الطرقات كالجبل والصخرة البارزة". فتح الباري (١١/ ٣٧٥).

(٣ ) رواه البخاري (٥/ ٢٣٩٠)، ومسلم (٤/ ٢١٥٠).

(٤ ) فتح الباري (١١/ ٣٧٥).

ويذهب آكامها وجبالها وأوديتها وشجرها وتمد مد الأديم العكاظي، وعزاه الثعلبي في تفسيره لرواية أبي هريرة، وحكاه البيهقي عن أبي منصور الأزهري، وهذا وإن كان ظاهره يخالف القول الأول، فيمكن الجمع بأن ذلك كله يقع لأرض الدنيا، لكن أرض الموقف غيرها، ويؤيده ما وقع في الحديث الذي قبله أن أرض الدنيا تصير خبزة، والحكمة في ذلك: ما تقدم أنها تعد لأكل المؤمنين منها في زمان الموقف ثم تصير نزلاً لأهل الجنة" (١).

وقال أصحاب هذا القول: والتبدل صفة مضافة إليها، وعند حصول الصفة لا بد وأن يكون الموصوف موجوداً، فلما كان الموصوف بالتبدل هو هذه الأرض وجب كون هذه الأرض باقية عند حصول ذلك التبدل، ولا يمكن أن تكون هذه الأرض باقية مع صفاتها عند حصول ذلك التبدل، وإلا لامتنع حصول التبدل، فوجب أن يكون الباقي هو الذات، فثبت أن هذه الآية تقتضي كون الذات باقية(٢).

وهناك من أراد الجمع بين القولين فذكر أن الأرض تبدل أولاً صفتها مع بقاء ذاتها، ثم بعد ذلك تبدل تبديلاً ثانياً، وهو أن تبدل ذاتها بغيرها(٣).

قال الطبري: "وأولى الأقوال في ذلك بالصواب: قول من قال: معناه: يوم تبدّل الأرض التي نحن عليها اليوم يوم القيامة غيرها ، وكذلك السماوات اليوم تبدّل غيرها، كما قال جلّ ثناؤه، وجائز أن تكون المبدلة أرضاً أخرى من فضة، وجائز أن تكون ناراً، وجائز أن تكون خبزاً، وجائز أن تكون غير ذلك، ولا خبر في ذلك عندنا من الوجه الذي يجب التسليم له أيّ ذلك يكون، فلا قول في ذلك يصحّ إلا ما دلّ عليه ظاهر التنزيل"(٤)(٥).

وكما اختلف العلماء في المراد بهذا التغيير الذي يصيب الأرض اختلفوا في وقته الذي يحدث فيه، فقال قوم: ظاهر الآيات: أنه قبل البعث والحشر، فلا يقع البعث والحشر، إلا على الأرض المبدلة؛ كقوله {وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ} [الكهف: ٤٧]، وقوله:{وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفاً فَيَذَرُهَا قَاعاً صَفْصَفاً} [طه: ١٠٥ . ١٠٦].. ثم قال {يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ} [طه: ١٠٨]. وقوله: {إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ} [الواقعة: ١] ، ثم قال: {إِذَا رُجَّتِ الأَرْضُ رَجّاً وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسّاً} [الواقعة: ٤ . ٥](٦)

وقال قوم: إنه بعد النفخة الثانية؛ لحديث ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم حدثه قال: كنت قائمًا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاء حبر من أحبار اليهود فقال: السلام عليك يا محمد، فدفعته دفعة كاد يصرع منها فقال: لمَ تدفعني؟ فقلت: ألا تقول: يا رسول الله، فقال اليهودي: إنما ندعوه باسمه الذي سماه به أهله، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ( إن اسمي محمد الذي سماني به أهلي، فقال اليهودي: جئت أسألك، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم:

---

(١ ) فتح الباري (١١/ ٣٧٦).

(٢ ) تفسير الرازي : مفاتيح الغيب (١٩/ ١١٦).

(٣ ) تفسير الخازن (٤/ ٥٤).

(٤ ) تفسير الطبري (١٧/ ٥٢).

(٥ ) تفسير الخازن (٤/ ٥٣)، تفسير الرازي : مفاتيح الغيب (١٩/ ١١٥)تفسير الطبري (١٧/ ٤٥-٥٢)، فتح الباري (١١/ ٣٧٥)، كشف المشكل من حديث الصحيحين، لابن الجوزي (ص: ١٢٥٧).

(٦ ) البحر المديد، لابن عجيبة (٣/ ٥٣٥).

أينفعك شيء إن حدثتك ؟ قال: أسمع بأذني، فنكت رسول الله صلى الله عليه وسلم بعود معه فقال: سل، فقال اليهودي: أين يكون الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم هم في الظلمة دون الجسر...)[1].

وجمع بعضهم بين القولين فقال: إن التبديل يقع مرتين: مرة قبل النفخة الأولى، ومرة أخرى بعد النفخة الثانية (٢)، فالله أعلم.

## المسألة الثانية: من مظاهر تبدل الأرض

هناك تغييرات في مظاهر الأرض تحدث عند تبدلها، من أبرزها-كما ذكر القرآن الكريم-:

**أولاً- زلزلة الأرض:**

**حدوث الزلزلة:**

هذا الحدث الهائل حقيقته: تحرك عنيف في جهة من سطح الأرض من أثر ضغط مجاري الهواء الكائن في طبقات الأرض القريبة من ظاهر الأرض، وهي من الظواهر الأرضية المرعبة ينشأ عنها تساقط البناء وقد ينشأ عنها خسف الأشياء في باطن الأرض، ...وهي حاصلة عند إشراف العالم الدنيوي على الفناء وفساد نظامه (٣).

إن هذا التغيير الذي سيحدث للأرض مشهد عظيم، يدعو إلى العبرة والاتعاظ، حينما يخرب كل عامر، ويسقط كل قائم، ويفنى كل حي على هذه البسيطة التي تبدو ساكنة بثبات ما عليها، متزينة باتساق ما انتظم فوقها، حية بحركة أحيائها، لكن ذلك العمران وتلك الحياة ينقلبان إلى دمار شامل، وصمت تام على جميع الأرض عندما يأذن الله بحدوث آية تزلزل الأرض. لقد شهدت حياة الناس على مرّ العصور أحداثَ زلازل استمرت ثواني قليلة، بل أجزاء من الثانية فقضت على مدن ومساحات شاسعة في وقت يسير، فحلّ بالناس من الموت والرعب شيء مهول، فكيف لو جرى هذا التغير على الأرض كلها!

إن القرآن الكريم قد تحدث عن هذا النوع من التغيير الذي سيكون على هذه الجزء من الكون وجعله وسيلة ذكرى للمكلفين؛ لعلهم إلى ربهم يرجعون.

قال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ }[الحج١].

وقال: {إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا{١} وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا{٢} وَقَالَ الْإِنسَانُ مَا لَهَا{٣} يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا{٤} بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا{٥}[ الزلزلة ١-٥].

**زمن حصول هذه الزلزلة:**

اختلف العلماء في وقت حصول هذه الزلزلة إلى قولين:

**القول الأول:** أنها في آخر عمر الدنيا، وأول أحوال الساعة، وهي شرط من أشراطها، وهذا قول الجمهور.

---

(١ ) رواه مسلم (١/ ٢٥٢).

(٢ ) روح المعاني، للألوسي (٢٠/ ٣٥).

(٣ ) التحرير والتنوير، لابن عاشور (١٧/ ١٣٦).

**واستدلوا بما يلي:**

قوله تعالى: {يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ }[الحج٢].

وهذا يدل على أن هذه الزلزلة إنما تكون قبل البعث؛ لأن الرضاع والحمل إنما هو في الدنيا، فالضمير في " ترونها " عائد عندهم على الزلزلة.

واستدلوا أيضًا بحديث الصور، وهو حديث طويل وفيه: (يأمر الله تعالى إسرافيل بالنفخة الأولى، فيقول: انفخ، فينفخ نفخة الفزع، فيفزع أهل السموات وأهل الأرض إلا من شاء الله. ويأمره فيديمها ويطيلها ولا يفتر، وهي كقول الله: { وما ينظر هؤلاء إلا صيحة واحدة ما لها من فواق } [ص: ١٥]، فيسير الله الجبال فتمر مرّ السحاب، فتكون سرابًا. ثم ترتج الأرض بأهلها رجة فتكون كالسفينة المرمية في البحر، تضربها الأمواج، تكفأ بأهلها كالقنديل المعلق بالعرش، ترجرجه الرياح، وهي التي يقول:{ يوم ترجف الراجفة تتبعها الرادفة قلوب يومئذ واجفة } [النازعات: ٦ -٨]، فيميد الناس على ظهرها، وتذهل المراضع، وتضع الحوامل، وتشيب الولدان، وتطير الشياطين هاربة من الفزع...)(١).

**القول الثاني**: أنها يوم القيامة، بعد قيام الناس من قبورهم يوم نشورهم إلى عرصات القيامة.

واستدلوا بحديث أبي سعيد الخدري الذي قال فيه: قال النبي صلى الله عليه وسلم: (يقول الله عز وجل يوم القيامة: يا آدم، فيقول: لبيك ربنا وسعديك، فينادي بصوت: إن الله يأمرك أن تخرج من ذريتك بعثاً إلى النار، قال: يا رب، وما بعثُ النار؟ قال: من كلّ ألف أُراه قال: تسعمائة وتسعة وتسعين، فحينئذ تضع الحامل حملها، ويشيب الوليد، وترى الناس سكارى، وما هم بسكارى، ولكن عذاب الله شديد...)(٢).

قال الشنقيطي: "فحديث أبي سعيد هذا الذي اتفق عليه الشيخان كما رأيت، فيه التصريح من النبي صلى الله عليه وسلم بأن الوقت الذي تضع فيه كل ذات حمل حملها، وترى الناس سكارى، وما هم بسكارى، بعد القيام من القبور كما ترى، وذلك نص صحيح صريح في محل النزاع. فإن قيل: هذا النص فيه إشكال؛ لأنه بعد القيام من القبور لا تحمل الإناث، حتى تضع حملها من الفزع، ولا ترضع، حتى تذهل عما أرضعت؟!، فالجواب عن ذلك من وجهين:

**الأول**: هو ما ذكره بعض أهل العلم، من أن من ماتت حاملاً تبعث حاملاً، فتضع حملها من شدة الهول والفزع، ومن

---

(١ ) رواه الطبري في تفسيره (١٨/ ٥٥٨). قال ابن حجر: "حديث الصور الطويل الذي أخرجه عبد بن حميد، والطبري وأبو يعلى في الكبير، والطبراني في الطوالات وعلي بن معبد في كتاب الطاعة والمعصية، والبيهقي في البعث من حديث أبي هريرة، مداره على إسماعيل بن رافع واضطرب في سنده مع ضعفه فرواه عن محمد بن كعب القرظي تارة بلا واسطة وتارة بواسطة رجل مبهم، ومحمد عن أبي هريرة تارة بلا واسطة وتارة بواسطة رجل من الأنصار مبهم أيضًا، وأخرجه إسماعيل بن أبي زياد الشامي أحد الضعفاء أيضًا في تفسيره عن محمد بن عجلان عن محمد بن كعب القرظي، واعترض مغلطاي على عبد الحق في تضعيفه الحديث بإسماعيل بن رافع، وخفي عليه أن الشامي أضعف منه، ولعله سرقه منه فألصقه بابن عجلان، وقد قال الدار قطني: إنه متروك يضع الحديث، وقال الخليلي: شيخ ضعيف شحن تفسيره بما لا يتابع عليه. وقال الحافظ عماد الدين ابن كثير في حديث الصور: جمعه إسماعيل بن رافع من عدة آثار، وأصله عنده عن أبي هريرة فساقه كله مساقًا واحداً. وقد صحح الحديث من طريق إسماعيل بن رافع القاضي أبو بكر بن العربي في سراجه، وتبعه القرطبي في التذكرة، وقول عبد الحق في تضعيفه أولى، وضعفه قبله البيهقي". فتح الباري (١١/ ٣٦٨).

(٢ ) رواه البخاري(٤/ ١٧٦٧)، ومسلم (١/٢٠١).

ماتت مرضعة بعثت كذلك، ولكن هذا يحتاج إلى دليل.

**الوجه الثاني**: أن ذلك كناية عن شدة الهول كقوله تعالى: {يوما يجعل الولدان شيبا} ومثل ذلك من أساليب اللغة العربية المعروفة" [1].

وقد رجح هذا القول من المفسرين: الطبري، والقرطبي، وغيرهما.

قال الطبري-بعد أن ذكر القول الأول ودليله في حديث الصور:- "وهذا القول الذي ذكرناه عن علقمة والشعبيّ ومن ذكرنا ذلك عنه، قولٌ لولا مجيء الصحاح من الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بخلافه، ورسول الله صلى الله عليه وسلم أعلم بمعاني وحي الله وتنزيله"[2].

وقال القرطبي: "والذي ثبت بسياق الآيات: أن هذه الزلزلة إنما تكون بعد إحياء الناس وبعثهم من قبورهم؛ لأنه لا يراد بها إلا إذعان الناس والتهويل عليهم، فينبغي أن يشاهدوها؛ ليفزعوا منها ويهولهم أمرها، ولا تمكن المشاهدة منهم وهم أموات. ولأنه تعالى قال: {يومئذ تحدث أخبارها} أي: تخبر عما عمل عليها من خير وشر {يومئذ يصدر الناس أشتاتاً}، فدل ذلك على أن هذه الزلزلة إنما تكون والناس أحياء، واليوم يوم الجزاء، وقال تعالى: {فإذا نفخ في الصور نفخة واحدة} يعني: الآخرة، {وحملت الأرض والجبال}، إلى قوله: { لا تخفى منكم خافية}، فدلت هذه السورة على أن اصطدام الأرض و الجبال لا يكون إلا بعد الإحياء، فدلت هذه الآية على أن الكوائن إنما تكون بعد النشأة الثانية"[3]. والله أعلم"(٤).

**ثانياً- ذهاب الجبال:**

وهذا تغير آخر في مظاهر الأرض، يدل على كمال قدرة الله تعالى وقوته، وعلى ضعف كل ما سوى ربنا جل جلاله مهما بلغ ذلك المخلوق من الصلابة والشدة.

وقد تحدث الله تعالى عن هذا المظهر في عدة آيات قرآنية جاعلاً إياه آية من آيات القيامة.

وعند حديثه تعالى عن ذلك بيّن طريقة ذهاب هذه الجبال الشامخة وتغيرها ومآلها الذي تنتهي إليه، فذكر بأوصاف: التسيير، والدك، والنسف، والبس، والمصير إلى العهن والرمل المجتمع، والسراب.

وقد رتب بعض العلماء ما ذكرته الآيات على ست مراحل بها تزول هذه الجبال عن الأرض وتصبح قاعاً صفصفا لا ترى فيها عوجاً ولا أمتًا، وهي:

**المرحلة الأولى**: أنه ينزعها من أماكنها. ويحملها فيدكها دكًا. وذلك في قوله: {فإذا نفخ في الصور نفخة واحدة}{وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة}

**المرحلة الثانية**: أن تصير كالعهن المنفوش، وكالرمل المتهايل، قال تعالى: {يوم يكون الناس كالفراش المبثوث}{ وتكون

---

(١ ) أضواء البيان (٤/ ٢٦٠).

(٢ ) تفسير الطبري (١٨/ ٥٥٧)

(٣ ) التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة، للقرطبي (١/ ٢٤٧).

(٤ ) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لابن عطية (٤/ ١٢٨) التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي (٢/ ٢٠٦)، تفسير الطبري (١٨/ ٥٥٧) تفسير ابن كثير (٥/ ٣٨٩) تفسير الرازي : مفاتيح الغيب (٢٣/ ٥) زاد المسير (٥/ ٤٠٣) أضواء البيان (٤/ ٢٥٧-٢٦٠)، تفسير القرطبي (٣/١٢) التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة(١/ ٢٤٧).

الجبال كالعهن المنفوش}، وقال: {يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيباً مَّهِيلاً }[المزمل١٤].

**المرحلة الثالثة:** أنه يسيرها في الهواء بين السماء والأرض فتصير كالهباء، وذلك بأن تتقطع وتتبدد بعد أن كانت كالعهن، قال تعالى: {إذا رجت الأرض رجا وبست الجبال بسا فكانت هباء منبثا، وقال: {ويوم نسير الجبال وترى الأرض بارزة}

**المرحلة الرابعة:** أن تنسف؛ لأنها مع الأحوال المتقدمة قارّة في مواضعها، والأرض تحتها غير بارزة، فتنسف عنها بإرسال الرياح عليها، وهو المراد من قوله: {فقل ينسفها ربي نسفا} [طه ١٠٥].

**المرحلة الخامسة:** أن الرياح ترفعها عن وجه الأرض فتطيرها شَعاعًا في الهواء كأنها غبار، فمن نظر إليها من بعد حسبها لتكاثفها أجسامًا جامدة، وهي في الحقيقة مارة، إلا أن مرورها بسبب مرور الرياح بها صيرها منكدة متفتتة، قال تعالى: {تمر مر السحاب} [النمل ٨٨ ].

**المرحلة السادسة:** أن تصير سرابًا، بمعنى: لا شيء، فمن نظر إلى مواضعها لم يجد فيها شيئًا، كما أن من يرى السراب من بُعد إذا جاء الموضع الذي كان يراه فيه لم يجده شيئًا، والله أعلم(١).

وقد وقع خلاف بين العلماء في زمن حدوث هذا التغيير على الجبال وكذلك على البحار-كما سيأتي-هل ذلك قبل البعث أو بعده؟ قولان للعلماء. قال الرازي عند تفسير سورة التكوير:" واعلم أن هذه العلامات الست يمكن وقوعها في أول زمان تخريب الدنيا، ويمكن وقوعها أيضًا بعد قيام القيامة، وليس في اللفظ ما يدل على أحد الاحتمالين، أما بالستة الباقية فإنها مختصة بالقيامة" فالله أعلم(٢).

**ثالثاً- تفجرُ البحار وتسجّرها:**

ومن الأشياء الأرضية التي يصيبها التغيير: البحار. فهذه البحور الزاخرة الممتلئة بالماء الذي حفظ الله الأرض وأهلها ببقائه في تلك البحور دون أن يسيح فيطمر ما في الأرض بهيجانه وعنفوانه سيأتي عليه يوم يذهب استقراره وهدوءه فيتفجر ويصبح سائحاً على البر. قال تعالى: {وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ }[التكوير٦]. وقال: {وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ }[الانفطار٣].

وقد اختلف المفسرون في معنى قوله تعالى:{ سُجِّرَتْ} على أقوال:

**الأول:** اشتعلت ناراً وحَميت؛ وذلك أن الأغلب من معاني السجر: الإيقاد، كما يقال: سجرت التنور، بمعنى: أوقدت، والشيء إذا أوقد فيه نشف ما فيه من الرطوبة فحينئذ لا يبقى في البحار شيء واحد إلا كان في غاية الحرارة والإحراق.

**الثاني:** فاضت، والعرب تقول: سجرت الحوض أسجره سجراً: إذا ملأته، وهو مسجور والمسجور والساجر في اللغة: الملآن.

**الثالث:** ذهبَ ماؤها فلم يبق فيها قطرة، فيذهب الله ماءها حيث شاء.

**الرابع:** اختلطت وصارت شيئاً واحداً مالحها وعذبها؛ وذلك لأن بين البحار حاجزاً على ما قال تعالى: {مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لا يبغيان }، فإذا رفع الله ذلك الحاجز فاض البعض في البعض وصارت البحار بحراً واحداً فعمت الأرض كلها. قال الطبري: "وأولى الأقوال في ذلك بالصواب: قول من قال: معنى ذلك: مُلئت حتى فاضت، فانفجرت

---

(١ ) تفسير الرازي : مفاتيح الغيب (٣١/ ١١-١٢) تفسير القرطبي (١٣/ ٢٤٢-٢٤٣)، أضواء البيان (٤/ ٩٧).

(٢ ) البحر المديد، لابن عجيبة (٨/ ٣٣٥)، تفسير ابن كثير (٨/ ٣٢٩)، التحرير والتنوير، لابن عاشور (٣٠/ ١٢٤)، تفسير أبي السعود (٩/ ١١٤)، أضواء البيان (٣/ ٢٨٢)، تفسير الرازي : مفاتيح الغيب (٣١/ ٦٣).

وسالت كما وصفها الله به في الموضع الآخر، فقال: { وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ }والعرب تقول للنهر أو للرَّكيّ المملوء: ماء مسجور؛ ومنه قول لبيد:

فَتَوَسَّطا عُرْضَ السَّرِيِّ وَصَدَّعا... مَسْجُورَةً مُتَجاوِرًا قُلامُها

ويعني بالمسجورة: المملوءة ماء"(١)(٢).

## المطلب الثاني: التغيير في مظاهر السماء

**وفيه فرعان:**

**الفرع الأول: ذهاب ذاتها**

**الفرع الثاني: ذهاب أنوارها**

### الفرع الأول: ذهاب ذاتها

تحدث القرآن الكريم عن مصير السماء عند انتهاء الدنيا وقيام الساعة، وما يحصل فيها من التغيير والتبديل عندما ينتقل الخلق إلى عالم جديد ينتهي معه ما خلق للحياة الدنيا؛ فإن ما خلق لهذه الحياة له أمد ينتهي بانتهائها.

فالسماء في الحياة الدنيا كانت تتسم بالتماسك والالتحام والزينة، كما قال تعالى: {أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاء فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ }[ق٦]. وقال: {الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ }[الملك٣].

وبعد هذا البقاء الثابت والإضاءة والحفظ يحدث لها ما يحدث لكل مخلوق كتب عليه الفناء والتغير. قال تعالى: {يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُواْ للّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ }[إبراهيم٤٨].

وقد اختلف المفسرون في هذا التبديل الذي يحصل للسماوات على أقوال:

**أحدها**: أن السموات تبدل بغيرها كالأرض، فتجعل السماء من ذهب، والأرض من فضة.

**الثاني**: أن السموات تبدل بغيرها كالأرض، فتصير السموات جناناً، والبحار نيراناً، وتبدل الأرض بغيرها.

**الثالث**: أن تبديل السموات: تكوير شمسها، وتكاثر نجومها.

**الرابع**: أن تبديلها: أن تطوى كطي السجل للكتب.

**الخامس**: أن تبديلها: أن تنشق فلا تظل.

**السادس**: أن تبديلها: اختلاف أحوالها، تكون في حال كالمهل، وفي حال كالوردة، وفي حال كالدهان(٣).

---

(١ ) تفسير الطبري (٢٤/ ٢٤٣).

(٢ ) تفسير الرازي : مفاتيح الغيب (٣١/ ٦٣)، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لابن عطية (٥/ ٤١٩)، تفسير القرطبي (١٩/ ٢٣٠)، اللباب في علوم الكتاب، لابن عادل (٢٠/ ١٧٨)، تفسير الطبري (٢٢/ ٤٥٩) (٢٤/ ٢٤٢-٢٤٣).

(٣ ) تفسير الطبري (١٧/ ٤٥-٥٢)، النكت والعيون، للماوردي (٣/ ١٤٤)، تفسير القرطبي (٩/ ٣٨٢).

وحاصل هذه الأقوال يرجع إلى كون التبديل للذات أو للصفات، وقد تقدم أن الراجح هو: تبديل الذات، قال الطبري: "وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: معناه: يوم تبدّل الأرض التي نحن عليها اليوم يوم القيامة غيرها، وكذلك السماوات اليوم تبدّل غيرها، كما قال جلّ ثناؤه"(١).

وقد جاء في السنة الصحيحة تحديد زمن حصول هذا التبديل وأنه يوم القيامة عند مرور الناس على الصراط أو قبل ذلك بقليل

فعن عائشة رضي الله عنها قالت: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله عز وجل:{ يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات } [ ١٤ / إبراهيم / ٤٨ ]، فأين يكون الناس يومئذ ؟ يا رسول الله؟ فقال: ( على الصراط)(٢).

وعن ثوبان رضي الله عنه أن حبراً من أحبار اليهود سأل رسول الله: أين يكون الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ( هم في الظلمة دون الجسر)(٣).

وهذا التبديل لذات السماء عبر عنه القرآن الكريم بالانشقاق، والانفطار، والانفراج، والانفتاح بالأبواب، والمور، والكشط، والطي، والذوبان كالمهل، والمصير في اللون كالوردة حمراء.

قال تعالى: {وَانشَقَّتِ السَّمَاء فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ }[الحاقة١٦].

فقوله: واهية "أي: مسترخية ساقطة القوة كالعهن المنفوش بعدما كانت محكمة شديدة"(٤).

وقال تعالى: {وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاء بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنزِيلاً }[الفرقان٢٥].

" يخبر تعالى عن هول يوم القيامة، وما يكون فيه من الأمور العظيمة، فمنها انشقاق السماء وتفطرها وانفراجها بالغمام، وهو ظلل النور العظيم الذي يبهر الأبصار، ونزول ملائكة السموات يومئذ، فيحيطون بالخلائق في مقام المحشر. ثم يجيء الرب تبارك وتعالى لفصل القضاء"(٥). وحاصل المعنى: "أن هنالك انبثاقًا وانفتاقًا يقارنه نزول الملائكة؛ لأن ذلك الانشقاق إذن للملائكة بالحضور إلى موقع الحشر والحساب"(٦).

وقال تعالى: {إِذَا السَّمَاء انفَطَرَتْ }[الانفطار١]. وقال تعالى: {وَإِذَا السَّمَاء فُرِجَتْ }[المرسلات٩].

ومعنى: {فرجت}: تفرق ما كان ملتحمًا من هيكلها(٧).

وقال تعالى: {وَفُتِحَتِ السَّمَاء فَكَانَتْ أَبْوَاباً }[النبأ١٩]." يعني فكانت ذوات أبواب لنزول الملائكة، وقيل: تنحل وتتناثر حتى يصير فيها أبواب وطرق" (٨).

وقال تعالى: {يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاء مَوْراً }[الطور٩].

---

(١ ) تفسير الطبري (١٧/ ٥٢).
(٢ ) رواه مسلم (٤/ ٢١٥٠).
(٣ ) رواه مسلم(١/ ٢٥٢).
(٤ ) تفسير الرازي : مفاتيح الغيب (٣٠/ ٩٥).
(٥ ) تفسير ابن كثير (٦/ ١٠٥).
(٦ ) التحرير والتنوير، لابن عاشور (١٩/ ٣٦).
(٧ ) المصدر السابق (٢٩/ ٣٩٢).
(٨ ) تفسير الخازن (٧/ ٢٠٠).

والمور: "التحرك باضطراب، ومور السماء هو: اضطراب أجسامها من الكواكب واختلال نظامها وذلك عند انقراض عالم الحياة الدنيا"[1].

وقال تعالى: {وَإِذَا السَّمَاء كُشِطَتْ }[التكوير١١].

فقوله: {كشطت}، أي: قلعت بقوة عظيمة وسرعة زائدة، وأزيلت عن مكانها التي هي ساترة له محيطة به ، أو عن الهواء المحيط بسطحها الذي هو كالروح لها كما يكشط الإهاب عما هو ساتر له ومحيط به مع شدة الالتزاق به؛ لأن ذلك يوم الكشف والإظهار[2].

وقال تعالى: {يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاء كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْداً عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ }[الأنبياء١٠٤].

والمعنى: كطي الصحيفة على مكتوبها، والطي هو الدرج الذي هو ضد النشر[3].

وقال تعالى: {يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاء كَالْمُهْلِ }[المعارج٨].

وقال تعالى: {فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاء فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ }[الرحمن٣٧].

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة أن السماء ستنشق يوم القيامة، وأنها إذا انشقت صارت وردة كالدهان، وقوله: {وردة} ، أي: حمراء كلون الورد، وقوله: {كالدهان}، فيه قولان للعلماء:

الأول منهما: أن الدهان هو الجلد الأحمر، وعليه فالمعنى: أنها تصير وردة متصفة بلون الورد مشابهة للجلد الأحمر في لونه.

والثاني: أن الدهان هو ما يدهن به، وعليه، فالدهان، قيل: هو جمع دهن، وقيل: هو مفرد؛ لأن العرب تسمي ما يدهن به دهانًا، وهو مفرد، ومنه قول امرئ القيس:

كأنَّهُمَا مَزادَتَا مُتَعَجِّلٍ...فريَّان لما تُدهَنَا بدِهَانِ

وحقيقة الفرق بين القولين: أنه على القول بأن الدهان هو الجلد الأحمر، يكون الله وصف السماء عند انشقاقها يوم القيامة بوصف واحد وهو الحمرة، فشبهها بحمرة الورد، وحمرة الأديم الأحمر[4].

والذي يتحصل من مجموع هذه الآيات الكريمات هو حدوث التغير الكبير في ذات السماء بحيث تضطرب ويذهب التحامها فتصير واهية ثم تذوب وتنفتح أبواباً؛ لتنزل الملائكة إلى أرض المحشر ويجيء الله تعالى مع ملائكته لحساب الخلائق، قال تعالى: {هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلآئِكَةُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَإِلَى اللّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ }[البقرة٢١٠]. والله تعالى أعلم.

---

(١ ) التحرير والتنوير، لابن عاشور (٢٧/ ٥٧).

(٢ ) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، للبقاعي (٨/ ٣٣٩).

(٣ ) تفسير الخازن (٤/ ٣٢٥).

(٤ ) أضواء البيان (٧/ ٥٠١-٥٠٢).

## الفرع الثاني: ذهاب أنوارها:

لقد أنعم الله على أهل الأرض بما أودع في السماء الدنيا من كواكب لتهديهم إلى مقاصدهم في ظلمات البر والبحر، ويعرفوا بها عدد السنين والحساب، ولهم من منافعها غير ذلك.

يقول الله تعالى: {وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُواْ بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ}[الأنعام٩٧].

وقال:{وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُواْ فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً{١٢} [الإسراء ١٢].

وقال: {هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاء وَالْقَمَرَ نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللّهُ ذَلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ}[يونس٥].

وحينما يأذن الله بزوال حياة الابتلاء ومجيء حياة الحساب والجزاء يذهب المخلوق وما خُلق لأجله، ومن ذلك: السماء وكواكبها، حيث تنتثر الكواكب، وتكسف الشمس، ويخسف القمر.

قال تعالى:{ فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ{٧} وَخَسَفَ الْقَمَرُ{٨} وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ{٩}[القيامة ٧-٩].

وخسوف القمر: ذهاب ضوئه(١).

وأما قوله تعالى:{ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ} فمعناه: جمعا في ذهاب الضوء، فلا ضوء لواحد منهما، وقيل: إنهما يجمعان ثم يكوّران،كما قال جلّ ثناؤه:{ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ }(٢).

ويقول تعالى: {إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ } {وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ }[التكوير١-٢].

إذا زال ضوء الشمس انكدرت النجوم؛ لأن معظمها يستنير من انعكاس نور الشمس عليها. فيحصل للنجوم انكدار من تكدير الشمس لها حين زال عنها انعكاس نورها.

والكدرة: ضد الصفاء كتغير لون الماء ونحوه. وفسر الانكدار بالتساقط والانقضاض، ومعنى تساقطها: تساقط بعضها على بعض واصطدامها؛ بسبب اختلال نظام الجاذبية الذي جعل الله لإمساكها إلى أمد معلوم.

وطمس النجوم: زوال نورها، وأن نور معظم ما يلوح للناس من النجوم سببه انعكاس أشعة الشمس عليها حين احتجاب ضوء الشمس على الجانب المظلم من الأرض، فطمس النجوم يقتضي طمس نور الشمس، أي: زوال التهابها بأن تبرد حرارتها، أو بأن تعلو سطحها طبقة رمادية بسبب انفجارات من داخلها، أو تتصادم مع أجرام سماوية أخرى لاختلال نظام الجاذبية فتندك وتتكسر قطعاً فيزول التهابها(٣).

والذي يبدو أن هذا التغيير الذي يلحق الشمس والنجوم عقب الوقوف في عرصات القيامة؛ لأن الشمس تدنو من الخلائق على قدر ميل وهم في ذلك المكان، ويدل على هذا حديث المقداد بن الأسود رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى

---

(١ ) تفسير ابن كثير (٨/ ٢٧٧).

(٢ ) تفسير الطبري (٢٤/ ٥٧).

(٣ ) التحرير والتنوير، لابن عاشور (٣٠/ ١٢٥) (٢٩/ ٣٩٢) بتصرف.

الله عليه وسلم يقول: ( تدنو الشمس يوم القيامة من الخلق حتى تكون منهم كمقدار ميل، قال سليم بن عامر فوالله ما أدري ما يعني بالميل؟ أمسافة الأرض، أم الميل الذي تكتحل به العين؟ قال: فيكون الناس على قدر أعمالهم في العرق: فمنهم من يكون إلى كعبيه، ومنهم من يكون إلى ركبتيه، ومنهم من يكون إلى حقويه، ومنهم من يلجمه العرق إلجامًا، قال: وأشار رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده إلى فيه)[1].

(١ ) رواه مسلم(٤/ ٢١٩٦).

## المبحث الثاني: التغيير في أحوال الناس يوم القيامة

**وفيه أربعة مطالب:**

**المطلب الأول: التغيير في أحوال الناس عند حدوث القيامة**

**المطلب الثاني: التغيير في أحوال الناس في عرصات القيامة**

**المطلب الثالث: التغيير في أحوال الناس في الجنة**

**المطلب الرابع: التغيير في أحوال الناس في النار**

### المطلب الأول: التغيير في أحوال الناس عند حدوث القيامة:

يوم القيامة يوم شديد الهول، عظيم الوقع، فإذا حدث هذا اليوم جرت فيه وقائع تحدِث في الناس تغييراً كبيراً ما كان العاقل في الدنيا يظن حصوله قبل إخبار الله بذلك.

فالأم في الدنيا هي موئل الحنان والعطف الشديد على رضيعها، فمهما حدث لها من أهوال الدنيا ففكرها عند ولدها، لكن في يوم القيامة تذهل عنه؛ لشدة ما ترى وتسمع من فظائع ذلك اليوم. والهول نفسه يصيب ذوات الحمل حتى يضعن أحمالهن، وهذا في النساء.

والناس كل الناس يُرون كأنهم سكارى من شدة الخوف، وما هم بسكارى من شرب الخمر، ولكن عذاب الله شديد.

قال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ }الحج١ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ }[الحج٢].

قال ابن عاشور: "والذهول: نسيان ما من شأنه أن لا ينسى؛ لوجود مقتضى تذكره؛ إما لأنه حاضر، أو لأن علمه جديد، وإنما ينسى لشاغل عظيم عنه. فذكر لفظ الذهول هنا دون النسيان؛ لأنه أدل على شدة التشاغل. وشفقة الأم على الابن أشد من شفقة الأب، فشفقتها على الرضيع أشد من شفقتها على غيره. وكل ذلك يدل بدلالة الأولى على ذهول غيرها من النساء والرجال"(١).

ولا يسلم الأطفال ذلك اليوم؛ فإن شعرهم الأسود ينقلب إلى شعر أبيض؛ وذلك لأن الهمّ مما يسرع به الشيب، فلما أريد وصف هم ذلك اليوم بالشدة البالغة أقواها أسند إليه شيب الولدان الذين شعرهم في أول سواده(٢).

قال تعالى:{فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْماً يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيباً }[المزمل١٧].

وهل حصول هذه المظاهر ذلك اليوم حقيقة أو كناية عن شدة الهول؟ قولان، كما تقدم، وتقدم أيضاً أن الراجح كون ذلك يوم القيامة، وليس في آخر عمر الدنيا؛ لقول النبي صلى الله عليه وسلم: (يقول الله عز وجل يوم القيامة: يا آدم، فيقول: لبيك ربنا وسعديك، فينادي بصوت: إن الله يأمرك أن تخرج من ذريتك بعثاً إلى النار، قال: يا رب، وما بعث النار؟ قال:

---

(١ ) التحرير والتنوير(١٧/ ١٣٨) بتصرف.

(٢ ) التحرير والتنوير (٢٩/ ٢٥٦).

من كل ألف أُراه، قال: تسعمائة وتسعة وتسعين، فحينئذ تضع الحامل حملها، ويشيب الوليد، وترى الناس سكارى، وما هم بسكارى، ولكن عذاب الله شديد...)(١).

## المطلب الثاني: التغيير في أحوال الناس في عرصات القيامة:

بعد أن يبعث الناس من قبورهم يتجهون مسرعين إلى عرصات القيامة لملاقاة الحساب، فينتظرون أمر ربهم بهم إما إلى الجنة وإما إلى النار، قال تعالى: {وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ }[يس٥١].

وهذا موقف عظيم تتغير فيه المشاعر والتصرفات، فتدهش فيه الألباب عن صوابها، وتتقطع فيه الأواصر، وفيه تنتهي الصلات والعلائق، ولم يعد للإنسان همٌّ سوى نفسه، حيث ينسى أباه وأمه وولده وزوجه وقريبه وخليله.

قال تعالى-وهو يتحدث عن يوم القيامة: {إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً{٦} وَنَرَاهُ قَرِيباً{٧} يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاء كَالْمُهْلِ{٨} وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ{٩} وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيماً{١٠} يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ{١١} وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ{١٢} وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ{١٣} وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ يُنجِيهِ{١٤}[المعارج ٦-١٤].

وقال: {فَإِذَا جَاءتِ الصَّاخَّةُ{٣٣} يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ{٣٤} وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ{٣٥} وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ{٣٦} لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ{٣٧}[عبس ٣٣-٣٧].

بل إن الإنسان هناك لا يفكر بظهور عورته أمام الخلائق، وهذا من التغير العجيب في ذلك اليوم العصيب، فقد جاء في حديث عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (تحشرون حفاة عراة غرلًا). قالت عائشة: فقلت: يا رسول الله، الرجال والنساء ينظر بعضهم إلى بعض ؟! فقال: ( الأمر أشد من أن يهمهم ذاك)(٢).

وفي رواية قلت: يا رسول الله، فما نستحيي؟ قال: يا عائشة، الأمر أهم من أن ينظر بعضهم إلى بعض" (٣). وفي رواية قلت: يا رسول الله، فكيف بالعورات؟ قال: لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه"(٤).

وفي رواية قرأت عائشة رضي الله عنها قول الله عز و جل: { و لقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة } فقالت: يا رسول الله، و اسوأتاه! إن الرجال والنساء يحشرون جميعاً ينظر بعضهم إلى سوأة بعض؟! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه، لا ينظر الرجال إلى النساء ولا النساء إلى الرجال، شغل بعضهم عن بعض)(٥).

وفي رواية: سألت عائشة رسول الله، قالت: يا نبي الله، كيف يحشر الرجال؟ قال: ( حفاة عراة )، ثم انتظرت عائشة، ثم قالت: يا نبي الله، كيف يحشر النساء؟ قال: (كذلك حفاة عراة )، قالت: واسوأتاه! من يوم القيامة، قال: ( وعن أي ذلك

---

(١ ) رواه البخاري(٤/ ١٧٦٧)، ومسلم (١/٢٠١).

(٢ ) رواه البخاري (٥/ ٢٣٩١)، ومسلم(٤/ ٢١٩٤).

(٣ ) رواه ابن ماجه (٢/ ١٤٢٩)، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه (٩/ ٢٧٦).

(٤ ) رواه النسائي، سنن النسائي (٤/ ١١٤)، وصححه الألباني في صحيح سنن النسائي (٥/ ٢٢٧).

(٥ ) رواه الحاكم (٤/ ٦٠٩)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

تسأليني، إنه قد نزلت علي آية لا يضرك كان عليك ثياب أم لا)، قالت: أي آية يا نبي الله؟ قال: {لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه})(١).

وقد اختلف العلماء في فزع موقف القيامة وأهواله هل هو عام لكل الناس: مؤمنهم وكافرهم أو أنه خاص بغير المؤمنين؟ على أقوال:

**القول الأول**: أن أهوال الموقف عامة على المؤمنين وعلى غيرهم. واستدل أصحاب هذا القول:

١- بقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ } {يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ }[الحج١-٢]. وهذا عام.

٢- وقوله: {يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْماً كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً }[الإنسان٧]. وهو عام كذلك.

٣- مواقف الأنبياء التي تدل على خوفهم، وعدم أمنهم على أنفسهم، فكيف غيرهم!، ومما يدل على ذلك:

جوابهم اللهَ تعالى حينما يسألهم في قوله تعالى: {يَوْمَ يَجْمَعُ اللهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُواْ لاَ عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ }[المائدة١٠٩]. وحديث الشفاعة الذي يظهر أن كل نبي يقول: نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ( أنا سيد الناس يوم القيامة، وهل تدرون مم ذلك ؟ يجمع الله الناس الأولين والآخرين في صعيد واحد يسمعهم الداعي، وينفذهم البصر وتدنو الشمس، فيبلغ الناس من الغم والكرب ما لا يطيقون ولا يحتملون، فيقول الناس: ألا ترون ما قد بلغكم، ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربكم؟ فيقول بعض الناس لبعض: عليكم بآدم، فيأتون آدم عليه السلام فيقولون له: أنت أبو البشر، خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه، وأمر الملائكة فسجدوا لك، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى إلى ما نحن فيه، ألا ترى إلى ما قد بلغنا؟ فيقول آدم: إن ربي قد غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله، وإنه نهاني عن الشجرة فعصيته، نفسي نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري اذهبوا إلى نوح...)(٢).

وفي رواية في الصحيحين: (يجمع الله المؤمنين يوم القيامة كذلك فيقولون: لو استشفعنا إلى ربنا حتى يريحنا من مكاننا هذا)(٣).

وقول النبي عليه الصلاة والسلام: (فيضرب الصراط بين ظهراني جهنم، فأكون أول من يجوز من الرسل بأمته، ولا يتكلم يومئذ أحد إلا الرسل، وكلام الرسل يومئذ: اللهم سلم سلم)(٤)

وأجاب أصحاب هذا القول عن قوله تعالى:{إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ }[الأحقاف١٣].- بأن معناها: أنّ أمرهم يؤول إلى الأمن والسرور، كقول الطبيب للمريض: " لا بأس عليك" أي: يؤول أمرك إلى العافية والسلامة، وإن كان في الوقت في بأس من علته.

**القول الثاني**: أن الفزع والخوف يختص بأهل النار، وأما أهل الجنة فيحشرون وهم آمنون لا يلحقهم من تلك الأهوال شيء، واستدلوا على هذا القول بالآتي:

---

(١ ) رواه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٢/ ٣٦٧)، والطبري في تفسيره (٢٤/ ٢٣٢)، وابن أبي الدنيا في الأهوال (ص: ٢٣٢).

(٢ ) رواه البخاري (٣/ ١٢١٥)، ومسلم (١/ ١٨٤).

(٣ ) البخاري (٤/ ١٦٢٤)، ومسلم (١/ ١٨٠).

(٤ ) رواه البخاري (١/ ٢٧٧)، ومسلم (١/ ١٦٣).

١- قوله تعالى: {لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ }[الأنبياء١٠٣].

٢- وقوله: {مَن جَاء بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ }[النمل٨٩].

٣- وقوله: {إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ }[الأحقاف١٣].

٤- وقوله: {وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ }[الزمر٦١].

**القول الثالث**: أن خوف العقاب زائل عنهم، أما خوف الجلال والهيبة فلا يزول ألبتة عن العبد؛ ألا ترى أن الملائكة مع علو درجاتهم وكمال عصمتهم لا يزول الخوف عنهم قال تعالى: {يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ }[النحل٥٠].(١).

والناظر في أدلة القولين الأولين يجد قوة احتجاج كل قول؛ فيصعب ترجيح أحدهما على الآخر، لكن الذي يبدو –من خلال نظرة عامة في جميع الأدلة– أن المؤمنين يصيبهم شيء من الخوف والرهبة في ذلك اليوم؛ لما في الموقف نفسه من الخشية، ولما يحصل فيه من الأشياء العظيمة غير المعهودة، ولما يرون من الهلع المسيطر على كثير من أهل الموقف. لكن ذلك الفزع لا يطول عليهم، ولا يضرهم؛ لأن مصيرهم إلى الفوز والأمان والنجاة، والله تعالى أعلم بالصواب.

وفي موقف القيامة تتجلى الحقائق الغائبة للمكذبين لها في الدنيا فيرونها هناك عِياناً، وتصير شهادة بعد أن كانت غيباً، فيصدقها من كان كذبها، لكن في وقت لا ينفع فيه التصديق.

قال تعالى: {لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ }[ق٢٢].

قوله: {فكشفنا عنك غطاءك }يعني: الذي كان في الدنيا على قلبك وسمعك وبصرك، { فبصرك اليوم حديد }أي: نافذ تبصر ما كنت تنكر في الدنيا(٢)، "والمراد به بصر العين، وهو الظاهر، أي: بصر عينك اليوم حديد، أي: قوي نافذ يرى ما كان محجوبًا عنك"(٣).

وقيل:" يراد به بصر القلب، كما يقال: هو بصير بالفقه. فبصر القلب وبصيرته تبصرته شواهد الأفكار، ونتائج الاعتبار، كما تبصر العين ما قابلها من الأشخاص والأجسام(٤)." يقول: فأنت اليوم نافذ البصر، عالم بما كنت عنه في الدنيا في غفلة، وهو من قولهم: فلان بصير بهذا الأمر: إذا كان ذا علم به، وله بهذا الأمر بصر: أي علم"(٥).

---

(١ ) تفسير الرازي : مفاتيح الغيب(١٧/ ١٠٢) (٢٣/ ٦) (٢٧/ ١٠) (٢٨/ ١٢) (٣٠/ ٢١٥)، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لابن عطية (٢/ ٣٠٣)، اللباب في علوم الكتاب، لابن عادل (٩/ ١٠١) (١٤/ ١٢).

(٢ ) تفسير البغوي (٧/ ٣٦٠).

(٣ ) النكت والعيون، للماوردي (٥/ ٣٤٩).

(٤ ) تفسير القرطبي (١٧/ ١٥).

(٥ ) تفسير الطبري (٢٢/ ٣٥٢).

## المطلب الثالث: التغيير في أحوال الناس في الجنة

**وفيه فرعان:**

**الفرع الأول: ما لا يتغير من أحوال الناس في الجنة**

**الفرع الثاني: ما يتغير من أحوال الناس في الجنة**

### الفرع الأول: ما لا يتغير من أحوال الناس في الجنة:

أهل الجنة هم عباد الله الذين فازوا برضوانه فأدخلهم تلك الدار الطيبة، ونجوا من سخطه فجنبهم دار البوار.

ومن نعمته تعالى على أهل الجنة: أن لهم فيها أشياء لا يصيبها التغيير؛ لأنه لو دخلها ذلك لتنغص عليهم عيشهم فيها، ويجمع هذه الأشياء كلها: نعيم الجنة، فكل نعيم الجنة لا يتغير إلى ضده، أو ما يسوؤهم تغيره.

ومفردات هذا النعيم كثيرة، فمنها: حلول رضوان الله عليهم، وعدم خروجهم من الجنة بعد دخولها، وبقاؤهم على سن الشباب، وعلى حال الصحة، إضافة إلى اللذات المعنوية والحسية الأخرى التي يلاقونها في الجنة. فهذه أحوال لأهل الجنة لا تتغير ولا تتبدل، وقد دل على ذلك كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم.

قال تعالى: {لاَ يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ }[الحجر٤٨].

وقال تعالى:{وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاء رَبُّكَ عَطَاء غَيْرَ مَجْذُوذٍ }[هود١٠٨].

وقال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً } {خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً }[الكهف١٠٧-١٠٨].

فقوله تعالى: { خالدين فيها } أي: مقيمين ساكنين فيها، لا يظعنون عنها أبداً { لا يبغون عنها حولا } أي: لا يختارون غيرها، ولا يحبون سواها، كما قال الشاعر:

فحلَّتْ سويدا القلب لا أنا باغيًا ... سواها ولا عن حبها أتحول

لأنه لا يوجد منزل أحسن منها يرغب في التحول إليه عنها، بل هم خالدون فيها. وفي قوله: { لا يبغون عنها حولا } تنبيه على رغبتهم فيها، وحبهم لها، مع أنه قد يتوهم فيمن هو مقيم في المكان دائمًا أنه يسأمه أو يمله، فأخبر أنهم مع هذا الدوام والخلود السرمدي لا يختارون عن مقامهم ذلك متحولاً ولا انتقالاً ولا ظعنًا ولا رحلة ولا بدلاً، فليس بعدما حوته تلك الجنات من ضروب اللذات والتمتع ما تتطلع النفوس إليه فتودّ مفارقة ما هي فيه إلى ما هو خير منه. فهم يجدون فيها كل ما يخامر أنفسهم من المشتهى. فمن تمام النعمة: أنهم لا يتمنون التحول؛ لأنهم لو تمنوا التحول عنها لتنغص النعيم عليهم.

وهذا الوصف يدل على غاية الكمال؛ لأن الإنسان في الدنيا إذا وصل إلى أي درجة كانت في السعادات فهو طامح الطرف إلى ما هو أعلى منها (١).

---

(١ ) تفسير ابن كثير (٥/ ٢٠٤)، التحرير والتنوير (١٥/ ١٤٥)، أضواء البيان (٣/ ٣٥٤)، بحر العلوم (٢/ ٣٦٥)، تفسير الرازي : مفاتيح الغيب (٢١/ ١٤٩).

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ( إن الله تبارك وتعالى يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة، فيقولون: لبيك ربنا وسعديك، فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى، وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك، فيقول: أنا أعطيكم أفضل من ذلك، قالوا: يا رب، وأي شيء أفضل من ذلك ؟ فيقول: أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً)(١).

إن الدنيا حينما خلقها الله تعالى لأمد محدود فإن ما فيها من النعيم يبقى لوقت معلوم، ثم تسرع إليه يد التغيير إلى ما لا يحب الإنسان؛ فقوة الإنسان إلى ضعف، وشبابه إلى هرم، وصحته إلى سقم، وثيابه إلى بلى، وحياته إلى فناء، وماؤه إلى أسون، ولحمه إلى خنوز، ولبنه إلى حموضة. أما الجنة فإنها لما خلقت للخلود فلم يكن فيها شيء من هذا التغير.

قال تعالى: {مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاء غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاء حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعَاءهُمْ }[محمد١٥].

قال عكرمة: { مثل الجنة } أي: نعتها: { فيها أنهار من ماء غير آسن } قال ابن عباس، والحسن، وقتادة: يعني غير متغير. وقال قتادة، والضحاك، وعطاء الخراساني: غير منتن. والعرب تقول: أسن الماء، إذا تغير ريحه. {وأنهار من لبن لم يتغير طعمه } أي: بل في غاية البياض والحلاوة والدسومة. { وأنهار من خمر لذة للشاربين } أي: ليست كريهة الطعم والرائحة كخمر الدنيا، بل هي حسنة المنظر والطعم والرائحة والفعل، { لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون } [ الصافات: ٤٧]، { لا يصدعون عنها ولا ينزفون } [ الواقعة: ١٩]، { بيضاء لذة للشاربين } [ الصافات: ٤٦]، وقوله: { وأنهار من عسل مصفى } أي: وهو في غاية الصفاء، وحسن اللون والطعم والريح(٢).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه و سلم قال: ( من يدخل الجنة ينعم ولا يبأس، لا تبلى ثيابه، ولا يفنى شبابه)(٣).

---

(١ ) رواه البخاري(٤/ ١٧٦٧)، ومسلم (١/٢٠١).

(٢ ) تفسير ابن كثير (٧/ ٣١٢) بتصرف.

(٣ ) رواه مسلم (٤/ ٢١٨١).

## الفرع الثاني: ما يتغير من أحوال الناس في الجنة:

لاشك أن الجنة خلقت للدوام والبقاء ولم تخلق للذهاب والفناء، فأصول النعيم فيها ثابتة، لكنها تتجدد وتتغير نعم الله فيها على المؤمن زيادة في التنعيم والإكرام، فثمر الجنة يأتيهم متشابه الألوان، لكنه مختلف الطعوم، أو يأتي مرآه شبيهاً بثمر الدنيا، لكنه يتغير طعمه في الجنة عما كان عليه في الدنيا.

قال تعالى: {وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقاً قَالُواْ هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُواْ بِهِ مُتَشَابِهاً وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ }[البقرة٢٥].

قوله: "{ وأتوا به متشابها }، قال بعضهم: معناه: متشابها في المنظر، مختلفًا في الطعم، وقيل: {متشابها} يعني: يشبه بعضها بعضًا في الجودة، ولا يكون فيها رديء"(١).

وقال الشربيني في قوله تعالى:{قالوا هذا الذي رزقنا}:" أي: أطعمنا {من قبل} أي: من قبل هذا في الدنيا جعل الله تعالى ثمر الجنة من جنس ثمر الدنيا؛ لتميل النفس إليه أوّل ما يرى؛ فإنّ الطبائع مائلة إلى المألوف مستنفرة من غيره، أي: هذا من نوعه؛ لتشابه ما يؤتون به في الصورة كما قال تعالى: {وأتوا به متشابهاً} أي: في اللون والصورة مختلفاً في الطعم، وذلك أبلغ في باب الإعجاز، والداعي لهم إلى ذلك فرط استغرابهم وافتخارهم بما وجدوا من التفاوت العظيم في اللذة والتشابه البليغ في الصورة، وقيل: في الجنة؛ لأن طعامها متشابه الصورة، كما حكي عن الحسن أنّ أحدهم يؤتى بالصحفة فيأكل منها ثم يؤتى بأخرى فيراها مثل الأولى، فيقول ذلك! فتقول الملائكة: كل؛ فاللون واحد، والطعم مختلف"(٢).

إن آكلَ هذا الثمر الطيب هو أيضاً قد جرى عليه التغيير قبل دخول الجنة؛ فخِلقة المؤمن وأخلاقه في الجنة غير التي كان عليها في الدنيا. فالجسم غير الجسم طولاً وعرضاً، وقوة وحسناً، وما كان يستقذر منه-ذكراً كان أو أنثى- يذهب عنه، والأخلاق غير الحميدة تزال عنه أيضاً. فليس منه في الجنة ما يؤذي غيره حساً أو معنى.

يقول الله تعالى: {وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً لَّهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلاًّ ظَلِيلاً }[النساء٥٧].

فقوله: { أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ} يعني: مهذبة في الخلق والخلق، فأما الخَلق فإنهن لا يحضن ولا يبلن ولا يتمخطن، ولا يأتين الخلاء، وأما الخُلق فهن لا يحسدن ولا يغرن، ولا ينظرن إلى غير أزواجهن(٣). فهذا التطهير ليس خاصاً بالحور العين، بل يشمل النساء الصالحات اللاتي يدخلن الجنة، فيكون قد حصل لهن هذا التغيير، أما الحور العين فهن خلقن كذلك أول مرة، بخلاف نساء الدنيا. فإذن جرى هذا الوصف على الحور من باب النفي من غير سبق وجود حتى لا يتصور الإنسان حالهن على ما يعرف من نساء الدنيا، وأما نساء الدنيا اللاتي يدخلن الجن فقد جرى الوصف على سبيل الإخبار بحصول هذا التغيير فيهن عما كان منهن في زمن الحياة الدنيا. فتلك الأحوال المكروهة من نساء الدنيا تذهب عن المؤمنات منهن في

---

(١ ) بحر العلوم، للسمرقندي (١/ ٦٢).

(٢ ) تفسير السراج المنير، للشربيني (١/ ٣٨).

(٣ ) بحر العلوم، للسمرقندي (١/ ٦٢)، الكشف والبيان، للثعلبي (١/ ١٧١)، النكت والعيون، للماوردي (١/ ٨٧).

الجنة. كما يذهب عن خمرة الجنة الإسكار وتصديع الرأس وكل عيوب خمرة الدنيا. قال تعالى: {لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ }[الصافات٤٧].

قوله: {لا فيها غول} "الغول: اسم عام في الأذى والضير، ومنه يقال: غاله يغوله إذا أهلكه، وقيل الغول: وجع في البطن، وقيل: صداع في الرأس، وإنما قدم المجرور هنا تعريضًا بخمر الدنيا؛ لأن الغول فيها.{ ولا هم عنها ينزفون} أي: لا يسكرون من خمر الجنة، ومنه النزيف وهو السكران"(١).

وقوله تعالى: {لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ }[الواقعة١٩]. معناه: "لا يلحق رءوسهم الصداع الذي يصيب من خمر الدنيا" (٢).

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ( إن أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر، ثم الذين يلونهم على أشد كوكب دري في السماء إضاءة، لا يبولون ولا يتغوطون، ولا يتفلون ولا يمتخطون، أمشاطهم الذهب ورشحهم المسك، ومجامرهم الألوة، وأزواجهم الحور العين، على خلق رجل واحد، على صورة أبيهم آدم ستون ذراعًا في السماء )(٣).

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ( يخلص المؤمنون من النار، فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار فيقتص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا هذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة، فوالذي نفس محمد بيده لأحدهم أهدى بمنزله في الجنة منه بمنزله كان في الدنيا )(٤).

ومن وجوه التغيير: أنهم يكونون أبناء سن واحدة وهي: ثلاث وثلاثون سنة، يستوي فيها ذكورهم وإناثهم، وكبار السن عند الوفاة وصغارها. عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (يدخل أهل الجنة الجنة مرداً بيضًا جعاداً مكحلين، أبناء ثلاث وثلاثين، على خلق آدم ستون ذراعًا في سبعة أذرع"(٥).

ومن وجوه التغيير: أنه تزول عنهم العزوبة ذكورهم وإناثهم، حتى يكون أقل ما للرجل الواحد منهم من النساء: زوجتان. عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (لكل امرئ منهم زوجتان كل واحدة منهما يرى مخ ساقها من وراء لحمها من الحسن يسبحون الله بكرة وعشيًا، لا يسقمون ولا يتمخطون ولا يبصقون)(٦)، زاد مسلم: (وما في الجنة أعزب).

قال ابن حجر: " قوله: (ولكل واحد منهم زوجتان) أي: من نساء الدنيا...، والذي يظهر أن المراد أن أقل ما لكل واحد منهم زوجتان"(٧).

---

(١ ) التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي (٢/ ٤٢٤).

(٢ ) المصدر السابق (٣/ ١٢٠).

(٣ ) رواه البخاري (٣/ ١٢١٠)، ومسلم (٤/ ٢١٧٨).

(٤ ) رواه البخاري (٥/ ٢٣٩٤).

(٥ ) رواه أحمد (٢/ ٢٩٥)، والطبراني، المعجم الأوسط (٥/ ٣١٨)، وحسنه الهيثمي والألباني. مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (١١/ ٣٤٧)، صحيح الترغيب والترهيب (٣/ ٢٥٦).

(٦ ) رواه البخاري (٣/ ١١٨٦)، ومسلم (٤/ ٢١٧٨).

(٧ ) فتح الباري (٦/ ٣٢٥).

## المطلب الرابع: التغيير في أحوال الناس في النار

**وفيه فرعان:**

**الفرع الأول: ما لا يتغير من أحوال الناس في النار**

**الفرع الثاني: ما يتغير من أحوال الناس في النار**

### الفرع الأول: ما لا يتغير من أحوال الناس في النار:

أهل النار صنفان: كفار، وعصاة المسلمين الذين غلبت سيئاتهم حسناتهم ولم تدركهم شفاعة تحول بينهم وبين دخول النار. فهؤلاء العصاة يبقون في النار معذبين زمناً إلى أن يشاء الله إخراجهم منها، قال الطحاوي: " وأهل الكبائر من أمة محمد صلى الله عليه وسلم في النار لا يخلدون إذا ماتوا وهم موحدون، وإن لم يكونوا تائبين بعد أن لقوا الله عارفين مؤمنين. وهم في مشيئته وحكمه: إن شاء غفر لهم وعفا عنهم بفضله كما ذكر عز وجل في كتابه: ( ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء )، وإن شاء عذبهم في النار بعدله، ثم يخرجهم منها برحمته وشفاعة الشافعين من أهل طاعته، ثم يبعثهم إلى جنته، وذلك بأن الله تعالى تولى أهل معرفته، ولم يجعلهم في الدارين كأهل نكرته، الذين خابوا من هدايته، ولم ينالوا من ولايته.. "[1]. ويدل على هذا نصوص نبوية فمنها:

قوله تعالى: { فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ }{خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ }[هود:١٠٦-١٠٧].

فقد قال كثير من العلماء: إن الاستثناء في الآية من الخلود نائل عصاة المسلمين الموحدين لله تعالى، إذ يعذبون بقدر ذنوبهم ثم يخرجون من النار إلى الجنة، كما دلت عليه الأحاديث الآتي ذكرها[2].

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ( يدخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، ثم يقول الله تعالى: أخرجوا من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان، فيخرجون منها قد اسودوا، فيلقون في نهر الحيا أو الحياة - شك مالك - فينبتون كما تنبت الحبة في جانب السيل، ألم تر أنها تخرج صفراء ملتوية)(٣).

وعن أنس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ( يخرج من النار من قال: لا إله إلا الله وفي قلبه وزن شعيرة من خير، ويخرج من النار من قال: لا إله إلا الله وفي قلبه وزن برة من خير، ويخرج من النار من قال: لا إله إلا الله وفي قلبه وزن ذرة من خير)(٤).

---

(١ ) العقيدة الطحاوية، للطحاوي (ص: ٤٥).

(٢ ) تفسير الطبري (١٥/ ٤٨٢)، المحرر الوجيز (٣/ ٢٢٢)، التسهيل لعلوم التنزيل (٢/ ٨)، التحرير والتنوير (١١/ ٣٣١)، تفسير ابن كثير (٤/ ٣٥١)، شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، لابن القيم (٢٥/ ٧).

(٣) رواه البخاري (١/ ١٦)، ومسلم (١/ ١٧٢).

(٤) رواه البخاري (١/ ٢٤).

وعن حماد عن عمرو عن جابر رضي الله عنه: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ( يخرج من النار بالشفاعة كأنهم الثعارير). قلت: وما الثعارير؟ قال: الضغابيس، وكان قد سقط فمه، فقلت لعمرو بن دينار: يا أبا محمد، سمعت جابر بن عبد الله يقول: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: ( يخرج بالشفاعة من النار ). قال: نعم(١)(٢).

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: قال النبي صلى الله عليه وسلم: ( إني لأعلم آخر أهل النار خروجًا منها، وآخر أهل الجنة دخولاً، رجل يخرج من النار حبواً فيقول الله: اذهب فادخل الجنة، فيأتيها فيخيل إليه أنها ملأى فيرجع فيقول: يا رب، وجدتها ملأى، فيقول: اذهب فادخل الجنة، فيأتيها فيخيل إليه أنها ملأى فيرجع، فيقول: يا ربي، وجدتها ملأى فيقول: اذهب فادخل الجنة؛ فإن لك مثل الدنيا وعشرة أمثالها، أو إن لك مثل عشرة أمثال الدنيا، فيقول: أتسخر مني أو تضحك مني وأنت الملك!). فلقد رأيت رسول الله صلى الله عليه و سلم ضحك حتى بدت نواجذه، وكان يقال: ذلك أدنى أهل الجنة منزلة)(٣).

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ( يخرج من النار أربعة، فيعرضون على الله فيلتفت أحدهم فيقول: أي رب، إذ أخرجتني منها فلا تعدني فيها، فينجيه الله منها)(٤).

فهذا التغيير الذي حصل لهم من الانتقال إلى الجنة بعد النار مظهر من مظاهر عدل الله ورحمته. حيث عذبهم بقدر ذنوبهم ثم أدخلهم الجنة حينما كانوا مقرين له بالوحدانية.

وأما الكفار فإن لهم أحوالاً دائمة لا تتغير وهي: استمرار سخط الله عليهم وعذابه لهم، والمكث في النار أبد الآبدين دون خروج، ودوام الأجسام والحياة في ذلك العذاب دون موت أو فناء.

قال تعالى: {يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُواْ مِنَ النَّارِ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ }[المائدة٣٧].

وقال: { إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيراً{٦٤} خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً لَّا يَجِدُونَ وَلِيّاً وَلَا نَصِيراً{٦٥}[الأحزاب ٦٤-٦٥]. وقال: {وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ }[فاطر٣٦]. وقال: {لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ }[الزخرف٧٥]. وقال تعالى: {وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَاماً} .

---

(١) قال ابن حجر: " أما الثعارير فقال ابن الأعرابي: هي قثاء صغار. وقال أبو عبيدة مثله وزاد ويقال بالشين المعجمة بدل المثلثة، وكأن هذا هو السبب في قول الراوي: وكان عمرو ذهب فمه -أي سقطت أسنانه- فنطق بها ثاء مثلثة وهي شين معجمة. وقيل: هو نبت في أصول الثمام كالقطن ينبت في الرمل ينبسط عليه ولا يطول. ووقع تشبيههم بالطراثيث في حديث حذيفة، وهي بالمهملة ثم المثلثة هي الثمام بضم المثلثة وتخفيف الميم، وقيل الثعرور الأقط الرطب. وأغرب القابسي فقال: هو الصدف الذي يخرج من البحر فيه الجوهر. وكأنه أخذه من قوله في الرواية الأخرى "كأنهم اللؤلؤ" ولا حجة فيه؛ لأن ألفاظ التشبيه تختلف، والمقصود الوصف بالبياض والدقة. وأما الضغابيس فقال الأصمعي: شيء ينبت في أصول التمام يشبه الهليون يسلق ثم يؤكل بالزيت والخل. وقيل ينبت في أصول الشجر وفي الإذخر يخرج قدر شبر في دقة الأصابع لا ورق له وفيه حموضة". فتح الباري (١١/ ٤٢٩).

(٢) رواه البخاري (٥/ ٢٣٩٩).

(٣) رواه البخاري (٥/ ٢٤٠٢)، ومسلم (١/ ١٧٣).

(٤) رواه مسلم (١/ ١٨٠).

ومعنى قوله: {كَانَ غَرَاماً}، أي: كان لازمًا دائمًا غير مفارق، ومنه سمي الغريم لملازمته، ويقال: فلان مغرم بكذا، أي: لازم له، مولع به[1].

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ( يؤتى بالموت كهيئة كبش أملح فينادي منادٍ: يا أهل الجنة، فيشرئبون وينظرون فيقول: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم، هذا الموت وكلهم قد رآه. ثم ينادي يا أهل النار، فيشرئبون وينظرون فيقول: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم، هذا الموت وكلهم قد رآه فيذبح. ثم يقول: يا أهل الجنة، خلود فلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت. ثم قرأ { وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضي الأمر وهم في غفلة – وهؤلاء في غفلة أهل الدنيا – وهم لا يؤمنون }[2].

قال القرطبي: "وفي هذه الأحاديث التصريح بأن خلود أهل النار فيها لا إلى غاية أمد، وإقامتهم فيها على الدوام بلا موت ولا حياة نافعة ولا راحة، كما قال تعالى: ( لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها ) وقال تعالى: (كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها ) قال: فمن زعم أنهم يخرجون منها، وأنها تبقى خالية أو أنها تفنى وتزول فهو خارج عن مقتضى ما جاء به الرسول، وأجمع عليه أهل السنة"(٣).

## الفرع الثاني: ما يتغير من أحوال الناس في النار:

إن هناك أحوالاً من التغيير الذي يحدث لأهل النار، ولكنه تغيير يزيد المعذب عذاباً والأليم ألما.

فمن وجوه ذلك التغيير: خلق أجسام عظام لأهل النار تتلاءم مع عذابهم، فكما أن أجسام أهل الجنة تتغير فكذلك أجسام أهل النار.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ( ضرس الكافر أو ناب الكافر مثل أحد، وغلظ جلده مسيرة ثلاث)(٤).

وعن أبي هريرة يرفعه قال: (ما بين منكبي الكافر في النار مسيرة ثلاثة أيام للراكب المسرع) (٥).

قال ابن حجر: "وقال القرطبي في المفهم: إنما عظم خلق الكافر في النار؛ ليعظم عذابه، ويضاعف ألمه، ثم قال: وهذا إنما هو في حق البعض، بدليل الحديث الآخر ( إن المتكبرين يحشرون يوم القيامة أمثال الذر في صور الرجال يساقون إلى سجن في جهنم يقال له: بولس )، قال: ولا شك في أن الكفار متفاوتون في العذاب، علم من الكتاب والسنة، ولأنا نعلم على القطع أن عذاب من قَتل الأنبياء وفتك في المسلمين، وأفسد في الأرض، ليس مساويًا لعذاب من كفر فقط، وأحسن معاملة المسلمين مثلاً قلت: أما الحديث المذكور فأخرجه الترمذي والنسائي بسند جيد عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، ولا

---

(١ ) أضواء البيان (٧/ ١٤٧).

(٢ ) رواه البخاري (٤/ ١٧٦٠)، ومسلم (٤/ ٢١٨٨).

(٣ ) فتح الباري (١٨/ ٣٩٧).

(٤ ) رواه مسلم (٤/ ٢١٨٩).

(٥ ) رواه البخاري (٥/ ٢٣٩٨)، ومسلم (٤/ ٢١٨٩).

حجة فيه لمدعاه؛ لأن ذلك إنما هو في أول الأمر عند الحشر، وأما الأحاديث الأخرى فمحمولة على ما بعد الاستقرار في النار"[1].

ومن وجوه التغيير: تبديل الجلود المحترقة بجلود أخرى، قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَاراً كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ الْعَذَابَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَزِيزاً حَكِيماً }[النساء٥٦].

"قوله { كلما نضجت جلودهم } يقال: نضج الشيء نضجًا ونضاجًا، ونضج اللحم، وفلان نضج الرأي: أي: محكمه، والمعنى: أنها كلما احترقت جلودهم بدلهم الله جلوداً غيرها: أي: أعطاهم مكان كل جلد محترق جلداً آخر غير محترق؛ فإن ذلك أبلغ في العذاب للشخص؛ لأن إحساسه لعمل النار في الجلد الذي يحترق أبلغ من إحساسه لعملها في الجلد المحترق، وقيل: المراد بالجلود: السرابيل التي ذكرها في قوله:{ سرابيلهم من قطران } ولا موجب لترك المعنى الحقيقي ها هنا، وإن جاز إطلاق الجلود على السرابيل مجازا كما في قول الشاعر:

كسا اللؤمُ تيمًا خضرة في جلودها ... فويل لتيم من سرابيلها الخضر

وقيل المعنى: أعدنا الجلد الأول جديداً، ويأبى ذلك معنى التبديل. قوله: { ليذوقوا العذاب } أي: ليحصل لهم الذوق الكامل بذلك التبديل، وقيل معناه: ليدوم لهم العذاب ولا ينقطع" [2].

---

(١ ) فتح الباري (١٨/ ٤٠٠).

(٢ ) فتح القدير (١/ ٧٢٤).

## الفصل الرابع: الأشياء التي لا يجري عليها التغيير

**وفيه خمسة مباحث:**

**المبحث الأول: الله جل جلاله**

**المبحث الثاني: القرآن الكريم**

**المبحث الثالث: دين الإسلام**

**المبحث الرابع: وعد الله للمؤمنين، ووعيده للكافرين في الدنيا والآخرة**

**المبحث الخامس: ما سبق في علم الله من الأقدار والآجال والأعمار والأرزاق والسعادة والشقاوة**

### المبحث الأول: الله جل جلاله

إن الله سبحانه وتعالى لم يزل هو المعبودَ الحق الذي لا شريك له، فلا رب سواه، ولا إله غيره، وهو موصوف بصفات الكمال والجلال والجمال من غير نقص فيها بوجه من الوجوه؛ ولهذا فهو باقٍ على كماله في ذاته وصفاته، لا يلحقه شيء من التغيير؛ ولذلك كان من أسمائه: الحي القيوم، وغيرهما من الأسماء الحسنى التي تدل على الدوام والثبات.

قال ابن تيمية: " فالرب تعالى لم يزل ولا يزال موصوفًا بصفات الكمال منعوتًا بنعوت الجلال والإكرام، وكماله من لوازم ذاته، فيمتنع أن يزول عنه شيء من صفات كماله، ويمتنع أن يصير ناقصًا بعد كماله، وهذا الأصل عليه قول السلف وأهل السنة: أنه لم يزل متكلمًا إذا شاء، ولم يزل قادراً، ولم يزل موصوفًا بصفات الكمال، ولا يزال كذلك فلا يكون متغيراً، وهذا معنى قول من يقول: يا من يغير، ولا يتغير؛ فإنه يحيل صفات المخلوقات؛ ويسلبها ما كانت متصفة به إذا شاء؛ ويعطيها من صفات الكمال ما لم يكن لها؛ وكماله من لوازم ذاته؛ لم يزل ولا يزال موصوفا بصفات الكمال؛ قال تعالى: {كل شيء هالك إلا وجهه}، وقال تعالى: {كل من عليها فان} {ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام}"(١).

فالله تعالى هو الذي يجري وجوه التغيير على خلقه كما يريد، ولا يجري خلقه عليه شيئاً من ذلك.

فهو الذي ينيم ولا ينام، ويميت ولا يموت، ويُهلك ولا يهلك، فهذه التغييرات للمخلوقات تنزه عنها الله تعالى؛ لكمال حياته وقيوميته وغناه وقدرته.

قال تعالى: {اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ}[البقرة٢٥٥].

فمن صفات الإنسان الملازمة له: الضعف والعجز؛ ولذلك يطرأ عليه الفتور بعد النشاط، والنوم بعد الصحو، والسكون بعد الحركة، فهذه التغيرات مظاهر لتينك الصفتين: الضعف والعجز، أما الله تعالى فهو القوي القادر والحي القيوم؛ فلذلك كان منزهًا عن النوم ومقدماته." لأن النوم والسهو والغفلة محال على الله تعالى؛ لأن هذه الأشياء عبارة عن عدم العلم، وذلك نقص وآفة، والله تعالى منزه عن النقص والآفات ، وأن ذلك تغير والله تعالى منزه عن التغير"(٢).

---

(١ ) مجموع الفتاوى، لابن تيمية (٦/ ٢٥٠).

(٢ ) تفسير الخازن (١/ ٢٦٨).

عن أبي موسى رضي الله عنه قال: قام فينا رسول الله –صلى الله عليه وسلم– بخمس كلمات فقال: ( إن الله عز وجل لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار، وعمل النهار قبل عمل الليل، حجابه النور – وفى رواية أبى بكر: النار – لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه)(١).

قوله صلى الله عليه وسلم: (لا ينام ولا ينبغي له أن ينام) معناه: أنه سبحانه وتعالى لا ينام، وأنه يستحيل في حقه النوم؛ فإن النوم انغمار وغلبة على العقل يسقط به الإحساس، والله تعالى منزه عن ذلك وهو مستحيل في حقه جل وعلا"(٢).

وقال تعالى: {وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ }[القصص٨٨].

قال ابن عاشور: "والمعنى: كل موجود هالك إلا الله تعالى. والهلاك: الزوال والانعدام"(٣).

إن الموت من التغيير الذي يطرأ على الحوادث، والإنسان محل للحوادث، فحينما كان للإنسان ابتداء كان له انتهاء، وعندما خُلق خلقًا يأتي عليه الفناء لم يستمر له البقاء فأدركه الهلاك الذي ظل يلاحقه منذ ولد، أما الله تعالى وتقدس فلا يجري عليه هذا التغيير؛ لأنه أولٌ بلا ابتداء وآخر بلا انتهاء، وهو الخالق وغيره المخلوق، وهو الباقي وما سواه الفاني. قال تعالى: {كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ }{وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ }الرحمن٢٦-٢٧]. قال ابن كثير: " يخبر تعالى أن جميع أهل الأرض سيذهبون ويموتون أجمعون، وكذلك أهل السموات، إلا من شاء الله، ولا يبقى أحد سوى وجهه الكريم؛ فإن الرب – تعالى وتقدس–لا يموت، بل هو الحي الذي لا يموت أبدا"(٤).

فالملك ملكه والخلق خلقه يغيرهم كما يشاء بما يشاء، {لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ }[الحديد٢].

---

(١ ) رواه مسلم (١/ ١٦١).

(٢ ) شرح النووي على مسلم (٣/ ١٣).

(٣ ) التحرير والتنوير (٢٠/ ١٢٤).

(٤ ) تفسير ابن كثير (٧/ ٤٩٤).

## المبحث الثاني: القرآن الكريم

القرآن كتاب الله الخالد، والمعجزة الباقية، والنور الذي لا يأفل مع تواتر الأزمان وتوالي الدهور. هكذا أراد الله لهذا الكتاب العظيم أن يكون بعد إنزاله على رسوله محمد عليه الصلاة والسلام.

ونريد بالتغيير المنفي عنه أنه لا يمكن لأحد من الخلق أن يحدث فيه تغييراً فيحرف أو يذهب نصه الذي أنزله الله تعالى ويبقى كذلك بين الناس؛ وذلك لأن الله تعالى تكفل بحفظه، قال تعالى: {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ }[الحجر٩].

إن القرآن الكريم معجزة رسول الله المستمرة؛ ولذلك لن يتبدل إلى قيام الساعة، قال النبي صلى الله عليه وسلم:( ما من الأنبياء نبي إلا أعطي ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحيًا أوحاه الله إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة)(١).

ذكر ابن حجر عدة احتمالات لمعنى الحديث: ومنها قوله: " وقيل: المراد أن معجزات الأنبياء انقرضت بانقراض أعصارهم فلم يشاهدها إلا من حضرها، ومعجزة القرآن مستمرة إلى يوم القيامة، وخرقه للعادة في أسلوبه وبلاغته وإخباره بالمغيبات، فلا يمر عصر من الأعصار إلا ويظهر فيه شيء مما أخبر به أنه سيكون يدل على صحة دعواه، وهذا أقوى المحتملات"(٢).

إن نفي التغيير عن القرآن الكريم الذي يراد هنا هو على هذا الكتاب الذي بين أيدينا ومات النبي عليه الصلاة والسلام وهو كذلك. أما النسخ اللفظي والحكمي أو اللفظي فقط الذي حدث في عهد رسول الله فهذا من عند الله تعالى، وقد الحديث عن ذلك في التغيير الفقهي المحمود.

وهذا النسخ هو لله تعالى وحده، ولم يكلِ الله لأحد أن يغير في كتابه شيئاً حتى رسوله عليه الصلاة والسلام. قال تعالى: {وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاء نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ }[يونس١٥].

فقد أمر الله تعالى في هذه الآية الكريمة نبيه صلى الله عليه وسلم أن يقول: إنه ما يكون له أن يبدل شيئاً من القرآن من تلقاء نفسه، يعني إن هذا الذي طلبتموه من التبديل ليس إليّ، وما ينبغي لي أن أغيره من قبل نفسي ولم أومر به، ويفهم من قوله: {مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي}، أن الله تعالى يبدل منه ما شاء بما شاء. والتبديل يكون في الذات بأن يجعل بدل ذات ذاتًا أخرى، ويكون في الصفة. والتبديل هنا هو في الصفة، وهو أن يزال بعض نظمه بأن يجعل مكان آية العذاب آية الرحمة، ولا يراد بالتبديل هنا أن يكون في الذات؛ لأنه يلزم جعل الشيء المقتضي للتغاير هو الشيء بعينه؛ لأن التبديل في الذات هو الإتيان بقرآن غير هذا. ولما كان الإتيان بقرآن غير هذا غير مقدور للإنسان لم يحتج إلى نفيه، ونفي ما هو مقدور للإنسان، وإن كان مستحيلاً ذلك في حقه صلى الله عليه وسلّم فقيل له: قل ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي. وانتفاء الكون هنا هو كقوله تعالى: {مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَآ} أي: يستحيل ذلك. ويحتمل أن يكون التبديل في الذات على أن يلحظ في قوله: {ائت بقرآن غير هذا} بقاء هذا القرآن ويؤتى بقرآن غيره، فيكون {أو بدله} بمعنى أزله بالكلية وائت ببدله، فيكون المطلوب أحد أمرين: إما إزالته بالكلية وهو التبديل في الذات، وإما الإتيان بغيره مع بقائه فيحصل التغاير بين

---

(١ ) رواه البخاري (٤/ ١٩٠٥)، ومسلم (١/ ١٣٤).

(٢ ) فتح الباري (٩/ ٧).

المطلوبين، فكان المراد بالغير في قولهم: {غير هذا} كلامًا غير الذي جاء به من قبل لا يكون فيه ما يكرهونه ويغيظهم. كأن يعمد إلى القرآن الموجود فيغير الآيات المشتملة على عبارات ذم الشرك بمدحه، وعبارات ذم أصنامهم بالثناء عليها، وعبارات البعث والنشر بضدها، وعبارات الوعيد لهم بعبارات بشارة.

فتبين أنهم طلبوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم لما سمعوا ما غاظهم فيما تلاه عليهم من القرآن من ذم عبادة الأوثان والوعيد الشديد لمن عبدها أحد أمرين: إما الإتيان بقرآن غير هذا القرآن مع بقاء هذا القرآن على حاله وإما تبديل هذا القرآن بنسخ بعض آياته أو كلها ووضع أخرى مكانها مما يطابق إرادتهم ويلائم غرضهم فأمره الله أن يقول في جوابهم: { ما يكون لي }أي: ما ينبغي لي ولا يحل لي أن أبدله من تلقاء نفسي، فنفى عن نفسه أحد القسمين وهو التبديل؛ لأنه الذي يمكنه لو كان ذلك جائزاً بخلاف القسم الآخر وهو الإتيان بقرآن آخر، فإن ذلك ليس في وسعه ولا يقدر عليه، وقيل: إنه صلى الله عليه وسلم نفى عن نفسه أسهل القسمين؛ ليكون دليلاً على نفي أصعبهما بالطريق الأول(١).

وحينما نقارن في قضية الحفظ بين القرآن والكتب السماوية السابقة نجد أن الكتب السماوية السابقة للقرآن الكريم وكلَ الله حفظَها للبشر فلذلك امتدت إليها يد التغيير بالتحريف لألفاظها ومبانيها، ولم تدم طويلاً على ما أُنزلت عليه.

قال تعالى: {إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَابِ اللّهِ وَكَانُواْ عَلَيْهِ شُهَدَاء فَلاَ تَخْشَوُاْ النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلاَ تَشْتَرُواْ بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ }[المائدة٤٤].

أخبر تعالى في هذه الآية الكريمة أن الأحبار والرهبان استُحفِظوا كتاب الله يعني: استودعوه، وطلب منهم حفظه، ولم يبين هنا هل امتثلوا الأمر في ذلك وحفظوه، أو لم يمتثلوا الأمر في ذلك وضيعوه؟ ولكنه بين في مواضع أخر أنهم لم يمتثلوا الأمر، ولم يحفظوا ما استحفظوه، بل حرفوه وبدلوه عمداً كقوله: {يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ} الآية. وقوله: {يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ}، وقوله: {تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيراً}، وقوله: {فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ} الآية ، وقوله جل وعلا: {وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقاً يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ}(٢).

ومن لطائف القاضي إسماعيل بن إسحاق بن حماد ما حكاه عياض في المدارك عن أبي الحسن ابن المنتاب، قال:"كنت عند إسماعيل يومًا فسئل: لم جاز التبديل على أهل التوراة، ولم يجز على أهل القرآن؟ فقال: "لأن الله تعالى قال في أهل التوراة: {بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ} فوكل الحفظ إليهم. وقال في القرآن: {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُون} [الحجر:٩]، فتعهد الله بحفظه، فلم يجز التبديل على أهل القرآن". قال:" فذكرت ذلك للمحاملي، فقال:" لا أحسن من هذا الكلام"(٣).

---

(١ ) أضواء البيان (٢/ ١٥٢)، التحرير والتنوير (١١/ ٣٨)، تفسير البحر المحيط، لأبي حيان (٥/ ١٠٨)، تفسير الخازن (٣/ ١٧٩)، فتح القدير (٢/ ٦٢٣).

(٢ ) أضواء البيان (١/ ٤٠٤).

(٣ ) التحرير والتنوير (٥/ ١١٤).

ويذكر أنه كان للمأمون – وهو أمير إذ ذاك – مجلس نظر، فدخل في جملة الناس رجل يهودي حسن الثوب حسن الوجه طيب الرائحة، قال: فتكلم فأحسن الكلام والعبارة، قال: فلما أن تقوّض المجلس دعاه المأمون فقال له: إسرائيلي؟ قال: نعم. قال له: أسلم، حتى أفعل بك وأصنع ووعده. فقال: ديني ودين آبائي! وانصرف. قال: فلما كان بعد سنة جاءنا مسلمًا، قال: فتكلم على الفقه فأحسن الكلام، فلما تقوّض المجلس دعاه المأمون وقال: ألست صاحبنا بالأمس؟ قال له: بلى. قال: فما كان سبب إسلامك؟ قال: انصرفت من حضرتك فأحببت أن أمتحن هذه الأديان، وأنت مع ما تراني حسن الخط، فعمدت إلى التوراة فكتبت ثلاث نسخ فزدت فيها ونقصت، وأدخلتها الكنيسة فاشُتريت مني، وعمدت إلى الإنجيل فكتبت ثلاث نسخ فزدت فيها ونقصت، وأدخلتها البيعة فاشُتريت مني، وعمدت إلى القرآن فعملت ثلاث نسخ وزدت فيها ونقصت، وأدخلتها الوراقين فتصفحوها، فلما أن وجدوا فيها الزيادة والنقصان رموا بها فلم يشتروها، فعلمت أن هذا كتاب محفوظ، فكان هذا سبب إسلامي. قال يحيى بن أكثم: فحججت تلك السنة فلقيت سفيان بن عيينة فذكرت له الخبر فقال لي: مصداق هذا في كتاب الله عز وجل. قال: قلت: في أي موضع؟ قال: في قول الله تبارك وتعالى في التوراة والانجيل: { بما استحفظوا من كتاب الله }، فجعل حفظه إليهم فضاع، وقال عز وجل: { إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون } فحفظه الله عز وجل علينا فلم يضع(١).

قال الشنقيطي: "إن قيل: ما الفرق بين التوراة والقرآن؛ فإن كلاً منهما كلام الله أنزله على رسول من رسله صلوات الله وسلامه عليهم، والتوراة حرفت، وبدلت كما بيناه آنفاً، والقرآن محفوظ من التحريف والتبديل، لو حرف منه أحد حرفاً واحداً فأبدله بغيره، أو زاد فيه حرفاً أو نقص فيه آخر لرد عليه آلاف الأطفال من صغار المسلمين فضلاً عن كبارهم؟

فالجواب: أن الله استحفظهم التوراة، واستودعهم إياها فخانوا الأمانة ولم يحفظوها، بل ضيعوها عمداً، والقرآن العظيم لم يكل الله حفظه إلى أحد حتى يمكنه تضييعه، بل تولى حفظه جل وعلا بنفسه الكريمة المقدسة، كما أوضحه بقوله: {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ} [٩/١٥]، وقوله: {لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ} الآية [٤٢/٤١] (٢).

إذن القرآن الكريم لم يوكل حفظه إلى الناس، ولو حصل ذلك لغير كما غيرت الكتب الأخرى، لكن تكفل الله تعالى بحفظ هذا الكتاب الخاتم فقال تعالى: {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ }[الحجر٩].

فقد بين تعالى في هذه الآية الكريمة أنه هو الذي نزل القرآن العظيم وأنه حافظ له من الباطل ومن الشياطين وغيرهم أن يزيدوا فيه وينقصوا منه أو يغيروا شيئاً ويبدلوا منه حرفًا، وبين هذا المعنى في مواضع أُخر كقوله: {وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ} [٤١/٤١- ٤٢]، وقوله: {لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ} [١٦/٧٥] إلى قوله: {ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ} [١٩/٧٥]، وهذا هو الصحيح في معنى هذه الآية: أن الضمير في قوله: {وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ} [٩/١٥]، راجع إلى الذكر الذي هو القرآن، وقيل: الضمير راجع إلى النَّبي صلى الله عليه وسلم كقوله: {وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ} [٦٧/٥]، والأول هو الحق كما يتبادر من ظاهر السياق(٣).

---

(١ ) تفسير القرطبي (٥/١٠).

(٢ ) أضواء البيان (٤٠٥/١).

(٣ ) أضواء البيان (٢/ ٢٥٥)، الكشف والبيان، للثعلبي (٥/ ٣٣١).

وقال تعالى: { بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ } أي: وسيع المعاني عظيمها، كثير الخير والعلم. { فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ } من التغيير والزيادة والنقص، ومحفوظ من الشياطين، وهو: اللوح المحفوظ الذي قد أثبت الله فيه كل شيء، وهذا يدل على جلالة القرآن وجزالته، ورفعة قدره عند الله تعالى، والله أعلم[1].

إن من يحاول أن يصنع شيئاً من التبديل في القرآن الكريم فضحه الله وأبان للناس جريرته؛ لأن من مظاهر حفظ الله للقرآن: كثرةَ عناية الأمة بحفظه في صدورها وتنشئة الأجيال على ذلك فما من أحد يريد إحداث خلل فيه إلا عرف في الناس حدثه مهما دق؛ لوجود اعتناء الأمة بحفظه في الصدور وكثرة نسخه المدونة في السطور، وهذا الاعتناء قد بدأ منذ فجر الإسلام مروراً بعصر الصحابة رضي الله عنهم فمن بعدهم. فقد اعتنى الصحابة الكرام بالقرآن الكريم حفظاً وتدويناً وجمعاً في حياة رسول الله وبعد وفاته فحصل الجمع الأول للقرآن في مصاحف بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم في عهد أبي بكر ثم الجمع الثاني في عهد عثمان، فكان ذلك مظهراً من مظاهر حفظ القرآن الكريم. ثم توالى اعتناء الأمة به بعد ذلك في أشياء كثيرة إلى يومنا هذا.

عن زيد بن ثابت قال: (بعث إلي أبو بكر مقتل أهل اليمامة وعنده عمر فقال أبو بكر: إن عمر أتاني فقال: إن القتل قد استحرّ يوم اليمامة بقرّاء القرآن وإني أخشى أن يستحر القتل بقراء القرآن في المواطن كلها فيذهب قرآن كثير، وإني أرى أن تأمر بجمع القرآن، قلت: كيف أفعل شيئًا لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال عمر: هو والله خير، فلم يزل عمر يراجعني في ذلك حتى شرح الله صدري للذي شرح له صدر عمر، ورأيت في ذلك الذي رأى عمر . قال زيد: قال: أبو بكر: وإنك رجل شاب عاقل لا نتهمك، قد كنت تكتب الوحي لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فتتبع القرآن فاجمعه . قال زيد: فوالله لو كلفني نقلَ جبل من الجبال ما كان بأثقل علي مما كلفني من جمع القرآن. قلت: كيف تفعلان شيئًا لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال أبو بكر: هو والله خير، فلم يزل يحث مراجعتي حتى شرح الله صدري للذي شرح الله له صدر أبي بكر وعمر، ورأيت في ذلك الذي رأيا، فتتبعت القرآن أجمعه من العسب والرقاع واللخاف وصدور الرجال، فوجدت في آخر سورة التوبة: { لقد جاءكم رسول من أنفسكم }. إلى آخرها مع خزيمة أو أبي خزيمة فألحقتها في سورتها فكانت الصحف عند أبي بكر حياتَه حتى توفاه الله عز وجل، ثم عند عمر حياته حتى توفاه الله، ثم عند حفصة بنت عمر)(٢).

قال الزركشي: " فثبت أن القرآن كان على هذا التأليف والجمع في زمن النبي صلى الله عليه وسلم، وإنما ترك جمعه في مصحف واحد لأن النسخ كان يَرِد على بعض، فلو جمعه ثم رفعت تلاوة بعض لأدى إلى الاختلاف واختلاط الدين، فحفظه الله في القلوب إلى انقضاء زمان النسخ، ثم وفق لجمعه الخلفاء الراشدين"(٣).

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه: (أن حذيفة بن اليمان قدم على عثمان وكان يغازي أهل الشام في فتح إرمينية وأذربيجان مع أهل العراق، فأفزع حذيفة اختلافهم في القراءة، فقال حذيفة لعثمان: يا أمير المؤمنين، أدرك هذه الأمة قبل

---

(١ ) تفسير السعدي (ص: ٩١٨).

(٢ ) رواه البخاري (٤/ ١٩٠٧).

(٣ ) البرهان في علوم القرآن، للزركشي (١/ ٢٣٥).

أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى. فأرسل عثمان إلى حفصة أن أرسلي إلينا بالصحف ننسخها في المصاحف ثم نردها إليك، فأرسلت بها حفصة إلى عثمان، فأمر زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن ابن الحارث بن هشام فنسخوها في المصاحف، وقال عثمان للرهط القريشيين الثلاثة: إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش؛ فإنما نزل بلسانهم فافعلوا، حتى إذا نسخوا الصحف في المصاحف رد عثمان الصحف إلى حفصة، وأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا، وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يحرق، قال ابن شهاب: وأخبرني خارجة بن زيد بن ثابت سمع زيد بن ثابت قال: فقدت آية من الأحزاب حين نسخنا المصحف قد كنت أسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ بها فالتمسناها فوجدناها مع خزيمة بن ثابت الأنصاري { من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه } . فألحقناها في سورتها في المصحف) (١).

قال ابن حجر: "قال ابن التين وغيره: الفرق بين جمع أبي بكر وبين جمع عثمان: أن جمع أبي بكر كان لخشية أن يذهب من القرآن شيء بذهاب حملته؛ لأنه لم يكن مجموعًا في موضع واحد، فجمعه في صحائف مرتبًا لآيات سوره على ما وقفهم عليه النبي صلى الله عليه وسلم، وجمع عثمان كان لما كثر الاختلاف في وجوه القرآن حين قرأوه بلغاتهم على اتساع اللغات، فأدى ذلك ببعضهم إلى تخطئة بعض، فخشي من تفاقم الأمر في ذلك، فنسخ تلك الصحف في مصحف واحد مرتبًا لسوره، واقتصر من سائر اللغات على لغة قريش، محتجًا بأنه نزل بلغتهم، وإن كان قد وسع في قراءته بلغة غيرهم رفعًا للحرج والمشقة في ابتداء الأمر، فرأى أن الحاجة إلى ذلك انتهت فاقتصر على لغة واحدة ، وكانت لغة قريش أرجح اللغات فاقتصر عليها "(٢).

وسيبقى القرآن الكريم محفوظًا في الصدور والسطور حتى يأذن الله تعالى برفعه قبيل قيام الساعة، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يدرس الإسلام كما يدرس وشي الثوب، حتى لا يدرى ما صيام ولا صلاة ولا نسك ولا صدقة، وليُسرى على كتاب الله عز وجل في ليلة فلا يبقى في الأرض منه آية)(٣).

وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: "أول ما تفقدون من دينكم الأمانة، وآخر ما تفقدون الصلاة، وأن هذا القرآن كأنه قد نزع منكم، تصبحون يومًا وما معكم منه شيء، فقال رجل: كيف يكون ذلك يا أبا عبد الرحمن، وقد ثبتناه في قلوبنا وأثبتناه في مصاحفنا، نعلمه أبناءنا ويعلمه أبناؤنا أبناءهم إلى يوم القيامة ؟! قال: يسرى به في ليلة فيذهب بما في المصاحف وما في القلوب، فتصبح الناس كالبهائم"(٤).

---

(١ ) رواه البخاري (٤/ ١٩٠٨).

(٢ ) فتح الباري (١٤/ ١٩٤).

(٣ ) رواه ابن ماجه (٢/ ١٣٤٤)، والحاكم (٤/ ٥٨٧)، وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير (٢٩/ ٣٧)، وقوى سنده ابن حجر في فتح الباري (١٣/ ١٦).

(٤ ) رواه الحاكم (٤/ ٥٤٩)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد و لم يخرجاه، والطبراني، المعجم الكبير (٩/ ١٤١)، وابن أبي شيبة مصنف ابن أبي شيبة (٧/ ١٩٢).

وعند الطبراني عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه – "ولينزعن القرآن من بين أظهركم يسرى عليه ليلاً فيذهب من أجواف الرجال فلا يبقى في الأرض منه شيء، ثم قرأ عبد الله:{ولئن شئنا لنذهبن بالذي أوحينا إليك}" الآية[1].

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: "لا تقوم الساعة حتى يرجع القرآن من حيث جاء فيكون له دوي حول العرش كدوي النحل فيقول الرب عز وجل: مالك ؟ فيقول: منك خرجت، وإليك أعود أتلى فلا يعمل بي، فعند ذلك يرفع القرآن"[2].

قال القرطبي: وإنما يكون هذا بعد موت عيسى وبعد هدم الحبشة الكعبة[3].

(١) المعجم الكبير (٩/ ١٤١).

(٢ ) رواه الديلمي في مسنده. كما في جمع الجوامع أو الجامع الكبير للسيوطي (ص: ١٨٤٧٦).

(٣ ) التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة، للقرطبي (٢/ ٢٦١)، وينظر في المسألة: فتح الباري (١٣/ ١٦)، تفسير القرطبي (١٠/ ٣٢٥)، روح المعاني، للألوسي (١٥/ ١٦٥)، مجموع الفتاوى، لابن تيمية (٣/ ١٧٤)، التسهيل لعلوم التنزيل (٢/ ١١٨).

## المبحث الثالث: دين الإسلام

إن دين الإسلام الذي جاء به محمد عليه الصلاة والسلام هو الدين الخاتم الذي ارتضاه الله لعباده، ولن يأتي دين عقبه لينسخه، هذا الذي يراد بنفي التغيير عنه هنا؛ لأن الله تعالى كتب له البقاء والخلود، فلا يمكن تغييره تغيير إزالة ومحو عن الوجود، قال تعالى: { الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا ..}[المائدة:٣]. أي: ورضيت إسلامكم الذي أنتم عليه اليوم دينًا باقيًا بكماله، يعني: اخترته لكم من بين الأديان وآذنتكم بأنه هو الدين المرضي وحده، وإتمام النعمة هو في ظهور الإسلام ونور العقائد، وإكمال الدين وسعة الأحوال وغير ذلك مما انتظمته هذه الملة الحنيفية إلى دخول الجنة والخلود في رحمة الله(١).

إن ثبات الإسلام وقوته –أمام عواصف التغيير والإزالة التي تروم محوه من البسيطة– تكمن في حفظ الله له وحراسته لبيضته من الاستئصال، ولأهله من الزوال، فعن ثوبان رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ( إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها، وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوي لي منها، وأعطيت الكنزين: الأحمر والأبيض وإني سألت ربي لأمتي أن لا يهلكها بسنة عامة، وأن لا يسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم، وإن ربي قال: يا محمد، إذا قضيت قضاء فإنه لا يرد، وإني أعطيتك لأمتك أن لا أهلكهم بسنة عامة، وأن لا أسلط عليهم عدواً سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم، ولو اجتمع عليهم من بأقطارها حتى يكون بعضهم يهلك بعضًا ويسبي بعضهم بعضًا"(٢). قال ابن الأثير في معنى قوله: (فيستبيح بيضتهم): " أي: مجتمعهم وموضع سلطانهم، ومستقر دعوتهم، وبيضة الدار: وسطها ومعظمها، أراد عدواً يستأصلهم ويهلكهم جميعهم(٣).

ويكمن رسوخه وبقاؤه كذلك في عقائده وأحكامه وأخلاقه التي جاء بها فوافقت الفطر السليمة والعقول المستقيمة، هذه المبادئ التي لا يمكن أن تؤطر في زمان دون زمان، ولا في مكان دون مكان، ولا في أمة دون أخرى، بل هو صالح لجميع ذلك. وقد انتظم ذكرَ ذلك بأبدع لفظ وأرشق معنى: كتاب الله القرآن الكريم، وقد امتثل ذلك أحسن امتثال رسول الله محمد عليه الصلاة والسلام.

قال ابن عاشور: " فالإسلام أشرف الأديان؛ لأنّ معجزة صدقه القرآن، وهو معجزة تُدرك بالعقل، ويستوي في إدراك إعجازِها جميع العصور، وخُلّو هذا الدين عن جميع العيوب في الاعتقاد والفعل، فهو خلي عن إثبات ما لا يليق بالله تعالى، وخلي عن وضع التكاليف الشاقّة، وخلي عن الدعوة إلى الإعراض عن استقامة نظام العالم ...وظهور الإسلام على الدين كلّه حصل في العالم باتّباع أهل الملل إيّاه في سائر الأقطار، بالرغم على كراهية أقوامهم وعظماء مللهم ذلك، ومقاومتهم إياه بكلّ حيلة ومع ذلك فقد ظهر وعلا وبان فضله على الأديان التي جاورها، وسلامته من الخرافات والأوهام التي تعلّقوا بها، وما صلحت بعضُ أمورهم إلاّ فيما حاكوه من أحوال المسلمين وأسباب نهوضهم "(٤).

---

(١ ) تفسير القرطبي (٦/ ٦٣)، تفسير الكشاف (١/ ٦٣٩)، المحرر الوجيز (٢/ ١٨٠).

(٢ ) رواه مسلم (٤/ ٢٢١٥).

(٣ ) النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير (١/ ٤٥١).

(٤ ) التحرير والتنوير (١٠/ ٧٤).

وقال محمد الغزالي: " القرآن هو الكتاب الفذ الذى لا يعرف غيره عصر العلم، ومحمد صلى الله عليه وسلم هو الإنسان الذى تتجسد فيه أشواق البشر إلى التسامي والروحانية. وذاك سر بقاء الإسلام إلى يوم الناس هذا، وسر خلوده إلى يوم يبعثون! مع أن الظروف التاريخية التي اكتنفته تشبه العواصف التي تعرقل سير السفينة"[١].

ومن أحكامه التي كانت من أسباب بقائه: استمرار الجهاد في سبيل الله تعالى؛ لإزاحة حجب الظلمات التي تقف أمام مسيرة النور والهدى حتى يصل الحق إلى أقاصي الناس كما وصل إلى أدانيهم.

فعن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:( لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة)[٢].

وعن عروة البارقي رضي الله عنه: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ( الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة الأجر والمغنم )(٣).

قال النووي: " وفيه دليل على بقاء الاسلام والجهاد إلى يوم القيامة، والمراد قبيل القيامة بيسير، أي: حتى تأتى الريح الطيبة من قبل اليمن تقبض روح كل مؤمن ومؤمنة كما ثبت في الصحيح"[٤].

وقال ابن حجر: " وفيه أيضًا بشرى ببقاء الإسلام وأهله إلى يوم القيامة؛ لأن من لازم بقاء الجهاد بقاء المجاهدين وهم المسلمون"[٥].

وقال ابن حزم: " واعلموا أنه لولا المجاهدون لهلك الدين، ولكنا ذمة لأهل الكفر، فتدبروا هذا؛ فإنه أمر عظيم، وإنما هذا كله إذا صفت النيات وكانت لله"(٦).

ولم يزل الإسلام باستمرار الفتوحات الإسلامية قوة تغييرية تشق عباب الزمان والمكان، يغير غيرَه ولا يغيره غيره- لأن قوته التغييرية من قوة الله تعالى- إلى أن مالَ كثير من أهله إلى الدعة وإيثار السلامة المزعومة فتركوا نشره بالفتوحات والجهاد حتى بدأ سلطانه يضعف في الأرض أمام سلطان الباطل.

ولكن رغم ضعف المسلمين المتنوع اليوم، وسوء أعمال كثير منهم، وغياب بعض تعاليمه الناصعة وكثرة البدع والمبتدعين بينهم إلا أن الإسلام باقٍ ويزداد. فمراحل الضعف عند أهله في بعض الأحوال لا تعني الامحاء والذهاب، ولكنها إبطاء في سيره الحثيث نحو الانتشار وبسط سلطان الحق.

لقد جرت محاولات كثيرة قديماً وما زالت تجري حديثاً لمحو هذا الدين وطمسه من الأرض إما بحربه وحرب أهله عسكريًا، وإما بحربه ثقافيًا وفكريًا كتشويهه وتصويره بصور سيئة حتى يصدوا الناس عنه، ولكن تلك المحاولات -بحمد الله- تبوء

---

(١ ) الطريق من هنا، للغزالي (ص: ٧٥).

(٢ ) رواه مسلم (١/ ١٣٧).

(٣ ) رواه البخاري (٣/ ١٠٤٨)، ومسلم (٣/ ١٤٩٣).

(٤ ) شرح النووي على مسلم (٧/ ٦٩).

(٥ ) فتح الباري (٦/ ٥٦).

(٦ ) رسائل ابن حزم (٣/ ١٥٤).

بالخسران، بل إنها تزيده امتداداً واشتداداً. ولا أدل على ذلك من أن الحملات العدوانية المعاصرة والتي تحارب الإسلام تحت مسميات شتى كانت من أسباب دخول آلاف من النصارى وغيرهم دينَ الإسلام.

قال محمد الغزالي: " إن كل عمل يقوم على إقصاء الإسلام، واستبعاد وحيه والتجهم لهديه يستحيل أن يكلل إلا بالعار... ومن ثم فلن تنجح أبداً في بلاد الإسلام ثورة تدوس عقائده وشرائعه، وتهمل أوامره ونواهيه، إن انتشار الإلحاد في بعض البلدان لا يدهشني! وإنما يدهشني بقاء الإسلام إلى اليوم مع الحروب المتصلة المبيدة، الجلي منها والخفي، التي تعرَّضَ لها هذا الدين... هذه الحروب التي سخرت كل أداة للنيل منه والتزهيد فيه، والشغب عليه..!! ولكن الأمر اليوم جد لا يتحمل الهزل، وحق لا يستسيغ الباطل!"(١).

يقول تعالى: {يُرِيدُونَ أَن يُطْفِؤُواْ نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ }{هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ }[التوبة٢٣-٣٣].

قال السمرقندي: "يعني: يريدون أن يردوا القرآن تكذيبًا بألسنتهم، ويقال: يريدون أن يغيروا دين الإسلام بألسنتهم، ويقال: يريدون أن يبطلوا كلمة التوحيد بكلمة الشرك { ويأبى الله } يعني: لا يرضى الله ولا يترك { إلا أن يتم نوره }يعني: يظهر دينه الإسلام { ولو كره الكافرون } فيظهره. ثم قال تعالى: { هو الذي أرسل رسوله بالهدى } يعني: بالقرآن والتوحيد { ودين الحق } يعني: دين الإسلام ويقال: دين الله { ليظهره على الدين كله} حتى يظهره بالحجة على الدين كله، ويقال: بالقهر والغلبة والرعب في قلوب الكفار، وقال ابن عباس: { ليظهره على الدين كله}يعني: بعد نزول عيسى عليه السلام لا يبقى أحد إلا ودخل في دين الإسلام"(٢).

وقال ابن كثير: "يقول تعالى: يريد هؤلاء الكفار من المشركين وأهل الكتاب { أن يطفئوا نور الله } أي: ما بعث به رسوله من الهدى ودين الحق، بمجرد جدالهم وافترائهم، فمثلهم في ذلك كمثل من يريد أن يطفئ شعاع الشمس، أو نور القمر بنفخه، وهذا لا سبيل إليه، فكذلك ما أرسل الله به رسوله لابد أن يتم ويظهر؛ ولهذا قال تعالى مقابلاً لهم فيما راموه وأرادوه: {ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون }"(٣).

إن المرحلة التي يعيشها العالم الإسلامي اليوم من الانحطاط والتبعية لأعداء الله هي مقدمة بين يدي حدثين عظيمين ثم تقوم عقبهما الساعة:

**الحدث الأول: قوة ظهور الإسلام وامتداده:**

لقد وعد الله تعالى المسلمين-متى ما استقاموا على الحق- استمرارَ دينهم وعلوه وسيادته واتساع نطاقه على كل دين سواه، وما هذه المدة التي بقي فيها المسلمون مشغولين بجراحهم إلا مرحلة مداواة تعقبها معافاة ينهض عندها جسد الأمة لاستقبال مولود النصر الموعود، وبشائر هذا المستقبل الوضّاء بدت تلوح في الأفق.

---

(١ ) الإسلام والطاقات المعطلة، للغزالي (ص: ١٣٣).

(٢ ) بحر العلوم، للسمرقندي (٢/ ٥٤).

(٣ ) تفسير ابن كثير (٤/ ١٣٦).

قال تعالى: { وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ }[النور:٥٥].

"ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة أنه وعد الذين آمنوا وعملوا الصالحات من هذه الأمة: {لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ}، أي: ليجعلنهم خلفاء الأرض، الذين لهم السيطرة فيها، ونفوذ الكلمة، والآيات تدل على أن طاعة الله بالإيمان به، والعلم الصالح سبب للقوة والاستخلاف في الأرض ونفوذ الكلمة كقوله تعالى: {وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ} [الأنفال: ٢٦]، وقوله تعالى: {وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ. الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ} [الحج:٤٠-٤١]، وقوله تعالى: {إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ} [محمد: ٧]، إلى غير ذلك من الآيات.{كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ} يقول: كما فعل منْ قبلهم ذلك ببني إسرائيل، إذ أهلك الجبابرة بالشام، وجعلهم ملوكها وسكانها، {وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم } أي: اختار، قال ابن عباس: يوسع لهم في البلاد حتى يملكوها ويظهر دينهم على سائر الأديان، { وليبدلنهم } قرأ ابن كثير وأبو بكر ويعقوب بالتخفيف من الإبدال، وقرأ الآخرون بالتشديد من التبديل، وهما لغتان، وقال بعضهم: التبديل تغيير حال إلى حال، والإبدال رفع الشيء وجعل غيره مكانه، { من بعد خوفهم أمنًا يعبدونني } آمنين، { لا يشركون بي شيئا }. وهذا وعد يعم جميع الأمة، وقيل هو خاص بالصحابة ولا وجه لذلك؛ فإن الإيمان وعمل الصالحات لا يختص بهم، بل ويمكن وقوع ذلك من كل واحد من هذه الأمة ومن عمل بكتاب الله وسنة رسوله فقد أطاع الله ورسوله[١].

وعن أبي بن كعب رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (بشر هذه الأمة بالسناء والرفعة والدين والتمكين في الأرض، فمن عمل منهم عمل الآخرة للدنيا لم يكن له في الآخرة من نصيب)[٢].

فتضمن هذا الحديث بشرى عظيمة تشرئب لها الأعناق.

وعن تميم الداري رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار، ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلا أدخله الله هذا الدين، بعز عزيز أو بذل ذليل، عزاً يعز الله به الإسلام وذلاً يذل الله به الكفر)[٣].

وهذا الوعد مدى ممتد يدل على اتساع بساط الإسلام على المعمورة، بل تضمنت البشارة تخصيص مدن بعينها، فقد جاء عن أبي قبيل المعافري قال: كنا عند عبد الله بن عمرو بن العاص فسئل أي المدينتين تفتح أولاً قسطنطينية أو رومية ؟ قال: فدعا بصندوق طهم –والطهم: الخلِق– فأخرج منه كتابًا فنظر فيه ثم قال: كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم نكتب ما

---

(١ ) أضواء البيان (٥/ ٥٥٣)، تفسير الطبري (١٩/ ٢٠٨)، تفسير البغوي (٦/ ٥٨)، فتح القدير (٤/ ٦٩).

(٢ ) رواه أحمد (٥/ ١٣٤)، وابن حبان (٢/ ١٣٢)، والحاكم (٤/ ٣٤٦) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١/ ٦).

(٣ ) رواه أحمد (٤/ ١٠٣)، والطبراني، المعجم الكبير (٢٠/ ٢٥٤)، والحاكم (٤/ ٤٧٧) وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (١/ ١).

قال، فسئل: أي المدينتين تفتح أولاً: القسطنطينية أو رومية ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:(مدينة هرقل تفتح أولاً يعني: القسطنطينية) (١).

قال الألباني: "وقد تحقق الفتح الأول على يد محمد الفاتح العثماني كما هو معروف، وذلك بعد أكثر من ثمانمائة سنة من إخبار النبي صلى الله عليه وسلم بالفتح، وسيتحقق الفتح الثاني بإذن الله تعالى ولابد، ولتعلمن نبأه بعد حين. و لا شك أيضًا أن تحقيق الفتح الثاني يستدعي أن تعود الخلافة الراشدة إلى الأمة المسلمة، و هذا مما يبشرنا به صلى الله عليه وسلم بقوله في الحديث: ( تكون النبوة فيكم ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة، فتكون ما شاء الله أن تكون ثم يرفعها إذا شاء الله أن يرفعها، ثم تكون ملكًا عاضًا فيكون ما شاء الله أن يكون ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون ملكًا جبرياً فتكون ما شاء الله أن تكون ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة ثم سكت)(٢)(٣). وربما أن القسطنطينية ستفتح فتحًا جديداً بدليل حديث أبي هريرة الآتي.

**الحدث الثاني: انحسار الإسلام ودروسه:**

تتابع انتصارات المسلمين بعد ملاحم كبرى مع أعداء الله تعالى، وتفتح لهم المدائن أحضانها حتى تتوج تلك الانتصارات بنزول عيسى ابن مريم عليه السلام قرب الساعة فيستلم الراية ويقتل الدجال، ويقود الأمة فيكسر الصليب ويضع الجزية، ولا يقبل إلا الإسلام، فيعيش الناس في ذلك الوقت حياة طيبة، ويدل على هذا ما يأتي:

قوله تعالى: { وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ فَلا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ }[الزخرف:٦١].

قرئ: {لعلَم} بالتحريك، أي: إشارة ودليل على اقتراب الساعة، والتحقيق أن الضمير في قوله: {وَإِنَّهُ} راجع إلى عيسى لا إلى القرآن، ولا إلى النبي صلى الله عليه وسلم، ومعنى قوله: {لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ} على القول الحق الصحيح الذي يشهد له القرآن العظيم، والسنة المتواترة، هو أن نزول عيسى في آخر الزمان، حيًا علم للساعة أي: علامة لقرب مجيئها؛ لأنه من أشراطها الدالة على قربها(٤). وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم صلى الله عليه وسلم حكمًا مقسطًا فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير ويضع الجزية، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد)(٥). قال النووي: "( ويضع الجزية ) فالصواب في معناه: أنه لا يقبلها ولا يقبل من الكفار إلا الإسلام، ومن بذل منهم الجزية لم يكف عنه بها، بل لا يقبل إلا الإسلام أو القتل"(٦).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– قال: (لا تقوم الساعة حتى ينزل الروم بالأعماق أو بدابق، فيخرج إليهم جيش من المدينة من خيار أهل الأرض يومئذ، فإذا تصافوا قالت الروم: خلوا بيننا وبين الذين سبوا منا

---

(١ ) رواه أحمد (٢/ ١٧٦)، والدارمي (١/ ١٣٧)، والحاكم (٤/ ٤٦٨) وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (٢/١).

(٢ ) رواه أحمد (٤/ ٢٧٣)، قال الهيثمي: " ورجاله ثقات" مجمع الزوائد ومنبع الفوائد(٥/ ٢٢٦)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١/ ٣).

(٣ ) سلسلة الأحاديث الصحيحة (١/ ٣).

(٤ ) تفسير ابن كثير (٢/ ٤٦٥)، أضواء البيان (٧/ ١٢٨).

(٥ ) رواه البخاري (٢/ ٧٧٤)، ومسلم (١/ ١٣٥).

(٦ ) شرح النووي على مسلم (٢/ ١٩٠).

نقاتلهم. فيقول المسلمون: لا والله لا نخلي بينكم وبين إخواننا. فيقاتلونهم فينهزم ثلث لا يتوب الله عليهم أبداً، ويقتل ثلثهم أفضل الشهداء عند الله، ويفتتح الثلث لا يفتنون أبداً، فيفتتحون قسطنطينية، فبينما هم يقتسمون الغنائم قد علقوا سيوفهم بالزيتون إذ صاح فيهم الشيطان: إن المسيح قد خلفكم في أهليكم. فيخرجون وذلك باطل، فإذا جاءوا الشام خرج، فبينما هم يعدون للقتال يسوون الصفوف إذ أقيمت الصلاة فينزل عيسى ابن مريم فأمهم، فإذا رآه عدو الله ذاب كما يذوب الملح في الماء فلو تركه لانذاب حتى يهلك، ولكن يقتله الله بيده فيريهم دمه في حربته)[1].

قوله: (جيش من المدينة):" قال ابن الملك: قيل: المراد بها حلب، والأعماق ودابق موضعان بقربها، وقيل: المراد بها دمشق، وقال في الأزهار: وأما ما قيل من أن المراد بها مدينة النبي فضعيف؛ لأن المراد بالجيش الخارج إلى الروم جيش المهدي، بدليل آخر الحديث، ولأن المدينة المنورة تكون خرابًا في ذلك الوقت"[2].

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (فيكون عيسى ابن مريم عليه السلام في أمتي حكمًا عدلاً وإمامًا مقسطًا، يدق الصليب ويذبح الخنزير ويضع الجزية، ويترك الصدقة فلا يسعى على شاة ولا بعير، وترفع الشحناء والتباغض، وتنزع حمة كل ذات حمة، حتى يدخل الوليد يده في الحية فلا تضره)[3].

وقال عليه الصلاة والسلام–وهو يذكر خروج الدجال–: (فبينما هو كذلك إذ بعث الله المسيح ابن مريم فينزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق بين مهرودتين واضعًا كفيه على أجنحة ملكين إذا طأطأ رأسه قطر، وإذا رفعه تحدر منه جمان كاللؤلؤ، فلا يحل لكافر يجد ريح نفسه إلا مات، ونفسه ينتهى حيث ينتهى طرفه، فيطلبه حتى يدركه بباب لُد فيقتله ثم يأتي عيسى ابن مريم قومٌ قد عصمهم الله منه، فيمسح عن وجوههم ويحدثهم بدرجاتهم في الجنة، فبينما هو كذلك إذ أوحى الله إلى عيسى: إني قد أخرجت عباداً لي لا يدانِ لأحد بقتالهم فحرز عبادي إلى الطور. ويبعث الله يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون، فيمر أوائلهم على بحيرة طبرية فيشربون ما فيها ويمر آخرهم فيقولون: لقد كان بهذه مرة ماء. ويحصر نبي الله عيسى وأصحابه حتى يكون رأس الثور لأحدهم خيراً من مائة دينار لأحدكم اليوم، فيرغب نبي الله عيسى وأصحابه، فيرسل الله عليهم النغف في رقابهم فيصبحون فرسى كموت نفس واحدة، ثم يهبط نبي الله عيسى وأصحابه إلى الأرض فلا يجدون في الأرض موضع شبر إلا ملأه زهمهم ونتنهم، فيرغب نبي الله عيسى وأصحابه إلى الله فيرسل الله طيراً كأعناق البخت، فتحملهم فتطرحهم حيث شاء الله، ثم يرسل الله مطراً لا يكن منه بيت مدر ولا وبر فيغسل الأرض حتى يتركها كالزلفة، ثم يقال للأرض أنبتي ثمرتك وردي بركتك. فيومئذ تأكل العصابة من الرمانة ويستظلون بقحفها ويبارك في الرسل حتى أن اللقحة من الإبل لتكفي الفئام من الناس، واللقحة من البقر لتكفي القبيلة من الناس واللقحة من الغنم لتكفي الفخذ من الناس، فبينما هم كذلك إذ بعث الله ريحًا طيبة فتأخذهم تحت آباطهم فتقبض روح كل مؤمن وكل مسلم، ويبقى شرار الناس يتهارجون فيها تهارج الحمر، فعليهم تقوم الساعة)[4].

---

(١ ) رواه مسلم (٤/ ٢٢٢١).

(٢ ) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، للملا على القاري (١٥/ ٤٠٠).

(٣ ) رواه ابن ماجه (٢/ ١٣٥٩)، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير (٢٨/ ٣٣٣).

(٤ ) رواه مسلم (٤/ ٢٢٥٠).

وما بعد الكمال إلا النقصان! فبعد هذه الحياة الطيبة في عهد عيسى عليه السلام يقبض الله عيسى عليه السلام ومن معه من المؤمنين فيندرس الإسلام ويذهب الدين ويبقى شرار الخلق فعليهم تقوم الساعة، ويدل على ذلك ما يأتي:

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يدرس الإسلام كما يدرس وشي الثوب حتى لا يدرى ما صيام ؟ ولا صلاة و لا نسك ولا صدقة، ويسرى على كتاب الله في ليلة فلا يبقى في الأرض منه آية، وتبقى طوائف من الناس: الشيخ الكبير والعجوز يقولون: أدركنا آباءنا على هذه الكلمة يقولون: لا إله إلا الله، فنحن نقولها)[١].

قال الألباني: " وفي هذا الحديث نبأ خطير، وهو أنه سوف يأتي يوم على الإسلام يمحى أثره، وعلى القرآن فيرفع فلا يبقى منه ولا آية واحدة، وذلك لا يكون قطعًا إلا بعد أن يسيطر الإسلام على الكرة الأرضية جميعها، وتكون كلمته فيها هي العليا. كما هو نص قول الله تبارك وتعالى: ( هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله) ، وكما شرح رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك في

أحاديث كثيرة سبق ذكر بعضها في المقال الأول من هذه المقالات ( الأحاديث الصحيحة )، وما رفع القرآن الكريم في آخر الزمان إلا تمهيداً لإقامة الساعة على شرار الخلق الذين لا يعرفون شيئًا من الإسلام البتة، حتى ولا توحيده! وفي الحديث إشارة إلى عظمة القرآن، وأن وجوده بين المسلمين هو السبب لبقاء

دينهم ورسوخ بنيانه، وما ذلك إلا بتدارسه وتدبره وتفهمه؛ ولذلك تعهد الله تبارك وتعالى بحفظه إلى أن يأذن الله برفعه"[٢].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ( لا يذهب الليل والنهار حتى تعبد اللات والعزى، فقلت: يا رسول الله، إن كنت لأظن حين أنزل الله: { هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون } [ ٩ / التوبة / ٣٣ ] و [ ٦١ / الصف / ٩ ] أن ذلك تامًا؟، قال: إنه سيكون من ذلك ما شاء الله، ثم يبعث الله ريحًا طيبة فتوفى كل من في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان، فيبقى من لا خير فيه فيرجعون إلى دين آبائهم)[٣].

ففي هذا الحديث يخبر رسول الله صلى الله عليه الصلاة والسلام عن تغير الإسلام في قلوب الناس آخر الزمان حتى يصيروا مشركين بالله، وأخبر مع ذلك أن هذا التغير كائن عقب علو الإسلام وظهوره.

وعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ( لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض: الله، الله )[٤].

قال المناوي: "وليس المراد أن لا يتلفظ به بل إنه لا يذكر الله ذكراً حقيقيًا فكأنه قال: لا تقوم وفي الارض إنسان كامل الايمان، أو التكرار كناية عن أن لا يقع إنكار قلبي على منكر"[٥].

---

(١ ) رواه ابن ماجه (٢/ ١٣٤٤)، والحاكم (٤/ ٥٨٧)، وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير (٢٩/ ٣٧)، وقوى سنده ابن حجر في فتح الباري (١٣/ ١٦).

(٢ ) سلسلة الأحاديث الصحيحة (١/ ٨٦).

(٣ ) رواه مسلم (٤/ ٢٢٣٠).

(٤ ) رواه مسلم (١/ ١٣١).

(٥ ) التيسير بشرح الجامع الصغير، للمناوي (٢/ ٩٦٠).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:(إن الله يبعث ريحاً من اليمن ألين من الحرير، فلا تدع أحداً في قلبه مثقال ذرة من إيمان إلا قبضته )[١].

قال النووي: "وأما قوله صلى الله عليه وسلم: ( ريحًا ألين من الحرير) ففيه –والله أعلم– إشارة إلى الرفق بهم والإكرام لهم والله أعلم، وجاء في هذا الحديث يبعث الله تعالى ريحًا من اليمن، وفى حديث آخر ذكره مسلم في آخر الكتاب عقب أحاديث الدجال (ريحًا من قبل الشام) ويجاب عن هذا بوجهين: أحدهما: يحتمل أنهما ريحان: شامية ويمانية، ويحتمل أن مبدأها من أحد الإقليمين ثم تصل الآخر وتنتشر عنده، والله أعلم"[٢].

وعن مرداس الأسلمي رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم ( يذهب الصالحون الأول فالأول، ويبقى حفالة كحفالة الشعير أو التمر لا يباليهم الله بالة) قال أبو عبد الله يقال: حفالة وحثالة (٣).

قال ابن حجر: "والمراد: قبض أرواحهم...، قال الخطابي: الحثالة –بالفاء وبالمثلثة–: الرديء من كل شيء، وقيل: آخر ما يبقى من الشعير والتمر وأردأه.. قوله: (لا يباليهم الله بالة) قال الخطابي: أي لا يرفع لهم قدراً ولا يقيم لهم وزناً..، قال ابن بطال: في الحديث: أن موت الصالحين من أشراط الساعة. وفيه الندب إلى الاقتداء بأهل الخير، والتحذير من مخالفتهم خشية أن يصير من خالفهم ممن لا يعبأ الله به. وفيه أنه يجوز انقراض أهل الخير في آخر الزمان حتى لا يبقى إلا أهل الشر"(٤).

وعن عبدالرحمن بن شماسة المهري قال: كنت عند مسلمة بن مخلد وعنده عبدالله بن عمرو بن العاص، فقال عبدالله: لا تقوم الساعة إلا على شرار الخلق، هم شر من أهل الجاهلية لا يدعون الله بشيء إلا رده عليهم. فبينما هم على ذلك أقبل عقبة بن عامر فقال له مسلمة: يا عقبة اسمع ما يقول عبدالله، فقال عقبة: هو أعلم، وأما أنا فسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ( لا تزال عصابة من أمتي يقاتلون على أمر الله قاهرين لعدوهم، لا يضرهم من خالفهم حتى تأتيهم الساعة وهم على ذلك) فقال عبدالله: أجل، ثم يبعث الله ريحًا كريح المسك مسها مس الحرير فلا تترك نفسًا في قلبه مثقال حبة من الإيمان إلا قبضته ثم يبقى شرار الناس عليهم تقوم الساعة)[٥].

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يخرج الدجال في أمتي فيمكث أربعين – لا أدرى أربعين يومًا أو أربعين شهراً أو أربعين عامًا– فيبعث الله عيسى ابن مريم كأنه عروة بن مسعود فيطلبه فيهلكه، ثم يمكث الناس سبع سنين ليس بين اثنين عداوة، ثم يرسل الله ريحًا باردة من قبل الشام فلا يبقى على وجه الأرض أحد في قلبه مثقال ذرة من خير أو إيمان إلا قبضته، حتى لو أن أحدكم دخل في كبد جبل لدخلته عليه حتى تقبضه، قال سمعتها من رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: فيبقى شرار الناس في خفة الطير وأحلام السباع، لا يعرفون معروفًا ولا ينكرون

---

(١ ) رواه مسلم (١/ ١٠٩).

(٢ ) شرح النووي على مسلم (٢/ ١٣٣).

(٣ ) رواه البخاري (٥/ ٢٣٦٤).

(٤ ) فتح الباري (١١/ ٢٥٢).

(٥ ) رواه مسلم (٣/ ١٥٢٤).

منكراً، فيتمثل لهم الشيطان فيقول: ألا تستجيبون؟ فيقولون: فما تأمرنا ؟ فيأمرهم بعبادة الأوثان وهم في ذلك دارّ رزقهم، حسن عيشهم، ثم ينفخ في الصور) [1].

قوله: (ثم يمكث الناس سبع سنين ليس بين اثنين عداوة) وورد أن عيسى يمكث في الأرض أربعين سنة، قال السفاريني: " وجمع بعضهم أن سيدنا عيسى حين رفع كان عمره ثلاثًا وثلاثين سنة، وينزل سبعًا فهذه أربعون سنة. وهذا –والله أعلم– ليس بشيء لما مر من حديث عائشة عند الإمام أحمد وغيره " (فيقتل الدجال ثم يمكث عيسى في الأرض أربعين سنة)، وقد قال الحافظ جلال الدين السيوطي: كنت أفتيت بأن ابن مريم يمكث في الأرض بعد نزوله سبع سنين، قال: واستمريت على ذلك مدة من الزمان، حتى رأيت الإمام الحافظ البيهقي اعتمد أن مكثه في الأرض أربعون سنة معتمداً ما أفاده الإمام أحمد في روايته بلفظ " ( ثم يمكث ابن مريم في الأرض بعد قتل الدجال أربعين سنة). وهذا هو المرجح؛ لأن زيادة الثقة يحتج بها، ولأنهم يأخذون برواية الأكثر ويقدمونها على رواية الأقل؛ لما معها من زيادة العلم، ولأنه مثبت، والمثبت مقدم"(٢).

وقوله: (ويبقى شرار الخلق في خفة الطير وأحلام السباع): أي في مسارعتهم وخفتهم إلى الشرور وقضاء الشهوات كطيران الطير، وفى الإفساد والعدوان وظلم بعض لبعض في خلق السباع العادية"(٣).

---

(١ ) رواه مسلم(٤/ ٢٢٥٨).

(٢ ) لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية لشرح الدرة المضية في عقد الفرقة المرضية، للسفاريني (٢/ ٩٨).

(٣ ) إكمال المعلم شرح صحيح مسلم – للقاضي عياض (٨/ ٢٤٩).

## المبحث الرابع: وعد الله للمؤمنين، ووعيده للكافرين في الدنيا والآخرة

**وفي هذا المبحث مطلبان:**

**المطلب الأول: وعد الله للمؤمنين**

**المطلب الثاني: وعيد الله للكافرين**

### المطلب الأول: وعد الله للمؤمنين:

إن وعد الله تعالى خبر من أخباره، وأخبار الله تعالى لا تحتمل إلا الصدق، وتطاول الزمن لا يكذب الوعد منه سبحانه، فلما كان الأمر كذلك فلا تغيير في وعد الله تعالى لعباده المؤمنين.

لقد ذكر الله تعالى في القرآن الكريم موعودات صادقة وعدها عباده المؤمنين لا تتغير ما دام شرطها موجوداً، فمنها:

**أولاً: الوعد بالنصر على الأعداء وإهلاكهم وغنيمة أموالهم:**

لقد واجه الرسل وأتباعهم حربًا شعواء شنها أهل الباطل؛ إذ لا يمكن للباطل أن يهدأ وهو يرى نور الحق يمتد في الآفاق، وبامتداده ينقشع ظلامهم الكثيف وليلهم الديجوري المخيف؛ فلذلك سعوا بكل سبيل إلى إيقاف أنوار الهدى بحرب أهله حروبًا متعددة في كل زمان ومكان. وقد جرت سنة الله تعالى أن تكون هناك مواجهة بين الحق والباطل؛ حتى تتضح السبيلان ويتجلى الفريقان، ويميز الله الخبيث من الطيب، وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منهم شهداء، ويمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين، ويعلم الذين جاهدوا من أهل الحق في سبيل الحق ويعلم الصابرين منهم.

وقد جرت سنة الله كذلك بأن أهل الباطل أكثر عدداً وأقوى عدة مادية من أهل الحق غالبًا؛ فلهذا يحمى الوطيس ويشتد ساق الصراع، لكن الله تعالى جعل العاقبة لأهل الحق إذا استقاموا وصدقوا، فوعدهم بالنجاة من أعدائهم، وإهلاك أعدائهم والنصر عليهم وغنيمة ما تحت أيديهم.

قال تعالى: (( ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ ))[الأنبياء:٩]}.

قوله: { ثم صدقناهم الوعد } أي: الذي وعدهم ربهم- يعني الانبياء- من إهلاك الظالمين وإنجائهم ونصرهم، صدقهم الله وعده ففعل ذلك؛ ولهذا قال: { فأنجيناهم ومن نشاء } أي: أتباعهم من المؤمنين، { وأهلكنا المسرفين } أي: المكذبين بما جاءت الرسل به. والمعنى: وأهم مما ذكر أنا صدقناهم الوعد فأنجيناهم وأهلكنا الذين كذبوهم. ومضمون هذا أهم في الغرضين التبشير والإنذار. فالتبشير للرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بأن الله صادقه وعده من النصر، والإنذار لمن ماثل أقوام الرسل الأولين. والمراد بالوعد وعدهم النصر على المكذبين بقرينة قوله تعالى: {فَأَنْجَيْنَاهُمْ} المؤذن بأنه وعد عذاب لأقوامهم، فالكلام مسوق مساق التنويه بالرسل الأولين، وهو تعريض بوعيد الذين قالوا {فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ} . وفي هذا تقريع للمشركين، أي إن كان أعجبكم ما أتى به الأولون فسألتم من رسولكم مثله فإن حالكم كحال الذين أرسلوا إليهم فترقبوا مثل ما نزل بهم، ويترقب رسولكم مثل ما لقي سلفه. وهذا كقوله تعالى: {قُلْ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ}. فبيّن جلّ وعلا في هذه الآيات: أنه أرسل الرسل إلى الأمم فكذبوهم، وأنه وعد الرسل بأن لهم النصر والعاقبة الحسنة، وأنه صدق رسله ذلك الوعد فأنجاهم. وأنجى معهم ما شاء أن ينجيه. والمراد به من آمن بهم من أممهم، وأهلك

المسرفين وهم الكفار المكذبون الرسل، وقد أوضح هذا المعنى في مواضع كثيرة من كتابه، كقوله تعالى {حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ} ، وقوله: {فَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ}، وقوله تعالى: {فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ} ، وقوله: {وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ}، وقوله تعالى: {وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُوداً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ} ، وقوله تعالى: {فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحاً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا}(١).

وقال تعالى:{إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ }[غافر ٥١].

قال ابن عاشور: "كلام مستأنف وهو استخلاص للعبرة من القصص الماضية مسوق لتسلية الرسول صلى الله عليه وسلم ووعده بحسن العاقبة، وتسلية المؤمنين ووعدهم بالنصر وحسن العاقبة في الدنيا والآخرة. وذلك أن الكلام من ابتداء السورة كان بذكر مجادلة المشركين في القرآن بقوله تعالى: {مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا} [غافر: ٤]وأومأ إلى الرسول صلى الله عليه وسلم بأن شيعهم آيلة إلى خسار بقوله: {فَلا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلادِ} [غافر: ٤]، وامتد الكلام في الرد على المجادلين وتمثيل حالهم بحال أمثالهم من الأمم التي آل أمرها إلى خيبة واضمحلال في الدنيا، وإلى عذاب دائم في الآخرة، ولما استوفى الغرض مقتضاه من إطناب البيان بين الله لرسوله صلى الله عليه وسلم عقبه أنه ينصر رسله والذين آمنوا في الدنيا كما دل عليه قوله في آخر الكلام: {فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ} [غافر: ٧٧].

وقد علم من فعل النصر أن هنالك فريقا منصوراً عليهم الرسل والمؤمنون في الدنيا والآخرة، ومن المتعين أنهم الفريق المعاند للرسل وللمؤمنين، فنصر الرسل والمؤمنين عليهم في الدنيا بإظهارهم عليهم وإبادتهم، وفي الآخرة بنعيم الجنة لهم وعذاب النار لأعدائهم"(٢).

ولقد كان لرسول الله محمد صلى الله عليه وسلم ولأصحابه رضي الله عنهم من نصر الله وتأييده الذي لم يتبدل نصيب وافر. ففي مكة لقيت الثلة المؤمنة صنوفَ الأذى وألوان العناء، فكانت آيات التثبيت والتصبير والوعد والتبشير تتنزل على رسول الله فيتلوها عليهم فيزداد صبرهم، وتشرئب أعناقهم لرؤية تحقق وعد الله الصادق لهم في تلك الآيات، قال تعالى: {فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لا يُوقِنُونَ [٦٠]}

أي: فاصبر على ما يُجرّعك قومك من الغُصَص {إِنَّ وعد الله} بنصرك وإعلاء دينك وهلاك أعدائك، على ما نطق به قوله تعالى: {وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ} [الصافات: ١٧١ ـ ١٧٣]، وجملة {إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ} تعليل للأمر بالصبر وهو تأنيس للنبيء صلى الله عليه وسلم بتحقيق وعد الله من الانتقام من المكذبين ومن نصر الرسول عليه الصلاة والسلام. وقوله:{حقٌّ} لا يحتمل الاختلاف بحال. قال الطيبي: الآية تشير إلى نصره على أعدائه، كموسى، وأنه يظهر دينه على الدين كله، ويورث كتابه ؛ ليعتصموا به ، فيكون لهم هُدًى وذكرى، وعزّاً وشرفاً(٣).

---

(١ ) تفسير ابن كثير (٥/ ٣٣٤)، تفسير القرطبي (١١/ ٢٧٣)، التحرير والتنوير (١٧/ ١٦).
أضواء البيان (٤/ ١٣٧).

(٢ ) التحرير والتنوير (٢٤/ ٢١٥).

(٣ ) التحرير والتنوير (٢١/ ٨٤) البحر المديد، لابن عجيبة(٦/ ٤٧٦)، اللباب في علوم الكتاب، لابن عادل (١٧/ ٧٢).

وقال تعالى: (( أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ))[يونس:٦٢]^(( الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ))[يونس:٦٣] (( لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ لا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ))[يونس:٦٤].

قال ابن عاشور: "استئناف للتصريح بوعد المؤمنين المعرض به في قوله: {إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ} [يونس: ٦١] الآية، وبتسلية النبي صلى الله عليه وسلم على ما يلاقيه من الكفار من أذى وتهديد، إذ أعلن الله للنبي والمؤمنين بالأمن من مخافة أعدائهم، ومن الحزن من جراء ذلك، ولمح لهم بعاقبة النصر، ووعدهم البشرى في الآخرة وعداً لا يقبل التغيير ولا التخلف تطمينًا لنفوسهم، كما أشعر به قوله عقبه: {لا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ}،... وجملة: {لا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ} مبينة لمعنى تأكيد الوعد الذي تضمنه قوله: {لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ}، تذكيراً لهم بأن ما وعدهم الله به من البشائر مثل النصر وحسن العاقبة أمر ثابت لا يتخلف؛ لأنه من كلمات الله، وقد نفي التبديل بصيغة التبرئة الدالة على انتفاء جنس التبديل. والتبديل: التغيير والإبطال؛ لأن إبطال الشيء يستلزم إيجاد نقيضه"(١).

وقال ابن تيمية: " وقال تعالى: { ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون } { الذين آمنوا وكانوا يتقون } { لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة لا تبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم }. وقال تعالى: { ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله ولقد جاءك من نبإ المرسلين } فأخبر في هذه الآية أيضًا أنه لا مبدل لكلمات الله؛ عقب قوله: { فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا } وذلك بيان أن وعد الله الذي وعده رسله من كلماته التي لا مبدل لها لما قال في أوليائه: { لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة لا تبديل لكلمات الله } فإنه ذكر أنه لا خوف عليهم ولا هم يحزنون وأن لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة. فوعدهم بنفي المخافة والحزن وبالبشرى في الدارين. وقال بعد ذلك: { ولا مبدل لكلمات الله } فكان في هذا تحقيق كلام الله الذي هو وعده. كما قال: { فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله }. وقال: { وعد الله لا يخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون }. وقال المؤمنون: { ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد }"(٢).

وما هي إلا سنوات من الشدة حتى انتقلت فئة الإيمان في مكة من الخبر بالوعد إلى رؤية الوعد، فجاءت غزوة بدر لتكون مظهراً من مظاهر تمكين الله تعالى وإعزازه للفئة المؤمنة القليلة في عددها وعدتها ونصرها على فئة الشرك، قال تعالى: {وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ))[آل عمران:١٢٣]^(( إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلاثَةِ آلافٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُنْزَلِينَ ))[آل عمران:١٢٤]^(( بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلافٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ))[آل عمران:١٢٥]^(( وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ))[آل عمران:١٢٦]^(( لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ ))[آل عمران:١٢٧].

غير أنه لما جاءت غزوة أحد ولاحت أعلام غلبة المؤمنين في صدر المعركة أغرى ذلك أكثر الرماة المرابطين على الجبل على النزول لأجل الغنيمة، فحصل بذلك الذنب انقلاب دفة المعركة لصالح المشركين، فكان في ذلك تأديب من الله تعالى. قال

---

(١ ) التحرير والتنوير (١١/ ١٢٢،١٢٥).

(٢ ) مجموع الفتاوى (١٤/ ٤٩٧).

تعالى:{وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ }[آل عمران١٥٢].

فقوله: {وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ} عطف على قوله: {سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ} [آل عمران: ١٥١] وهذا عود إلى التسلية على ما أصابهم، وإظهار لاستمرار عناية الله تعالى بالمؤمنين، ورمز إلى الثقة بوعدهم بإلقاء الرعب في قلوب المشركين، وتبيين لسبب هزيمة المسلمين: تطمينًا لهم بذكر نظيره ومماثله السابق، فإن لذلك موقعًا عظيمًا في الكلام على حد قولهم: "التاريخ يعيد نفسه"، وليتوسل بذلك إلى إلقاء تبعة الهزيمة عليهم، وأن الله لم يخلفهم وعده، ولكن سوء صنيعهم أوقعهم في المصيبة كقوله: {وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ} [النساء: ٧٩].وصدق الوعد: تحقيقه والوفاء به؛ لأن معنى الصدق مطابقة الخبر للواقع،...، والوعد هنا: وعد النصر الواقع بمثل قوله: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ} [محمد: ٧] أو بخبر خاص في يوم أحد. وإذن الله بمعنى التقدير وتيسير الأسباب"(١).

لكن في غزوة الأحزاب تحقق موعود الله تعالى للمؤمنين حينما بلغ الإيمان والتصديق بوعد الله الذِّروةَ فظهر على ألسنتهم ما يستكن في بواطنهم من اليقين. وبدا على ألسنة المنافقين ما انطوى في قلوبهم من الريب والتكذيب.

قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُوداً لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً{٩} إِذْ جَاؤُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتْ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا{١٠} هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً{١١} وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُوراً{١٢} وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَاراً{١٣} وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيراً{١٤} وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْؤُولاً{١٥}

وقال عن المؤمنين في هذه الغزوة: {وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَاناً وَتَسْلِيماً{٢٢} مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً{٢٣}

فقوله تعالى: { قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ} "قيل: إن هذا الوعد ما أعلمهم رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أمر بحفر الخندق من أن الكفار ينزلون وأنهم ينصرفون خائبين، وقيل: إنه قول الله تعالى: {أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء ..} الآية، فعلموا أنهم يبتلون ثم ينصرون"(٢). وقال ابن كثير: " أي: هذا ما وعدنا الله ورسوله من الابتلاء والاختبار والامتحان الذي يعقبه النصر القريب؛ ولهذا قال: { وصدق الله ورسوله }"(٣).

---

(١ ) التحرير والتنوير(٣/ ٢٥١).

(٢ ) التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزى (٢/ ٣٦١).

(٣ ) تفسير ابن كثير (٦/ ٣٩٢).

وقوله: { وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَاناً وَتَسْلِيماً } قال ابن جرير: "فأحسن الله عليهم بذلك من يقينهم، وتسليمهم لأمره الثناء، فقال: وما زادهم اجتماع الأحزاب عليهم إلا إيمانًا بالله وتسليمًا لقضائه وأمره، ورزقهم به النصر والظفر على الأعداء"(١).

وكانت نتيجة المعركة كما يصفها سياق الآيات: (( وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ))[الأحزاب:٢٥]^(( وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ))[الأحزاب:٢٦]^(( وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ))[الأحزاب:٢٧].

يقول تعالى ذكره: وأنزل الله الذين أعانوا الأحزاب من قريش وغطفان على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه، وذلك هو مظاهرتهم إياه، وعنى بذلك بني قريظة وهم يهود، وهم الذين ظاهروا الأحزاب على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فملك الله الله رسوله والمؤمنين معه بعد مهلك بني قريظة مزارعهم ومغارسهم ومساكنهم وأموالهم، وأما الأرض التي لم يطأها المسلمون ووعدوا بها فقد اختلف أهل التأويل فيها، أيّ أرض هي؟ فقال بعضهم: هي الروم وفارس ونحوها من البلاد التي فتحها الله بعد ذلك على المسلمين وقال آخرون: هي مكة. وقال آخرون: بل هي خيبر. والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن الله تعالى ذكره أخبر أنه أورث المؤمنين من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أرض بني قريظة وديارهم وأموالهم، وأرضًا لم يطئوها يومئذ، ولم تكن مكة ولا خَيبر، ولا أرض فارس والروم ولا اليمن، مما كان وطئوه يومئذ، ثم وطئوا ذلك بعد، وأورثهموه الله، وذلك كله داخل في قوله(وأرْضًا لَمْ تَطَئوها)؛ لأنه تعالى ذكره لم يخصص من ذلك بعضًا دون بعض(٢).

ثم ما زالت موعودات الله تعالى يتوالى تحققها على رسول الله وأصحابه فكان منها الفتحان العظيمان: فتح خيبر وفتح مكة، قال تعالى: {وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً{٢٠} وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً{٢١} وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيّاً وَلَا نَصِيراً{٢٢} سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً{٢٣}.

قال السمرقندي: "يعني: وعدكم الله غنيمة أخرى {لم تقدروا عليها} يعني: لم تملكوها بعد وهو فتح مكة، ويقال: هو فتح قرى فارس والروم، { قد أحاط الله بها} يعني: علم الله أنكم ستفتحونها وستغنمونها فجمعها وأحرزها لكم،{ وكان الله على كل شيء قديرا} من الفتح وغيره،... وقوله عز وجل {سنة الله التي قد خلت من قبل} يعني: هكذا سنة الله بالغلبة والنصرة لأوليائه والقهر لأعدائه،{ولن تجد لسنة الله تبديلا} يعني: تغييراً وتحويلاً"(٣).

وقال الشوكاني: " في هذا وعد منه سبحانه لعباده المؤمنين بما سيفتحه عليهم من الغنائم إلى يوم القيامة يأخذونها في أوقاتها التي قدر وقوعها فيها { فعجل لكم هذه } أي: غنائم خيبر، قاله مجاهد وغيره، وقيل: صلح الحديبية.. { وأخرى لم تقدروا عليها } معطوف على هذه: أي: فعجل لكم هذه المغانم ومغانم أخرى لم تقدروا عليها وهي الفتوح التي فتحها الله على

---

(١ ) تفسير الطبري (٢٠/ ٢٣٦).

(٢ ) تفسير الطبري (٢٠/ ٢٣٦) وما بعدها.

(٣ ) بحر العلوم، للسمرقندي (٣/ ٣٠٢).

المسلمين من بعد كفارس والروم ونحوهما كذا قال الحسن ومقاتل وابن أبي ليلى، وقال الضحاك وابن زيد وابن أبي إسحاق: هي خيبر وعدها الله نبيه قبل أن يفتحها ولم يكونوا يرجونها، وقال قتادة: فتح مكة، وقال عكرمة: حنين، والأول أولى"(١).

وقال ابن جرير: "وهذا القول الذي قاله قتادة أشبه بما دلّ عليه ظاهر التنزيل؛ وذلك أن الله أخبر هؤلاء الذين بايعوا رسول الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّم تحت الشجرة، أنه محيط بقرية لم يقدروا عليها، ومعقولٌ أنه لا يقال لقوم لم يقدروا على هذه المدينة، إلا أن يكونوا قد راموها فتعذّرت عليهم، فأما وهم لم يروموها فتتعذّر عليهم فلا يقال: إنهم لم يقدروا عليها. فإذ كان ذلك كذلك، وكان معلومًا أن رسول الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّم لم يقصد قبل نزول هذه الآية عليه خيبر لحرب، ولا وجه إليها لقتال أهلها جيشًا ولا سرية، علم أن المعنيَّ بقوله( وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا ) غيرها، وأنها هي التي قد عالجها ورامها، فتعذّرت فكانت مكة وأهلها كذلك، وأخبر الله تعالى ذكره نبيه صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّم والمؤمنين أنه أحاط بها وبأهلها، وأنه فاتحها عليهم، وكان الله على كلّ ما يشاء من الأشياء ذا قُدرة، لا يتعذّر عليه شيء شاءه"(٢).

ومع وثوق المؤمنين بوعد الله وعدم تخلفه كانوا يطلبون تعجيل ذلك وقت الحاجة إليه، قال تعالى: {رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلاَ تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لاَ تُخْلِفُ الْمِيعَادَ }[آل عمران١٩٤].

**ثانيًا: الوعد بالثواب والجنة:**

ومن الوعود التي لا تتغير: ما وعد الله به عباده المؤمنين من الثواب على أعمالهم وإدخالهم جنات تجري من تحتها الأنهار.

قال تعالى: {وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً وَعْدَ اللهِ حَقّاً وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ قِيلاً }[النساء١٢٢].

يعني: وعد الله ذلك الذي ذكر وعداً حقاً، {ومن أصدق من الله قيلاً} يعني: ليس أحد أصدق من الله، فهو وعد ثابت صادق لا يقبل تغييراً ولا تبديلاً؛ لأنه وعد الله تعالى، ولا يوجد أصدق قولاً من الله تعالى، وقوله: {ومن أصدق من الله قيلا} توكيد ثالث بليغ، وفائدة هذه التوكيدات: معارضة ما ذكره الشيطان لأتباعه من المواعيد الكاذبة والأماني الباطلة، والتنبيه على أن وعد الله أولى بالقبول، وأحق بالتصديق من قول الشيطان الذي ليس أحد أكذب منه(٣).

وقال تعالى: {لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ }[الزمر٢٠].

يقول جل ثناؤه: وعدنا هذه الغرف التي من فوقها غرف مبنية في الجنة، هؤلاء المتقين، والله لا يخلفهم وعده، ولكنه يوفي بوعده؛ فهو الملك الذي لا شريك له يمنعه من شيء يريده، ولما كان الرعي لزمان الوعد ومكانه إنما يكون للمحافظة عليه أبلغ من رعيه نفسه، عبر بالمفعال فقال: {الميعاد}؛ لأنه لا سبب أصلاً يحمله على الإخلاف(٤).

وقال تعالى:{وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ }[الأعراف:٤٤].

---

(١ ) فتح القدير (٥/ ٧٣).

(٢ ) تفسير الطبري (٢٢/ ٢٣٤).

(٣ ) تفسير الخازن (١/ ٦٠١)، تفسير الرازي : مفاتيح الغيب (١١/ ٤١)، زهرة التفاسير، لأبي زهرة (ص: ١٨٦٨).

(٤ ) تفسير الطبري (٢١/ ٢٧٦)، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، للبقاعي (٦/ ٤٣٥).

يقول تعالى لما ذكر استقرار كل من الفريقين في الدارين، ووجدوا ما أخبرت به الرسل ونطقت به الكتب من الثواب والعقاب: أن أهل الجنة نادوا أصحاب النار بأن قالوا: {أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا} يعني: ما وعدنا في الدنيا على ألسنة رسله من الثواب والجنة على الإيمان به وبرسله وطاعته، فقد أدخلناها وأرانا ما وصفه لنا { فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ } على الكفر والمعاصي { حَقًّا قالوا نعم } قد وجدناه حقا، فبين للخلق كلهم بيانًا لا شك فيه صدقَ وعد الله، ومن أصدق من الله قيلا، وذهبت عنهم الشكوك والشبه، وصار الأمر حق اليقين، وفرح المؤمنون بوعد الله واغتبطوا، وأيس الكفار من الخير، وأقروا على أنفسهم بأنهم مستحقون للعذاب(١).

(١ ) تفسير السعدي (ص: ٢٨٩)، تفسير الخازن (٢/ ٢٣١).

## المطلب الثاني: وعيد الله للكافرين

**وفي هذا المبحث فرعان:**

**الفرع الأول: الفرق بين الوعيد لفساق المسلمين والوعيد للكافرين**

**الفرع الثاني: صور من وعيد الله للكافرين**

### الفرع الأول: الفرق بين الوعيد لفساق المسلمين والوعيد للكافرين:

اختلف أهل السنة والجماعة والمعتزلة والخوارج في مسألة الوعيد لفساق المسلمين من أهل الكبائر في الحكم الأخروي، فرأى أهل السنة أن أهل الكبائر من أمة محمد عليه الصلاة والسلام لا يكفرون بكبائرهم إذا لم يكن فيها شرك أكبر، وإذا ماتوا ولم يتوبوا منها فأمرهم إلى الله تعالى، إن شاء غفر لهم بفضله، وإن شاء عذبهم في النار بعدله بقدر ذنوبهم، فإذا نُقّوا من معاصيهم أو حصلت لهم شفاعة خرجوا من النار إلى الجنة ولا يخلدون في النار كما يخلد الكفار.

قال أبو عثمان الصابوني: " ويعتقد أهل السنة أن المؤمن –وإن أذنب ذنوبًا كثيرة صغائر وكبائر– فإنه لا يكفر بها، وإن خرج من الدنيا غير تائب منها، ومات على التوحيد والإخلاص، فإن أمره إلى الله عز وجل: إن شاء عفا عنه، وأدخله الجنة يوم القيامة سالمًا غانمًا، غير مبتلى بالنار ولا معاقب على ما ارتكبه واكتسبه، ثم استصحبه إلى يوم القيامة من الآثام والأوزار، وإن شاء عفا عنه وعذبه مدة بعذاب النار، وإذا عذبه لم يخلده فيها، بل أعتقه وأخرجه منها إلى نعيم دار القرار"(١).

وقال الحسين بن مسعود البغوي: "اتفق أهل السنة على أن المؤمن لا يخرج عن الإيمان بارتكاب شيء من الكبائر إذا لم يعتقد إباحتها، وإذا عمل شيئًا منها، فمات قبل التوبة، لا يخلد في النار، كما جاء به الحديث، بل هو إلى الله، إن شاء عفا عنه، وإن شاء عاقبه بقدر ذنوبه، ثم أدخله الجنة برحمته، كما ورد في حديث عبادة بن الصامت في البيعة"(٢).

وقال الطحاوي: " وأهل الكبائر من أمة محمد صلى الله عليه وسلم في النار لا يخلدون، إذا ماتوا وهم موحدون –وإن لم يكونوا تائبين بعد أن لقوا الله عارفين. وهم في مشيئته وحكمه، إن شاء غفر لهم وعفا عنهم بفضله، كما ذكر عز وجل في كتابه:{ ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء }، وإن شاء عذبهم في النار بعدله، ثم يخرجهم منها برحمته وشفاعة الشافعين من أهل طاعته، ثم يبعثهم إلى جنته. وذلك بأن الله تعالى تولى أهل معرفته، ولم يجعلهم في الدارين كأهل نكرته، الذين خابوا من هدايته، ولم ينالوا من ولايته"(٣).

وقالوا: وإخلاف الوعيد لا يذم، بل يمدح والله تعالى يجوز عليه إخلاف الوعيد، ولا يجوز عليه خلف الوعد، والفرق بينهما: أن الوعيد حقه فإخلافه عفو وهبة وإسقاط، وذلك موجب كرمه وجوده وإحسانه، والوعد حق عليه أوجبه على نفسه والله لا يخلف الميعاد، قالوا: ولهذا مدح به كعب بن زهير رسول الله حيث يقول:

نبئت أن رسول الله أوعدني ... والعفو عند رسول الله مأمول

---

(١ ) عقيدة السلف أصحاب الحديث، للصابوني (ص: ٢٨).

(٢ ) شرح السنة (١/ ١٠٣).

(٣ ) شرح الطحاوية، لابن أبي العز(٢/ ٣٨٨).

فلم ينكر رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله، بل وقع موقعًا منه فعفا عنه، وأعطاه بردة كانت له فابتاعها منه معاوية بعشرة آلاف درهم كانت مع الخلفاء خليفة بعد خليفة، وتناظر في هذه المسألة أبو عمرو بن العلاء وعمرو بن عبيد فقال عمرو بن عبيد: يا أبا عمرو، لا يخلف الله وعده وقد قال: {ومن يقتل مؤمنا متعمدا..} الآية فقال له أبو عمرو: ويحك يا عمرو، من العجمة أتيت، إن العرب لا تعد إخلاف الوعيد ذمًا، بل جوداً وكرمًا، أما سمعت قول الشاعر:

ولا يرهب ابن العم ما عشت صولتي ... ويأمن منّي صولة المتهدّد

وإنيَ إن أوعدته أو وعدته ... لمخلف إيعادي ومنجز موعدي (١).

ورأى المعتزلة ومعهم الخوارج أن كل واحد من فساق هذه الأمة وأهل الكبائر يستحق العذاب بالنار في الآخرة، ولا بدَّ أن يدخلها ويعذب فيها ويخلد فيها أبد الآبدين، وما هم عنها بغائبين"[٢].

قال أبو الحسن الأشعري: " وأما الوعيد فقول المعتزلة والخوارج في هذه المسألة قول واحد، غير أن الخوارج يقولون: إن مرتكبي الكبائر ممن ينتحل الإسلام يعذبون عذاب الكافرين، والمعتزلة يقولون: إن عذابهم ليس كعذاب الكافرين[٣].

وقد جعلت المعتزلة إنفاذ الوعيد أحد الأصول الخمسة لديها التي يكفرون من خالفها، ويخالفون أهل السنة والجماعة في وجوب نفوذ الوعيد فيهم وفي تخليدهم؛ ولهذا منعت الخوارج والمعتزلة أن يكون لنبينا صلى الله عليه وسلم شفاعة في أهل الكبائر في إخراج أهل الكبائر من النار[٤].

والصواب ما ذهب إليه أهل السنة؛ جمعًا بين نصوص الوعد والوعيد وتفسير بعضها ببعض من غير تبديل شيء منها كما يجمع بين نصوص الأمر والنهي من غير تبديل شيء منها[٥]، فالله تعالى يقول: {إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا }[النساء:٤٨].

وفي حديث عبادة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أبايعكم على أن لا تشركوا بالله شيئًا ولا تسرقوا ولا تزنوا ولا تقتلوا أولادكم ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم، وأرجلكم ولا تعصوني في معروف، فمن وفّى منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئًا فعوقب فهو كفارة له، ومن أصاب منها شيئًا من ذلك فستره الله فهو إلى الله: إن شاء عذبه وإن شاء غفر له)(٦).

وعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (من وعده الله على عمل ثوابًا، فهو منجزه له، ومن وعده على عمل عقابًا فهو فيه بالخيار) [٧].

---

(١ ) مدارج السالكين، لابن القيم (١/ ٣٩٦)، الانتصار في الرد على المعتزلة القدرية الأشرار، لابن أبي الخير العمراني (٣/ ٦٧٧).

(٢ ) الإصباح على المصباح، للإمام الناصر إبراهيم بن محمد بن أحمد المؤيدي(معتزلي) (١ / ٨٩)، الكاشف الأمين عن جواهر العقد الثمين، للفقيه العزي محمد بن يحيى مداعس(معتزلي) (١ / ١١٦٠).

(٣ ) مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، لأبي الحسن الأشعري (ص: ١٢٤).

(٤ ) مجموع الفتاوى، لابن تيمية (١٢/ ٤٨٠).

(٥ ) المصدر السابق (١٤/ ٤٩٨).

(٦ ) رواه البخاري (١/ ١٥).

(٧ ) رواه أبو يعلى، مسند أبي يعلى (٦/ ٦٦)، وابن أبي عاصم، السنة (٢/ ٤٦٦)، وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (٥/ ٤٦٢).

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي) (١).

وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (من عبد الله لا يشرك به شيئًا وأقام الصلاة وآتى الزكاة وسمع وعصى؛ فإن الله تعالى من أمره بالخيار إن شاء رحمه، وإن شاء عذبه)(٢)، والله أعلم.

## الفرع الثاني: صور من وعيد الله للكافرين:

**وفيه ثلاث مسائل:**

**المسألة الأولى: الوعيد بالهلاك في الدنيا:**

وقف المكذبون للرسل في سبيل الدعوة الحقة يصدون عنها ويشوهونها ويؤذون أهلها، ورسلُ الله يدعونهم إلى الله تعالى بالترغيب لعلهم أن يستجيبوا، ولكن أولئك الكافرين استمروا في عنادهم وأذاهم فرهبهم الرسل بموعودات الله المؤلمة ونزولها عليهم في الدنيا وحصولها في الآخرة إذا استمروا على طغيانهم. لكن ذلك أيضاً لم يردعهم عما هم فيه من الغي، بل وصلوا إلى درجة الاستبعاد والاستهزاء بهذا الترهيب والوعيد.

قال تعالى:{فَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ }[إبراهيم:٤٧].

فقوله: ( فَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ ) يعني: الذي وعدهم من كذّبهم، وجحد ما أتَوْهم به من عنده، وإنما قاله تعالى ذكره لنبيه تثبيتًا وتشديداً لعزيمته، ومعرّفه أنه منزل من سخطه بمن كذّبه وجحد نبوّته، وردّ عليه ما أتاه به من عند الله ، مثال ما أنزل بمن سلكوا سبيلهم من الأمم الذين كانوا قبلهم على مثل منهاجهم من تكذيب رسلهم وجحود نبوّتهم وردّ ما جاءوهم به من عند الله عليهم. يعني: فلا تحسبن الله يا محمد، مخلف ما وعد به رسله من النصر وإعلاء الكلمة، وإظهار الدين؛ فإنه ناصرُ رسله وأوليائه ومهلك أعدائه، ولا يمانع منه شيء أراد عقوبته؛ فإنه قادر على كلّ من طلبه، لا يفوتُه بالهَرَب منه، وينتقم ممن كفر برسله وكذّبهم، وجحد نبوتهم، وأشرك به واتخذ معه إلها غيره(٣).

وقال تعالى:{اسْتِكْبَاراً فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً }[فاطر٤٣].

يعني: ما ينتظرون إلا عقوبة الأمم الخالية أن ينزل بهم مثل ما نزل بالأولين، فلن تجد لصنعة الله تعالى ويقال: لملة الله ويقال: لسنة الله في العذاب أحداً يقدر أن يبدله، ولن تجد لسنة الله تغييراً يعني: لا يقدر أحد أن يغير فعل الله تعالى(٤).

وقال تعالى: {(( كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ ))[ق:١٢](( وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ ))[ق:١٣]^(( وَأَصْحَابُ الأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ))[ق:١٤]. هذه الآية الكريمة تدل على أن من كذب الرسل يحق

---

(١ ) رواه أبو داود، سنن أبي داود (٤/ ٣٧٩)، والطبراني، المعجم الكبير (١/ ٢٥٨)، وابن حبان (١٤/ ٣٨٦)، والبيهقي، السنن الكبرى (٨/ ١٧)، قال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح غير حرب بن سريج وهو ثقة. مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (٦/ ٣٦٥)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٣/ ٢٤١).

(٢ ) رواه أحمد (٥/ ٣٢٥)، قال الهيثمي: ورجال أحمد ثقات. مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (٥/ ٢٦٠).وحسنه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة٥/ ٤٦٢).

(٣ ) تفسير الطبري (١٧/ ٤٤)، تفسير الخازن (٤/ ٥٣)، تفسير البغوي (٤/ ٣٦١).

(٤ ) بحر العلوم، للسمرقندي (٣/ ١٠٧).

عليه العذاب، أي: يتحتم ويثبت في حقه ثبوتًا لا يصح معه تخلفه عنه، ووعيده تعالى للكفار حق ووجب عليهم بتكذيبهم للرسل كما دل عليه قوله هنا: {كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ}، وقد تقرر في الأصول أن الفاء من حروف العلة كقوله: سها فسجد. أي: لعلة سهوه، وسرق فقطعت يده أي: لعلة سرقته، ومنه قوله تعالى: {وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا} [المائدة:٣٨]، فتكذيبهم الرسل علة صحيحة لكون الوعيد بالعذاب حقَ ووجبَ عليهم، فدعوى جواز تخلفه باطلة بلا شك، وما دلت عليه هذه الآية الكريمة جاء موضحًا في آيات أخر، كقوله تعالى في هذه السورة الكريمة: {قَالَ لا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ، مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ} [قّ:٢٨-٢٩]، والتحقيق: أن المراد بالقول الذي لا يبدل لديه هو الوعيد الذي قدم به إليهم. وقوله تعالى في سورة ص: {إِنْ كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ} [صّ:١٤]، وبهذا تعلم أن الوعيد الذي لا يمتنع إخلافه هو وعيد عصاة المسلمين بتعذيبهم على كبائر الذنوب؛ لأن الله تعالى أوضح ذلك في قوله: {إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ} [النساء:٤٨] وهذا في الحقيقة تجاوز من الله عن ذنوب عباده المؤمنين العاصين، ولا إشكال في ذلك، وهذا الوعيد الذي حق عليهم هو الاستئصال في الدنيا ونصرة الرسل عليهم وهو مضمون قوله: {وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشاً} (١).

**المسألة الثانية: الوعيد بحصول البعث والنشور الذي كذبوه:**

كان المعاندون للرسل مكذبين بيوم القيامة ويقولون: ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين، ويقابلون إخبار الرسل عن ذلك اليوم بالتكذيب والسخرية فتوعدهم الله بذلك اليوم على ألسنة رسلة وعيداً لا يتغير ولا يتبدل.

قال تعالى: {وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ }{قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلا تَسْتَقْدِمُونَ}[سبأ ٢٩-٣٠].

يقول تعالى-مخبراً عن الكفار في استبعادهم قيام الساعة-: { ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين } كما قال تعالى: { يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق } الآية [الشورى: ١٨]. ثم قال: { قل لكم ميعاد يوم لا تستأخرون عنه ساعة ولا تستقدمون } أي: لكم ميعاد مؤجل معدود محرر، لا يزداد ولا ينتقص، فإذا جاء فلا يؤخر ساعة ولا يقدم، كما قال تعالى: { إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر } [نوح: ٤]، وقال: { وما نؤخره إلا لأجل معدود. يوم يأت لا تكلم نفس إلا بإذنه فمنهم شقي وسعيد } [هود: ١٠٤، ١٠٥](٢).

وقال تعالى: {هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ }[الأنعام:٢].

والمعنى: {ثم قضى أجلاً} تنتهون في حياتكم إليه. وهو الموت. {وأجل مسمى} مُعيَّن للبعث ، لا يقبل التغيير ، ولا يتقدم ولا يتأخر(٣).

---

(١ ) أضواء البيان (٧/ ٤٢٤)، التحرير والتنوير (٢٦/ ٢٦٨) اللباب في علوم الكتاب، لابن عادل (١٨/ ٢٣).

(٢ ) تفسير ابن كثير(٦/ ٥١٨).

(٣ ) البحر المديد، لابن عجيبة(٢/ ٣٢٩).

**المسألة الثالثة: الوعيد بعذاب النار الذي كذبوه:**

لقد أقيمت الحجة على المكذبين بدعوة المرسلين، وتنوعت الحجج والبراهين التي عرضت عليهم ليستجيبوا لدعوة الحق، ولكن ذلك لم يلقَ فيهم استجابة وإذعانًا فتوعدهم الرسل بالعذاب الأخروي، كما توعدوهم بالعذاب الدنيوي، غير أن العذاب الأخروي عذاب دائم لا يفتر عنهم وهم فيه مبلسون وهو وعيد حق لا يتخلف ولا يتبدل. قال تعالى: { إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ }[الأنعام:١٣٤].

يعني: الوعيد الذي أوعد في الآخرة من العذاب لآت، يقول: لكائن لا خلف فيه، وما أنتم بسابقين الله تعالى بأعمالكم الخبيثة التي يجازيكم بها ولا بفائتين أن يدرككم، يقول: لن تعجزوا ربّكم هربًا منه في الأرض فتفوتوه؛ لأنكم حيث كنتم في قبضته، وهو عليكم وعلى عقوبتكم بمعصيتكم إيّاه قادر. يقول: فاحذرُوه وأنيبوا إلى طاعته، قبل نزول البلاء بكم(١).

وقال تعالى: { مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ }[ق:٢٩].

يقول تعالى ذكره مخبراً عن قيله للمشركين وقرنائهم من الجنّ يوم القيامة، إذ تبرأ بعضهم من بعض: ما يغير القول الذي قلته لكم في الدنيا، وهو قوله:( لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ )ولا قضائي الذي قضيته فيهم فيها. المعنى قدمت بالوعيد أني أعذب الكفار في ناري فلا يبدل قولي ولا ينقص ما أبرمه كلامي، ثم أزال عز وجل موضع الاعتراض بقوله: {وما أنا بظلام للعبيد}أي: هذا عدل فيهم؛ لأني أعذرت وأمهلت وأنعمت بالإدراكات وهديت السبيل والنجدين وبعثت الرسل.

وقال الفراء: معنى قوله: {ما يبدل القول لدي}: ما يكذب لدي؛ لعلمي بجميع الأمور(٢).

وقال تعالى: {خُلِقَ الْإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ{٣٧} وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ{٣٨} لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ{٣٩} بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ{٤٠} وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ{٤١}.

يخبر تعالى عن المشركين أنهم يستعجلون بوقوع العذاب بهم؛ تكذيبًا وجحوداً وكفراً وعناداً واستبعاداً، فقال: { ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين }قال الله تعالى: { لو يعلم الذين كفروا حين لا يكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم } أي: لو تيقنوا أنها واقعة بهم لا محالة لما استعجلوا، ولو يعلمون حين يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم لما استعجلوا، فالعذاب محيط بهم من جميع جهاتهم، ولا ناصر لهم منه، يقول تعالى –مسليًا لرسوله صلوات الله وسلامه عليه عما آذاه به المشركون من الاستهزاء والتكذيب–: { ولقد استهزئ برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون } يعني: من العذاب الذي كانوا يستبعدون وقوعه، كما قال تعالى: { ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله ولقد جاءك من نبإ المرسلين } [الأنعام:٣٤](٣).

---

(١ ) بحر العلوم، للسمرقندي (١/ ٥٠٢)، تفسير الطبري (١٢/ ١٢٨).

(٢ ) تفسير الطبري (٢٢/ ٣٥٩)، المحرر الوجيز (٥/ ١٤٧).

(٣ ) تفسير ابن كثير (٥/ ٣٤٣).

## المبحث الخامس:

## ما سبقَ في علم الله من الأقدار والآجال والأعمار والأرزاق والسعادة والشقاوة

**وفيه مطلبان:**

**المطلب الأول: الاستدلال على كون علم الله الأزلي في أقضيته غيرَ قابل للتغيير**

**المطلب الثاني: اختلاف العلماء في جريان التغيير في الأعمار والأرزاق والآجال والشقاوة والسعادة**

### المطلب الأول: الاستدلال على كون علم الله الأزلي في أقضيته غيرَ قابل للتغيير:

لقد اتفق العلماء على أن علم السابق في تحديد الأقدار والآجال والأعمار والأرزاق والسعادة والشقاوة وغير ذلك من الأقضية غير قابل للتغيير والتبديل، وهذا هو التقدير الأزلي الشامل، وهذا لا يعلمه إلا الله تعالى، وما يحدث بعد ذلك من الخلق وعلى الخلق إنما هو ظهور لذلك العلم السابق الذي ثبت ولم يجرِ عليه التغيير، ويدل على ذلك أدلة كثيرة من كتاب الله تعالى، ومن سنة رسوله عليه الصلاة والسلام.

قال تعالى: (( إِنْ تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ))[النحل:٣٧].

قال الشنقيطي: "ذكر جل وعلا في هذه الآية: أن حرص النَّبي صلى الله عليه وسلم على إسلام قومه لا يهدي من سبق في علم الله أنه شقي. وأوضح هذا المعنى في مواضع أُخر؛ كقوله: {إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ} [٥٦/٢٨]، وقوله: {وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ} [٤١/٥]، وقوله: {مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ}[١٨٦/٧]، وقوله: {وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ} [١٢٥/٦]، إلى غير ذلك من الآيات"(١).

وقال تعالى: ((وَاللَّهُ يَحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ))[الرعد:٤١]. يعني: لا رادّ لحكمه، ولا ناقض لقضائه، فإذا حكم حكمًا فأمضاه لا يتعقبه أحد بتغيير أو نقص(٢).

وقال تعالى: (( وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ))[فاطر:١١].

قال ابن كثير: " عن ابن عباس في قوله: { وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب إن ذلك على الله يسير } ، يقول: ليس أحد قضيت له طول عمر وحياة إلا وهو بالغ ما قدّرت له من العمر، وقد قضيت ذلك له، فإنما ينتهي إلى الكتاب الذي قدرت، لا يزاد عليه، وليس أحد قضيت له أنه قصير العمر والحياة ببالغ للعمر، ولكن ينتهي إلى الكتاب

---

(١ ) أضواء البيان (٢/ ٣٧٥).

(٢ ) تفسير الخازن (٤/ ٣٠)، التبيان في تفسير غريب القرآن، لابن الهائم (ص: ٢٥١).

الذي كتبت له، فذلك قوله: { ولا ينقص من عمره إلا في كتاب إن ذلك على الله يسير }، يقول: كل ذلك في كتاب عنده. وهكذا قال الضحاك بن مزاحم"(١).

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ( إن روح القدس نفث في روعي: إن نفسًا لا تموت حتى تستكمل رزقها، فاتقوا الله، وأجملوا في الطلب، ولا يحملنكم استبطاء الرزق أن تطلبوه بمعاصي الله؛ فإن الله لا يدرك ما عنده إلا بطاعته، خذوا ما حل ودعوا ما حرم)(٢).

يعني: "ترفقوا في السعي في طلب حظكم من الرزق، ( فإن نفسًا لن تموت حتى تستوفي رزقها ) { نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا } ( وإن أبطأ عنها ) فهو لا بد يأتيها، فلا فائدة للانهماك والاستشراف، والرزق لا ينال بالجد ولا بالاجتهاد، وقد يكدح العاقل الذكي في طلبه فلا يجد مطلوبه، والغر الغبي يتيسر له ذلك المطلوب، فعند تلك الاعتبارات يلوح لك صدق قول الشافعي:

ومن الدليل على القضاء وكونه . . . بؤس اللبيب وطيب عيش الأحمق

قال الفخر الرازي: يظهر أن هذه المطالب إنما تحصل وتسهل بناء على قسمة قسّام، لا يمكن منازعته ومغالبته" (٣). وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يا أبا هريرة، جف القلم بما أنت لاق)(٤).

قال ابن حجر: "قوله: (جف القلم بما أنت لاق) أي: نفد المقدور بما كتب في اللوح المحفوظ، فبقي القلم الذي كتب به جافًا لا مداد فيه؛ لفراغ ما كتب به(٥).

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف) (٦).

قال ابن رجب: " (رفعت الأقلام وجفت الصحف) هو كناية عن تقدم كتابة المقادير كلها والفراغ منها من أمد بعيد؛ فإن الكتاب إذا فرغ من كتابه، ورفعت الأقلام عنه، وطال عهده فقد رفعت عنه الأقلام، وجفت الأقلام التي كتب بها من مدادها وجفت الصحف التي كتب فيها بالمداد المكتوب به فيها. وهذا من أحسن الكنايات وأبلغها، وقد دل الكتاب والسنن الصحيحة الكثيرة على مثل هذا المعنى؛ قال الله تعالى: ((ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير))، وفي صحيح مسلم عن عبدالله بن عمرو عن النبي صلى الله عليه و سلم قال: (إن الله كتب مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة)، وفيه أيضًا عن جابر أن رجلاً قال: يا رسول الله، ففيم العمل اليوم، أفيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير أم فيما يستقبل؟ قال: (لا، بل فيما جفت به

---

(١ ) تفسير ابن كثير (٦/ ٥٣٨).

(٢ ) رواه ابن حبان (٨/ ٣٢)، وابن ماجه (٢/ ٧٢٥)، وأبو نعيم، حلية الأولياء (١٠/ ٢٧)، والحاكم (٤/ ٣٦١)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد و لم يخرجاه، ووافقه الذهبي. وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير (٩/ ٢٩٥).

(٣ ) فيض القدير شرح الجامع الصغير، للمناوي (٣/ ١٥٩).

(٤ ) رواه البخاري (٥/ ١٩٥٣).

(٥ ) فتح الباري (٩/ ١١٩).

(٦ ) رواه الترمذي (٤/ ٦٦٧)، وأحمد (١/ ٢٩٣)، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (٦/ ١٦).

الأقلام وجرت به المقادير، قال: ففيم العمل؟ قال: اعملوا؛ فكل ميسر لما خلق له)، وخرج الإمام أحمد وأبو داود والترمذي من حديث عبادة بن الصامت عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إن أول ما خلق الله القلم ثم قال: اكتب فكتب في تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة)"(١).

وقد كثرت عبارات العلماء من مفسرين، ومحدثين، وفقهاء في بيان سبق علم الله تعالى بجميع الأقضية، وأنها غير قابلة للتغيير والتبديل في ذلك العلم السابق.

قال ابن عطية –عند قوله تعالى: { يمحو الله ما يشاء ويثبت}: "وتخبط الناس في معنى هذه الألفاظ، والذي يتخلص به مشكلها: أن نعتقد أن الأشياء التي قدرها الله تعالى في الأزل وعلمها بحال ما لا يصح فيها محو ولا تبديل، وهي التي ثبتت في " أم الكتاب " وسبق بها القضاء، وهذا مروي عن ابن عباس وغيره من أهل العلم، وأما الأشياء التي قد أخبر الله تعالى أنه يبدل فيها وينقل كعفو الذنوب بعد تقريرها وكنسخ آية بعد تلاوتها واستقرار حكمها ففيها يقع المحو والتثبيت فيما يقيده الحفظة ونحو ذلك، وأما إذا رد الأمر للقضاء والقدر فقد محا الله ما محا وثبت ما ثبت"(٢).

وقال الرازي: "علم الله لا يتغير، وحكمه لا ينقلب، وقضاؤه لا يتبدل(٣). وقال أيضًا: "علم الله من الأزل إلى الأبد محيط بكل معلوم، وعلمه لا يتغير، وهو في كونه عالما لا يتغير، ولكن يتغير تعلق علمه؛ فإن العلم صفة كاشفة يظهر بها كل ما في نفس الأمر، فعلم الله في الأزل أن العالم سيوجد فإذا وجد علمه موجوداً بذلك العلم، وإذا عدم يعلمه معدومًا بذلك، مثاله أن المرآة المصقولة فيها الصفاء فيظهر فيها صورة زيد إن قابلها، ثم إذا قابلها عمرو يظهر فيها صورته، والمرآة لم تتغير في ذاتها ولا تبدلت في صفاتها، وإنما التغير في الخارجات"(٤).

وقال القرطبي–عند قوله الله تعالى: (يمحو الله ما يشاء ويثبت): " "والعقيدة أنه لا تبديل لقضاء الله، وهذا المحو والإثبات مما سبق به القضاء، وقد تقدم أن من القضاء ما يكون واقعًا محتومًا، وهو الثابت، ومنه ما يكون مصروفًا بأسباب، وهو الممحو، والله أعلم....، وسئل ابن عباس عن أم الكتاب؟ فقال: علم الله ما هو خالق، وما خلقه عاملون، فقال لعلمه: كن كتابًا، ولا تبديل في علم الله"(٥).

وقال ابن عجيبة: "أما القضاء المبرم وهو: علم الله القديم الذي استأثر الله به فلا شك أنه لا يتبدل ولا يغير، وأما القضاء الذي يبرز إلى علم الخلائق من الملائكة وغيرهم، فيقع فيه المحو والإثبات، وذلك أن الحق تعالى قد يُطلعهم على بعض الأقضية، وهي عنده متوقفة على أسباب وشروط يخفيها عنهم بقهريته ؛ليظهر اختصاصه بالعلم الحقيقي، فإذا أراد الملائكة أن ينفذوا ذلك الأمر محاه الله تعالى، وأثبت ما عنده في علم غيبه، وهو أُمُّ الكتاب، حتى قال بعضهم: إن اللوح المحفوظ له

---

(١ ) جامع العلوم والحكم (ص: ١٩٣).

(٢ ) المحرر الوجيز (٣/ ٣٢٠).

(٣ ) تفسير الرازي : مفاتيح الغيب (٩/ ٤٧).

(٤ ) تفسير الرازي : مفاتيح الغيب (٢٥/ ٢١٩).

(٥ ) تفسير القرطبي (٩/ ٣٣٢).

جهتان: جهة تلي عالَمَ الغيب، وفيه القضاء المبرم، وجهة تلي عالَمَ الشهادة، وفيه القضاء الذي يُرد ويُمْحى؛ لأنه قد تكتب فيه أمور، وهي متوقفة على شروط"(١).

وقال ابن جزي: القضاء لا يبدل، وعلم الله لا يتغير(٢).

وقال الشنقيطي: "ما سبق في علم الله لا يتغير ولا يتبدل"(٣).

وقال ابن عاشور: "أما مسألة تأخير الآجال والزيادة في الأعمار والنقص منها، وتوحيد الأجل عندنا واضطراب أقوال المعتزلة في: هل للإنسان أجل واحد أو أجلان؟ فتلك قضية أخرى ترتبط بأصلين: أصل العلم الإلهي بما سيكون، وأصل تقدير الله للأسباب وترتب مسبباتها عليها. فأما ما في علم الله فلا يتغير قال تعالى: {وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلاَ يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلاَّ فِي كِتَابٍ} [فاطر:١١] أي: في علم الله، والناس لا يطلعون على ما في علم الله"(٤).

وقال ابن تيمية: "قال العلماء: إنَّ المحو والإثبات في صحف الملائكة، وأما علم الله سبحانه فلا يختلف ولا يبدو له ما لم يكن عالماً به، فلا محو فيه ولا إثبات"(٥).

وقال أيضًا: "علم الله القديم الأزلي وما يتبعه من محبته ورضاه وبغضه وسخطه وولايته وعداوته لا يتغير، فمن علم الله منه أنه يوافي حين موته بالإيمان والتقوى فقد تعلقت به محبة الله وولايته ورضاه عنه أزلاً وأبداً. وكذلك من علم الله منه أنه يوافي حين موته بالكفر فقد تعلق به بغض الله وعدوانه وسخطه أزلاً وأبداً"(٦).

وقال ابن حجر: "وفيه -يعني حديث ابن مسعود- أن السعيد قد يشقى، وأن الشقي قد يسعد، لكن بالنسبة إلى الأعمال الظاهرة، وأما ما في علم الله تعالى فلا يتغير. ...والحق أن الذي سبق في علم الله لا يتغير ولا يتبدل، وأن الذي يجوز عليه التغيير والتبديل ما يبدو للناس من عمل العامل، ولا يبعد أن يتعلق ذلك بما في علم الحفظة والموكلين بالآدمي، فيقع فيه المحو والإثبات كالزيادة في العمر والنقص، وأما ما في علم الله فلا محو فيه ولا إثبات والعلم عند الله"(٧).

وقال أيضًا: "قال ابن العربي: الحكمة في كون الملك يكتب ذلك كونه قابلاً للنسخ والمحو والإثبات، بخلاف ما كتبه الله تعالى فإنه لا يتغير"(٨).

وقال المناوي: "بر الوالدين يزيد في العمر، وقد جاء ذلك في عدة أخبار، وذلك بالنسبة لما في اللوح أو الصحف، أما العلم الأزلي فلا يتغير"(٩).

---

(١ ) البحر المديد(٣/ ٤٧٩).
(٢ ) التسهيل لعلوم التنزيل (٢/ ٤٨).
(٣ ) أضواء البيان (٧/ ١٧٣).
(٤ ) التحرير والتنوير (٢٩/ ١٧٨).
(٥ ) مجموع الفتاوى (١٤/ ٤٩٢).
(٦ ) المصدر السابق(١١/ ٦٣).
(٧ ) فتح الباري (١١/ ٤٨٨).
(٨ ) المصدر السابق (١٨/ ٤٣٧).
(٩ ) فيض القدير شرح الجامع الصغير، للمناوي (٣/ ٢١).

وقال الألباني: "علم الله تعالى لا يتغير ولا يتبدل، تمامًا كما هو الشأن في الأعمال الصالحة والطالحة"(١).

وقال أيضًا "إذا عرفت ما تقدم فاعلم أن المحو المذكور والزيادة في الرزق والعمر إنما هو بالنسبة للقضاء أو القدر المعلق، وأما القضاء المبرم المطابق للعلم الإلهي فلا محو ولا تغيير(٢).

## المطلب الثاني: اختلاف العلماء في جريان التغيير في الأعمار والأرزاق والآجال والشقاوة والسعادة:

**وفيه فرعان:**

### الفرع الأول: نصوص يوهم ظاهرها التعارض:

وردت نصوص يوهم ظاهرها التعارض في قضية التغيير في الأرزاق والأعمار والآجال والسعادة والشقاوة؛ ولذلك جرى خلاف بين العلماء في هذه النصوص، فمنهم من قال: إن هذه الأمور يحصل فيها تغيير حقيقة-واختلفوا في معنى التغيير-، ومنهم من يقول: إنها غير قابلة للتغيير الحقيقي. وهذه النصوص هي:

**من القرآن:**

قوله تعالى: (( يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ))[الرعد:٣٩].

وقوله: ((...وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ))[فاطر:١١].

وقوله: (( وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ ))[الأعراف:٣٤].

وقوله: (( يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ))[نوح:٤].

وقوله: (( وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا ...))[آل عمران:١٤٥].

وقوله: (هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ) [الأنعام: ٢].

**ومن الأحاديث:**

قوله صلى الله عليه وسلم: (من أحب أن يبسط له في رزقه، وينسأ له في أثره فليصل رحمه)[٣].

وقوله صلى الله عليه وسلم: (لا يرد القدر إلا الدعاء، ولا يزيد في العمر إلا البر)[٤].

وقالت أم حبيبة زوج النبي صلى الله عليه وسلم: اللهم أمتعني بزوجي رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبأبي أبي سفيان، وبأخي معاوية. قالت: فقال النبي صلى الله عليه وسلم: ( قد سألت الله لآجال مضروبة، وأيام معدودة، وأرزاق مقسومة، لن يعجل شيئًا قبل حله أو يؤخر شيئًا عن حله، ولو كنت سألت الله أن يعيذك من عذاب في النار أو عذاب في القبر كان خيراً وأفضل)[٥].

---

(١ ) سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة (١١/ ٥١٥).

(٢ ) المصدر السابق (١١/ ٧٦٧).

(٣ ) رواه البخاري (٢/ ٧٢٨)، ومسلم (٤/ ١٩٨٢).

(٤ ) رواه ابن حبان (٣/ ١٥٣)، والحاكم (١/ ٦٧٠) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وحسنه الحافظ العراقي. مصباح الزجاجة (١/ ١٣).

(٥ ) رواه مسلم (٤/ ٢٠٥٠).

وقوله صلى الله عليه وسلم: (إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يومًا ثم يكون في ذلك علقة مثل ذلك، ثم يكون في ذلك مضغة مثل ذلك، ثم يرسل الملك فينفخ فيه الروح، ويؤمر بأربع كلمات: بكتب رزقه وأجله وعمله وشقى أو سعيد، فوالذي لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها) (١).

دعاؤه صلى الله عليه وسلم لأنس بن مالك رضي الله عنه: (اللهم أكثر ماله وولده وبارك له فيه)(٢). وعند الطبراني وابن سعد وأبي يعلى (وأطل عمره)(٣)، وعند البخاري في الأدب المفرد(وأطل حياته)(٤).

وقوله صلى الله عليه وسلم: (لما خلق الله آدم مسح ظهره فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها إلى يوم القيامة، ثم جعل بين عيني كل إنسان منهم وبيصًا من نور ثم عرضهم على آدم فقال: أي رب، من هؤلاء؟ قال: هؤلاء ذريتك، فرأى رجلاً منهم أعجبه نور ما بين عينيه، فقال: أي رب، من هذا؟ قال: رجل من ذريتك في آخر الأمم يقال له: داود، قال: أي رب، كم عمره؟ قال: ستون سنة، قال: فزده من عمري أربعين سنة، قال: إذن يكتب ويختم ولا يبدل، فلما انقضى عمر آدم جاء ملك الموت فقال: أو لم يبق من عمري أربعون سنة؟ قال: أو لم تعطها ابنك داود ؟! فجحدت ذريته ونسي آدم، فنسيت ذريته، وخطئ آدم فخطئت ذريته) (٥).

**ومن الأثر:**

ورد عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال –وهو يطوف بالبيت ويبكي–: "اللهم إن كنت كتبتَ علي شقوة أو ذنبًا فامحه؛ فإنك تمحو ما تشاء وتثبت، وعندك أم الكتاب، فاجعله سعادة ومغفرة"، وروي عن ابن مسعود مثله(٦).

وعن الأعمش، عن شقيق بن سلمة تلميذ ابن مسعود أنه كان يقول:" اللهم إن كنت كتبتنا أشقياء، فامحنَا واكتبنا سعداء، وإن كنت كتبتنا سعداء فأثبتنا؛ فإنك تمحو ما تشاءُ وتثبت وعندَك أمّ الكتاب" (٧).

وعن ابن عمر رضي الله عنهما أنه قال في قوله تعالى: (يمحو الله ما يشاء) ؛ إلا الشقاوة ، والسعادة ، والحياة ، والموت(٨).

---

(١ ) رواه البخاري (٣/ ١١٧٤)، ومسلم (٤/ ٢٠٣٦).

(٢ ) رواه البخاري (٥/ ٢٣٤٥)، ومسلم (١/ ٤٥٧).

(٣ ) المعجم الكبير (٢٠/ ٨٥)، الطبقات الكبرى، لابن سعد (٧/ ١٩)، مسند أبي يعلى (٧/ ٢٣٣)، وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (٦/ ٤٠).

(٤ ) الأدب المفرد (ص: ٢٢٧)، وصححه الألباني في صحيح الأدب المفرد (١/ ٢٤٦).

(٥ ) رواه الترمذي (٥/ ٢٦٧) وقال: هذا حديث حسن صحيح، والحاكم (٢/ ٣٥٤)وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم و لم يخرجاه، وهو صحيح.

(٦ ) تفسير الطبري (١٦/ ٤٨١).

(٧ ) تفسير الطبري (١٦/ ٤٨١).

(٨ ) رواه الطبراني، المعجم الأوسط (٩/ ١٧٩)، وضعفه الألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة (١١/ ٧٦٢).

## الفرع الثاني: أقوال العلماء في المسألة:

وبناء على ما تقدم من تلك النصوص اختلف العلماء في جواز حصول التغيير على الأعمار والآجال والسعادة والشقاوة إلى قولين:

**القول الأول**: ذهب بعض العلماء إلى جواز حصول التغيير في الأعمار والآجال والسعادة والشقاوة بالنسبة للمكتوب في صحف الملائكة، أما في علم الله فلا تغيير في ذلك باتفاق كما تقدم. وأما بخصوص الأعمار والآجال فقال بعضهم: التغيير يكون في صحف الملائكة، وقال بعضهم: التغيير معناه: أن الواصل لرحمه يعيش كذا، والقاطع يعيش كذا، فيعيش بهذا السبب إلى هذه الغاية ، ولولا ذلك السبب لم يصل إلى هذه الغاية(١)، وقال بعضهم معناه: أن يكتب أجل العبد مائة سنة، ويجعل تركيبه تعمير ثمانين، فإذا وصل رحمه زاده الله في تركيبه فعاش عشرين سنة أخرى(٢).

قال البيهقي: ... عن منصور، قال: قلت لمجاهد: ما تقول في هذا الدعاء: (اللهم إن كان اسمي في السعداء فأثبته فيهم، وإن كان في الأشقياء فامحه منهم واجعله في السعداء)، فقال:"حسن، ثم مكثت حولاً فسألته عن ذلك فقال: «حم والكتاب المبين إنا أنزلناه في ليلة مباركة إنا كنا منذرين فيها يفرق كل أمر حكيم» قال: يفرق في ليلة القدر ما يكون في السنة من رزق أو مصيبة، فأما كتاب الشقاوة والسعادة فإنه ثابت لا يغير"(٣).

وقال ابن تيمية: "والجواب المحقق: أن الله يكتب للعبد أجلاً في صحف الملائكة، فإذا وصل رحمه زاد في ذلك المكتوب، وإن عمل ما يوجب النقص نقص من ذلك المكتوب... والله سبحانه عالم بما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف كان يكون؛ فهو يعلم ما كتبه له وما يزيده إياه بعد ذلك، والملائكة لا علم لهم إلا ما علمهم الله، والله يعلم الأشياء قبل كونها وبعد كونها"(٤).

وقال أيضًا: "فلهذا قال العلماء: إن المحو والإثبات في صحف الملائكة، وأما علم الله سبحانه فلا يختلف ولا يبدو له ما لم يكن عالمًا به، فلا محو فيه ولا إثبات"(٥).

وقال أيضًا: "وأما نقص العمر وزيادته فمن الناس من يقول: إنه لا يجوز بحال ويحمل ما ورد على زيادة البركة، والصواب أنه يحصل نقص وزيادة عما كتب في صحف الملائكة. وأما علم الله القديم فلا يتغير(٦).

وقال السفاريني: "وأما الأحاديث التي فيها أن بعض الطاعات تزيد في العمر، مثل صلة الرحم، ونحو ذلك مما جاء أنه يقصر العمر، فهذا في الصحف التي يقع فيها المحو، والإثبات، وعلم الله تعالى لا يقع فيه تغيير ولا زيادة ولا نقصان"(٧).

وقال الألباني-بعد أن ساق حديث: (إن الله تعالى لا يؤخر نفسًا إذا جاء أجلها، وإنما زيادة العمر بالذرية الصالحة يرزقها

---

(١ ) شرح الطحاوية ، لابن أبي العز (١/ ٢٤٧)، تفسير الكشاف (٣/ ٦١٣)، شرح صحيح البخاري، لابن بطال (١٠/ ١٠٦).

(٢ ) كشف المشكل من حديث الصحيحين (ص: ٨٠٠).

(٣ ) القضاء والقدر للبيهقي (١/ ٢١٥).

(٤ ) مجموع الفتاوى، لابن تيمية(١٤/ ٤٩٠).

(٥ ) مجموع الفتاوى (١٤/ ٤٩٢).

(٦ ) مجموع الفتاوى (٢٤/ ٣٨١).

(٧ ) لوامع الأنوار البهية (١/ ٣٤٩).

العبد، فيدعون له من بعده، فيلحقه دعاؤهم في قبره، فذلك زيادة العمر ) وحكم عليه بالنكارة-: وأما سائره فمنكر لا شاهد له، بل هو مخالف لبعض الأحاديث الصحيحة المصرحة بأن هناك أسبابًا شرعية لإطالة العمر، كقوله – صلى الله عليه وسلم –:"من أحب أن يبسط له في رزقه، وأن ينسأ له في أثره (وفي رواية: أجله) ؛ فليصل رحمه" أخرجه الشيخان من حديث أنس، .. وكقوله – صلى الله عليه وسلم –:(حسن الخلق وحسن الجوار يعمران الديار، ويزيدان في الأعمار). أخرجه أحمد بسند صحيح ... وقد يظن بعض الناس أن هذه الأحاديث تخالف الآية السابقة: {ولن يؤخر الله نفسا إذا جاء أجلها ...}، وغيرها من الآيات والأحاديث التي في معناها! والحقيقة أنه لا مخالفة؛ لأن الأحاديث المذكورة آنفا إنما تتحدث عن مبدأ الأخذ بالأسباب، ولا تتحدث عما سبق في علم الله الأزلي من الآجال المحددة؛ فإن علم الله تعالى لا يتغير ولا يتبدل؛ تمامًا كما هو الشأن في الأعمال الصالحة والطالحة، والسعادة والشقاوة، فالآيات والأحاديث التي تأمر بالإيمان والعمل الصالح، وتنهى عن نقيضهما لا تكاد تحصى، وفي بعضها يقول الله تعالى: {ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون}، وقد ذكر العلماء المحققون أن الباء في هذه الآية ؛ إنما هي باء السببية، فذلك كله لا ينافي ما سبق في علم الله تعالى من السعادة والشقاوة، بل إنما هما أمران متلازمان: السعادة مع العمل الصالح، والشقاوة مع العمل الطالح. وهذا صريح في قوله صلى الله عليه وسلم:"إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة ، حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع ، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل النار، فيدخلها، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار، حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل الجنة ، فيدخلها". أخرجه الشيخان وغيرهما.. فانظر كيف أن نهاية الأمر كان مقرونًا بالعمل دخول الجنة والنار. فكما أنه لا يقال: إن العمل ليس سببًا للدخول فكذلك لا يقال: إن صلة الرحم وغيرها ليست سببًا لطول العمر بحجة أن العمر محدود؛ فإن الدخول أيضاً محدود: (فريق في الجنة وفريق في السعير). وما أحسن وأجمل جواب النبي صلى الله عليه وسلم لما حدث أصحابه بقوله: (ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من النار ومقعده من الجنة). فقالوا: أفلا نتكل على كتابنا وندع العمل؟! فقال صلى الله عليه وسلم:(اعملوا؛ فكل ميسر لما خلق له: أما من كان من أهل السعادة؛ فييسر لعمل أهل السعادة، وأما من كان من أهل الشقاوة؛ فييسر لعمل أهل الشقاوة). ثم قرأ: {فأما من أعطى واتقى . وصدق بالحسنى . فسنيسره لليسرى}، إلى قوله: {فسنيسره للعسرى} . أخرجه الشيخان . وجملة القول: أن الله تبارك وتعالى جعل لكل شيء سببًا، فالعمل الصالح سبب لدخول الجنة، والعمل السيئ لدخول النار، فكذلك جعل بعض الأخلاق الصالحة سببًا لطول العمر. فكما أنه لا منافاة بين العمل وما كتب لصاحبه عند ربه، فكذلك لا منافاة بين الأخلاق الصالحة وما كتب لصاحبها عند ربه ، بل كل ميسر لما خلق له"(١).

**القول الثاني**: وذهب بعض العلماء إلى أنه لا يحصل تغيير حقيقي في هذه الأقضية، وإنما المراد بالزيادة: الزيادة المعنوية، فالزيادة في العمر: البركة فيه وتوفيق صاحبه لفعل الخير وبلوغ الأغراض، فينال في قصير العمر ما يناله غيره في طويله؛ لأن الرزق والأجل مقدران مكتوبان(٢).

---

(١ ) سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة (١١/ ٥١٢-٥١٦).

(٢ ) فتح الباري (٤/ ٣٠٢) كشف المشكل من حديث الصحيحين، لابن الجوزي (ص: ٨٠٠)، التيسير بشرح الجامع الصغير، للمناوي (١/ ٦٥١)، مجموع الفتاوى، لابن تيمية (١٤/ ٤٩٠).

قال ابن تيمية–راداً على هذا التأويل–: "فيقال لهؤلاء: تلك البركة–وهي الزيادة في العمل والنفع– هي أيضًا مقدرة مكتوبة، وتتناول جميع الأشياء "(١).

وقال ابن عثيمين: " لأنهم لو قالوا هذا القول ما أجدى عنهم شيئاً؛ لأن البركة أيضاً وجودها كطول العمر، ونَزْعُها كقصر العمر، إنْ كان الله قد كتب أنْ يكون عمرك مُبارَكاً كان مُبارَكاً، وإنْ كان الله قد كتب أنه غير مُبارَك صار غير مُبارَك، وكذلك الرزق إن كان الله قد كتبه مُبارَكاً كان مُبارَكاً، وإنْ يكن كتبه غير مبارك لم يكن مُبارَكاً ،فالمسألة هي هي، هم فروا من شيء ووقعوا فيه؛ لأن كل شيءٍ مُقَدَّرْ: بركة المال، وبركة العمر، وبسط الرزق وطول العمر كله مكتوب، والمهم أن الذين يقولون هذا القول قولهم غير صحيح"(٢).

وقيل: إن الزيادة هي ما يبقى بعده من الثناء الجميل والذكر الحسن، والأجر المتكرر، فكأنه لم يمت، فهذه زيادة عمر حكمًا(٣).

ويجاب عن هذا: بأن هذا مقدر كذلك. وقيل: المراد: المراد بزيادة العمر نفي الآفات عن صاحب البر في فهمه وعقله، جزم به ابن فورك (٤)، وقيل: المراد بالزيادة: توسعة الرزق، وصحة البدن؛ فإن الغنى يسمى حياة، والفقر يسمى موتًا(٥)، وقيل: المراد بزيادة العمر: ذرية صالحة يرزقها العبد يدعون له من بعد موته يلحقه دعاؤهم (٦).

قال ابن عطية:"وروي عن كعب الأحبار أنه قال: المعنى: {ولا ينقص من عمره} أي: لا يخرم بسبب قدرة الله ولو شاء لأخر ذلك السبب، قال القاضي أبو محمد: وروي أنه قال حين طعن عمر: لو دعا الله تعالى لزاد في أجله، فأنكر عليه المسلمون ذلك، وقالوا: إن الله تعالى يقول: {فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة} [ الأعراف: ٣٤ ] [ النحل: ٦١ ] فاحتج بهذه الآية، وهو قول ضعيف مردود يقتضي القول بالأجلين وبنحوه تمسكت المعتزلة"(٧).

ورأى أصحاب هذا القول أن السعادة والشقاوة والخلق لا تتغير، فآية {يمحو الله ما يشاء ويثبت} فيما عدا هذه الأشياء(٨)، وأما قول عمر وابن مسعود وغيرهما فهو مؤول، قال ابن عطية: " وروي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه وعن عبد الله بن مسعود أنهما كانا يقولان في دعائهما: "اللهم إن كنت كتبتنا في ديوان الشقاوة فامحنا واثبتنا في ديوان السعادة؛ فإنك تمحو ما تشاء وتثبت"، قال القاضي أبو محمد: وهذا دعاء في غفران الذنوب وعلى جهة النجزع منها، أي: اللهم إن كنا شقينا بمعصيتك وكتب علينا ذنوب وشقاوة بها فامحها عنا بالمغفرة، وفي لفظ عمر في بعض الروايات بعض من هذا، ولم يكن دعاؤهما البتة في تبديل سابق القضاء ولا يتأول عليهما ذلك"(٩).

---

(١ ) مجموع الفتاوى، لابن تيمية (١٤/ ٤٩٠).

(٢ ) شرح العقيدة السفارينية، لابن عثيمين (١/ ٢٧٦).

(٣ ) تفسير القرطبي (٩/ ٣٣٠)، مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، للملا على القاري (١٠/ ٣٥٩).

(٤ ) فتح الباري (١٠/ ٤١٦).

(٥ ) كشف المشكل من حديث الصحيحين، لابن الجوزي (ص: ٨٠٠)، تأويل مختلف الحديث، لابن قتيبة (ص: ٢٠٢).

(٦ ) الإفصاح عن أحاديث النكاح، لابن حجر الهيتمي (ص: ٣)، فتح الباري (١٠/ ٤١٦).

(٧ ) المحرر الوجيز (٤/ ٤٩٧–٤٩٨).

(٨ ) تفسير القرطبي (٩/ ٣٢٩).

(٩ ) المحرر الوجيز (٣/ ٣٢١).

وقال أيضًا: "وقوله: { يمحو الله ما يشاء ويثبت}وتخبط الناس في معنى هذه الألفاظ، والذي يتخلص به مشكلها: أن نعتقد أن الأشياء التي قدرها الله تعالى في الأزل وعلمها بحال ما لا يصح فيها محو ولا تبديل، وهي التي ثبتت في " أم الكتاب " وسبق بها القضاء، وهذا مروي عن ابن عباس وغيره من أهل العلم، وأما الأشياء التي قد أخبر الله تعالى أنه يبدل فيها وينقل كعفو الذنوب بعد تقريرها، وكنسخ آية بعد تلاوتها واستقرار حكمها، ففيها يقع المحو والتثبيت فيما يقيده الحفظة ونحو ذلك، وأما إذا رد الأمر للقضاء والقدر فقد محا الله ما محا وثبت ما ثبت. وجاءت العبارة مستقلة بمجيء الحوادث، وهذه الأمور فيما يستأنف من الزمان فينتظر البشر ما يمحو أو ما يثبت، وبحسب ذلك خوفهم ورجاؤهم ودعاؤهم.

وقالت فرقة منها الحسن: هي في آجال بني آدم، وذلك أن الله تعالى في ليلة القدر، وقيل: في ليلة نصف شعبان يكتب آجال الموتى فيُمحى ناس من ديوان الأحياء ويثبتون في ديوان الموتى. وقال قيس بن عباد: العاشر من رجب هو يوم {يمحو الله ما يشاء ويثبت}. قال القاضي أبو محمد: وهذا التخصيص في الآجال أو غيرها لا معنى له، وإنما يحسن من الأقوال هنا ما كان عامًا في جميع الأشياء، فمن ذلك أن يكون معنى الآية: أن الله تعالى يغير الأمور على أحوالها أعني: ما من شأنه أن يغير على ما قدمناه فيمحوه من تلك الحالة ويثبته في التي نقله إليها"[1].

**الترجيح:**

والراجح أن ما علمه الله في الأزل من الأعمار والآجال والسعادة والشقاوة وغيرها من الأقضية لا يتغير ولا يتبدل، وأما ما في صحف الملائكة فيجري الله عليه التغيير بأسباب جعلها الله تعالى أسبابًا لذلك، كالعمل بالنسبة للسعادة والشقاوة، وصلة الرحم والدعاء بالنسبة للأعمار والآجال، "وليس أدل على المحو والإثبات: مما جاء عن الرسول صلوات الله تعالى وسلامه عليه في القنوت؛ فإن فيه: (وقني شر ما قضيت) ولا ينقلب الشر خيراً إلا بمحوه وتغييره، وإثبات الخير مكانه. ولولا جواز المحو والتبديل، وإمكانه لأصبح الدعاء لغواً، لا طائل وراءه؛ وقد قال تعالى:{ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ}، وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: "لا ينفع الحذر من القدر، ولكن الله تعالى يمحو بالدعاء ما يشاء من القدر"[2]. "وقد استفاض على الألسنة: أطال الله بقاءك، وفسح في مدتك، وما أشبهه"[3]. ثم يخرج العبد من الدنيا بما ختم له في العلم السابق، قال الخازن: " والأصل في هذا الاعتبار بالخاتمة عند الموت وما يختم الله به له، وهو المراد من علم الله الأزلي الذي لا يتغير ولا يتبدل. والله أعلم"[4].

---

(١ ) المحرر الوجيز(٣/ ٣٢٠).

(٢ ) أوضح التفاسير، لمحمد عبد اللطيف (١/ ٣٠٣).

(٣ ) تفسير الكشاف، للزمخشري (٣/ ٦١٣).

(٤ ) تفسير الخازن (٤/ ٢٧).

## الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على النبي الأمين وعلى آله وصحبه أجمعين:

أما بعد:

فبعد أن خضت غمار الحديث عن التغيير في خطاب القرآن الكريم يحسن أن أسجل هذه النتائج:

١- أن التغيير هو: إحداث شيء في شيء لم يكن قبله، في ذاته أو في صفاته.

٢- أن التغيير البشري منه ما هو محمود ومنه ما هو مذموم، وأما التغيير الذي يحدثه الله تعالى في الحياة والأحياء فكله تغيير محمود بلا شك.

٣- أن التغيير المحمود هو: التغيير الشرعي الذي قام على مصلحة مباحة راجحة، تؤول إلى خير عاجل أو آجل. وله صور متعددة، منها: التغيير العقدي، والتغيير الفقهي، والتغيير النفسي. ولكلٍّ صورة من هذه الصور تعريف، وفيها مظاهر، وأسباب، ووسائل، ومعوقات، وآثار.

٤- أن التغيير المذموم هو: التغيير المحظور شرعاً، الذي أحدثه المكلف؛ لمصلحة عاجلة، أو رجاء مصلحة آجلة حسب ظنه. وله صور منها: التغيير العقدي، والتغيير الفقهي، والتغيير النفسي، والتغيير الفطري. وفي هذه الصور: تعريف، ومظاهر، وأسباب، وآثار.

٥- أن هناك تغييراً لا يجري على يد البشر، وإنما على يد رب البشر، فمنه ما يحصل في الأرض من الخصب والجدب اللذين لهما أسباب أدت إليهما، وآثار تنتج عن هذا التغير.

٦- فيما يجري على الليل والنهار من تغيير في طولها وقصرهما حسب نظام دقيق لم يتغير منذ خلقهما؛ دليل على عظم قدرة الله جل جلاله، وعلى كونه الإله الحق الذي لا تجوز العبادة إلا له.

٧- أن اختلاف الليل والنهار له آثار على حياة الإنسان الدينية والدنيوية.

٨- أن الإنسان مخلوق يطرأ على قوته وقدرته وهيئته التغير من ضعف وعجز وغيرهما، ولهذا التغيير الذي يحدث له حِكم لو تمعن فيها لتواضع لربه، وقضى حياته في طاعته.

٩- أن هذه الحياة الدنيا لها ميقات معلوم تنتهي إليه، حيث يطرأ على هذه الأرض في نهاية الحياة أنواع من التغيير، فيتبدل ذاتها وهيئتها وصفاتها، فتزلزل زلزالاً شاملاً، وتذهب جبالها، وتفجر بحارها وتسجر. وكما يحصل للأرض تغيير فكذلك يحصل للسماء الدنيا، فيحصل لها الانشقاق، وذهاب الأنوار، وغير ذلك.

١٠- وكما جرى التغيير في الدنيا كذلك يجري في الآخرة، ففي الجنة يتغير خَلق أهلها وأخلاقهم عما كانت عليه في الدنيا، وتذهب عنهم الصفات التي كانت ترافقهم في حياة الفناء من الضعف والعجز، والحاجة إلى الخلاء، ونحو ذلك. وتبقى أشياء في الجنة لا تمسها يد التغيير؛ كحلول رضوان الله عليهم، وعدم خروجهم من الجنة بعد دخولها، وبقائهم على سن الشباب، وعلى حال الصحة، إضافة إلى اللذات المعنوية والحسية الأخرى التي يلاقونها في الجنة.

١١- وأما أهل النار فتتغير أجسامهم عما كانت عليه في الدنيا، فتصير أجسامًا عظيمة تناسب شدة العذاب، وتتغير كذلك جلودهم كلما نضجت، وأما ما لا يتغير عن الخالدين فيها فهو: استمرار سخط الله عليهم وعذابه لهم، والمكث في النار أبد الآبدين دون خروج، ودوام الأجسام والحياة في ذلك العذاب دون موت أو فناء.

١٢- أن هناك أشياء لا يجري عليها التغيير، وهي: الله جل جلاله، والقرآن الكريم، والإسلام، ووعدُ الله للمؤمنين بالنصر والثواب والجنة، ووعيدُه للكافرين بالهلاك ومجيء البعث ودخول النار، وما سبقَ في علم الله من الأقدار والآجال والأعمار والأرزاق والسعادة والشقاوة.

وأسأل الله تعالى أن يتقبل هذا العمل، وينفع به، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وسلم.

# فهرس الموضوعات


مقدمة ..... ٢
التمهيد: مصطلحات البحث ..... ٣
المطلب الأول: تعريف التغيير: ..... ٣
المطلب الثاني: تعريف الخطاب: ..... ٤
المطلب الثالث: تعريف القرآن: ..... ٤
الفصل الأول ..... ٦
التغيير بين الحمد والذم ..... ٦
التغيير المحمود ..... ٦
المطلب الأول: تعريف التغيير المحمود: ..... ٦
المطلب الثاني: أنواع التغيير المحمود: ..... ٩
الفرع الأول: التغيير العقدي المحمود ..... ٩
الفرع الثاني: التغيير الفقهي المحمود ..... ٣٨
الفرع الثالث: التغيير النفسي المحمود ..... ٤٦
المبحث الثاني: التغيير المذموم ..... ٦٥
المطلب الأول: تعريف التغيير المذموم ..... ٦٥
المطلب الثاني: أنواع التغيير المذموم ..... ٦٦
الفرع الأول: التغيير العقدي المذموم ..... ٦٦
الفرع الثاني: التغيير الفقهي المذموم ..... ٧٧
الفرع الثالث: التغيير النفسي المذموم: ..... ٨٢
الفرع الرابع: التغيير الفطري المذموم ..... ٨٥
الفصل الثاني: التغيير في مظاهر الحياة الدنيا وأهلها ..... ٨٧
المبحث الأول: أحوال الأرض خصباً وجدباً ..... ٨٧
المطلب الأول: أسباب تغير الأرض خصباً وجدباً ..... ٨٧
المطلب الثاني: آثار تغير الأرض خصباً وجدباً ..... ٨٨
الفرع الأول: الآثار على الأرض: ..... ٨٨

الفرع الثاني: الآثار على الإنسان: ..... ٨٩
المبحث الثاني: أوقات الليل والنهار ..... ٩١
المطلب الأول: دلالة اختلاف الليل والنهار على قدرة الله تعالى واستحقاقه العبادة وحده: ..... ٩١
المطلب الثاني: آثار اختلاف الليل والنهار في حياة الإنسان: ..... ٩١
المبحث الثالث: ما يعتري الإنسانَ من الضعف والقوة ..... ٩٤
المطلب الأول: اختلاف أحوال الإنسان ضعفاً وقوة ..... ٩٤
المطلب الثاني: حِكَم تغيير أحوال الإنسان ضعفاً وقوة ..... ٩٥
الفصل الثالث: التغيير قبيل القيامة وبعدها ..... ٩٨
المبحث الأول: التغيير في السماوات والأرض قبيل القيامة وبعدها ..... ٩٨
المطلب الأول: التغيير في مظاهر الأرض ..... ٩٩
الفرع الأول: النفخ في الصور ..... ٩٩
الفرع الثاني: تبّدل الأرض ..... ١٠١
المطلب الثاني: التغيير في مظاهر السماء ..... ١٠٨
الفرع الأول: ذهاب ذاتها ..... ١٠٨
الفرع الثاني: ذهاب أنوارها: ..... ١١١
المبحث الثاني: التغيير في أحوال الناس يوم القيامة ..... ١١٣
المطلب الأول: التغيير في أحوال الناس عند حدوث القيامة: ..... ١١٣
المطلب الثاني: التغيير في أحوال الناس في عرصات القيامة: ..... ١١٤
المطلب الثالث: التغيير في أحوال الناس في الجنة ..... ١١٧
الفرع الأول: ما لا يتغير من أحوال الناس في الجنة: ..... ١١٧
الفرع الثاني: ما يتغير من أحوال الناس في الجنة: ..... ١١٩
المطلب الرابع: التغيير في أحوال الناس في النار ..... ١٢١
الفرع الأول: ما لا يتغير من أحوال الناس في النار: ..... ١٢١
الفرع الثاني: ما يتغير من أحوال الناس في النار: ..... ١٢٣
الفصل الرابع: الأشياء التي لا يجري عليها التغيير ..... ١٢٥
المبحث الأول: الله جل جلاله ..... ١٢٥
المبحث الثاني: القرآن الكريم ..... ١٢٧
المبحث الثالث: دين الإسلام ..... ١٣٣

المبحث الرابع: وعد الله للمؤمنين، ووعيده للكافرين في الدنيا والآخرة ..... ١٤٢
المطلب الأول: وعد الله للمؤمنين: ..... ١٤٢
المطلب الثاني: وعيد الله للكافرين ..... ١٤٩
الفرع الأول: الفرق بين الوعيد لفساق المسلمين والوعيد للكافرين: ..... ١٤٩
الفرع الثاني: صور من وعيد الله للكافرين: ..... ١٥١
المبحث الخامس: ..... ١٥٤
ما سبقَ في علم الله من الأقدار والآجال والأعمار والأرزاق والسعادة والشقاوة ..... ١٥٤
المطلب الأول: الاستدلال على كون علم الله الأزلي في أقضيته غيرَ قابل للتغيير: ..... ١٥٤
المطلب الثاني: اختلاف العلماء في جريان التغيير في الأعمار والأرزاق والآجال والشقاوة والسعادة: ..... ١٥٨
الفرع الأول: نصوص يوهم ظاهرها التعارض: ..... ١٥٨
الفرع الثاني: أقوال العلماء في المسألة: ..... ١٦٠
الخاتمة ..... ١٦٤
فهرس الموضوعات ..... ١٦٦

هذا الكتاب منشور في